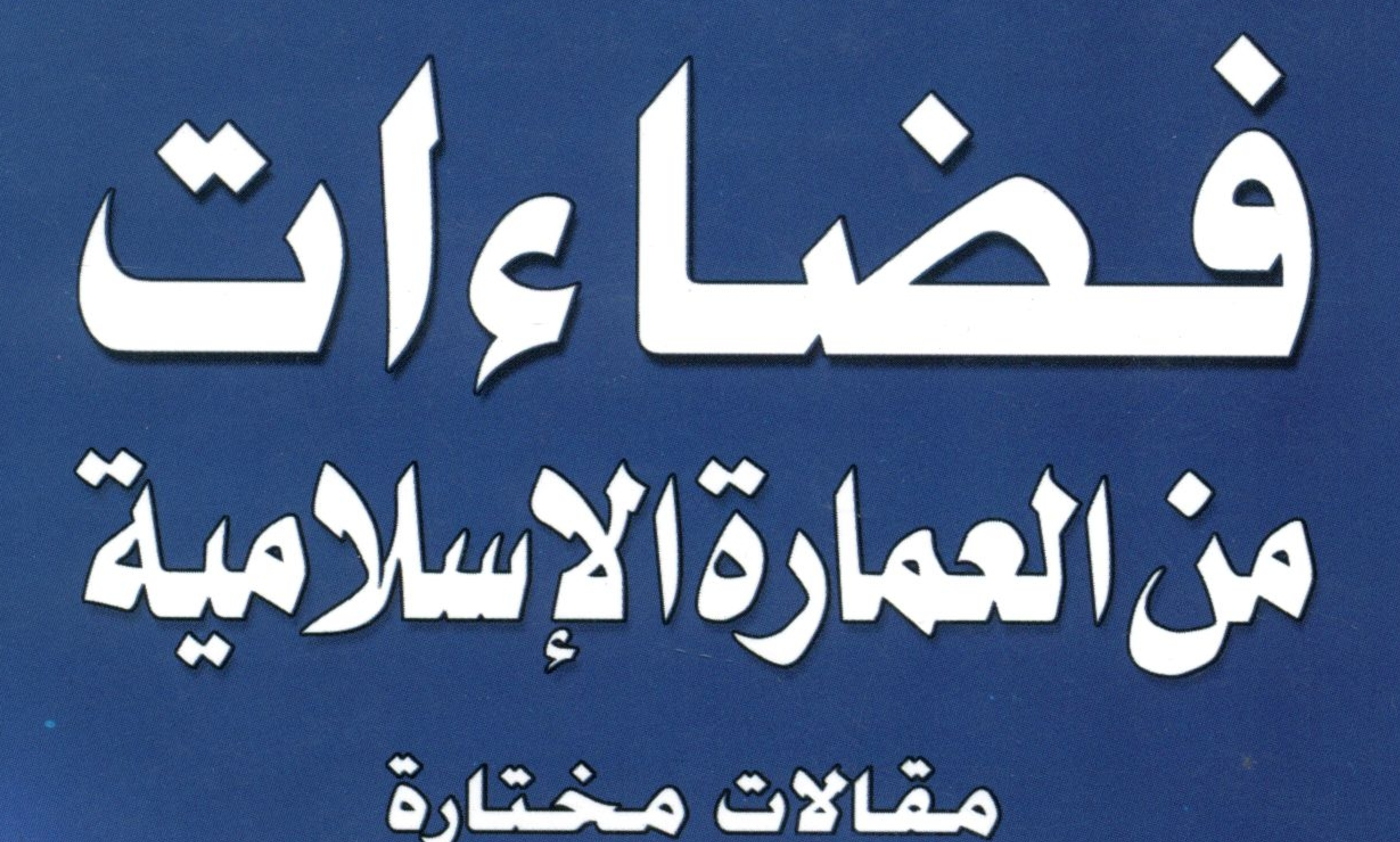




فضاءات من العمارة الإسلامية

مقالات مختارة

محمود زين العابدين

بسم الله الرحمن الرحيم



مقالات مختارة

محمود زين العابدين

شكر و تقدير

لمن ساهم في طباعة هذا الكتاب

غرفة سياحة حلب وإدلب

نقابة المهندسين - فرع حلب

ومجموعة من أبناء حلب المغتربين

بمناسبة احتفالات

حلب عاصمة الثقافة الإسلامية

١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

مقدمة

مع ولادة دين الإسلام، وبزوغ شمسه الوضاءة على العالم أجمع، توحدت الأمة العربية الإسلامية، وأصبحت دولة قوية ذات نفوذ وسيادة، بفضل اعتمادها على كتاب الله عزّ وجلّ لقوله تعالى: واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم. (سورة آل عمران: الآية ١٠٣)، وتجمعت هذه الأمة على تدارس القرآن الكريم، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم انطلقت من الجزيرة العربية لتنشر النور الجديد في عالمنا العربي والإسلامي، وتنشر معه العلم والعدالة و الحرية و المساواة.

وقد تجمعت تحت راية الإسلام شعوب عدة متباينة الأشكال والألوان واللغات والعادات فصهرها الإسلام في بوتقة الوحدة الروحية والأخوية، بعيداً عن التفرقة العنصرية، لقول الرسول صلى الله عليه و سلم: لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ❖.

لقد ولد دين الإسلام بعد مخاض عصيب، وبعد صبر و حكمة من الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، لينمو و يزدهر، و يصبح سبباً في ظهور حضارتنا الإسلامية الواسعة. فقد أثبتت تلك الحضارة رسوخها في الدين والعلم والمعرفة لتكون خير مرجع لنا جميعاً، ونحن نقلب صفحات تاريخنا المشرق والمخطوط بحروف ذهبية من الانتصارات و الاكتشافات، وبالفن المعماري الذي حمل في أشكاله طابعاً إسلامياً تميز به من سائر الحضارات المعمارية السابقة.

على الرغم من أن حضارتنا المعمارية الإسلامية ما هي إلا حصيلة حضارات معمارية سابقة، بيد أنها اختلفت عنهم بالقيم والمعايير و المفاهيم العقائدية.

أما عن الاختلاف العام في الأشكال المعمارية الإسلامية بين عهد وآخر كاختلاف الطراز الأموي عن العباسي فالسلجوقي أو المملوكي، وحتى العثماني، فإنما يعود لتأثر هذه النماذج بحضارات سابقة أو لعوامل أخرى جعلت لكل

❖ مسند أحمد ٥/٤١١

حضارة هويتها المعمارية الخاصة بها، وبطراز إنشائي مختلف أيضاً، مثل مادة البناء أو المناخ. غير أن جميع هذه الأشكال تشترك فيما بينها؛ لأنها نهضت وتطورت وفق أسس جمالية وروحية مشتركة، مصدرها واحد، ألا وهو دين الإسلام الحنيف.

مع هذه الإشراقة العظيمة، كانت البداية أو الانطلاقة في إنشاء المساجد، بعدما حثنا القرآن على ذلك، كما قال تعالى: إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة(سورة التوبة: آية ١٨)، فاهتم المعماري المسلم بإنشاء المساجد، وحظيت بعناية خاصة وفائقة من حيث التصاميم والمساحات، وما رافقها من زخارف ونقوش وتزيينات إسلامية، بعدما أصبحت أماكن عبادة و تجمّع.

لكن فنون حضارتنا المعمارية الإسلامية لم تقتصر على المساجد فحسب، فللعمارة المدنية دور مهم وأساسي في حضارتنا المعمارية وفق مبادئ ديننا الحنيف، معتمدة على تصاميم وأشكال ومقاييس تتناسب مع البيئة الإسلامية المحيطة بها.

نجد ذلك في زيارتنا للمدينة الإسلامية القديمة بأسوارها وبواباتها، وبالبيوت العربية التقليدية المنتشرة في أحيائها، وفي المدارس والخانات والحمامات والبيمارستانات، وغيرها من الأنواع الأخرى المتكاملة فيما بينها ضمن طراز معماري إسلامي مشترك.

كما أن للعمارة العسكرية أيضاً دور مهم في فن العمارة الإسلامية، إذ تنتشر الحصون والقلاع والأسوار المرتفعة، ذات الأبراج المستديرة، لحماية المدينة الإسلامية المحصّنة من الهجمات التي خضعت لها، وقامت بصدها والانتصار عليها. فمنذ بداية الدعوة الإسلامية، خاض المسلمون معارك كثيرة للدفاع عن هذا الدين، ومع انتشاره وتوسع رقعته بدأ المسلمون ببناء الحصون والأسوار لحماية هذه المدن من غزوات الأعداء، سواء أكانت صليبية أم إفرنجية، وأخذت العمارة العسكرية شكلاً تحصينياً بارتفاع الأسوار، وانتشار النوافذ الضيقة لرمي السهام ، أو السقاطات والأبراج، وحفر الخنادق ومتانة البوابات ذات المدخل المنكسر، والأبراج وغيرها من

العناصر المعمارية التي اعتمد عليها المعماري المسلم لتعزيز السمة الدفاعية فيها.

وبهذا توسعت رقعة الإسلام ممتدة من الخليج إلى المحيط، ولم تنشر دين الإسلام فحسب، بل نشرت معه حضارة إسلامية ذات طابع فكري واحد، جمع شمل هذه الأمة ووحّد كلمتها، وكلّلها بالرقي والعزة والانتصار.

وبما أننا أحفاد هذه الحضارة العربية الإسلامية، ومادمنا نشعر بالانتماء لهذه الأمة، فعلينا أن نحمل على عاتقنا شعور المسؤولية نحو هذا الميراث الحضاري، للمحافظة عليه والدفاع عنه، وفق إمكانياتنا وطاقاتنا العلمية والثقافية والإعلامية. والقيام بمراجعة تاريخنا ونقله إلى العالم، وأن نواجه وندحض محاولات بعض المستشرقين في تشويه هذا التراث الإسلامي بنوعيه المادي الملموس، والمعنوي المحسوس، ولما خضع له من افتراءات وتشويه ليس لها أي صحة أو دليل.

لهذا. . أضع بين يديكم هذا الكتاب الذي يضم خمس عشرة مقالة، كتبت ضمن فترات زمنية متفرقة، ونشرت في عدد من المجلات والصحف العربية، آثرت أن أجمعها في كتاب واحد، لتكون محاولة متواضعة في تسليط الضوء على بعض من حضاراتنا المعمارية والإسلامية عبر القلم والعدسة.

ومع أنه من الصعب أن نجمع هذه الحضارة الثرية الغنية الواسعة في مجموعة من المقالات أو الكتب، فهناك عدد من النماذج المعمارية المهمة والمتميزة والمنتشرة في عالمنا الإسلامي، لا تزال بحاجة إلى المزيد من الدراسات التوثيقية، آملاً أن يكون في هذه المحاولة الفائدة، لنساهم جميعاً بالتعريف بهذه الحضارة الثرية ونتعمق أكثر في البحث والعلم والمعرفة، كي نزداد تواصلاً مع حضارتنا العظيمة وتراثنا المعماري الإسلامي الثري.

والله ولي التوفيق ؛؛؛؛

م. محمود محمد راضي زين العابدين

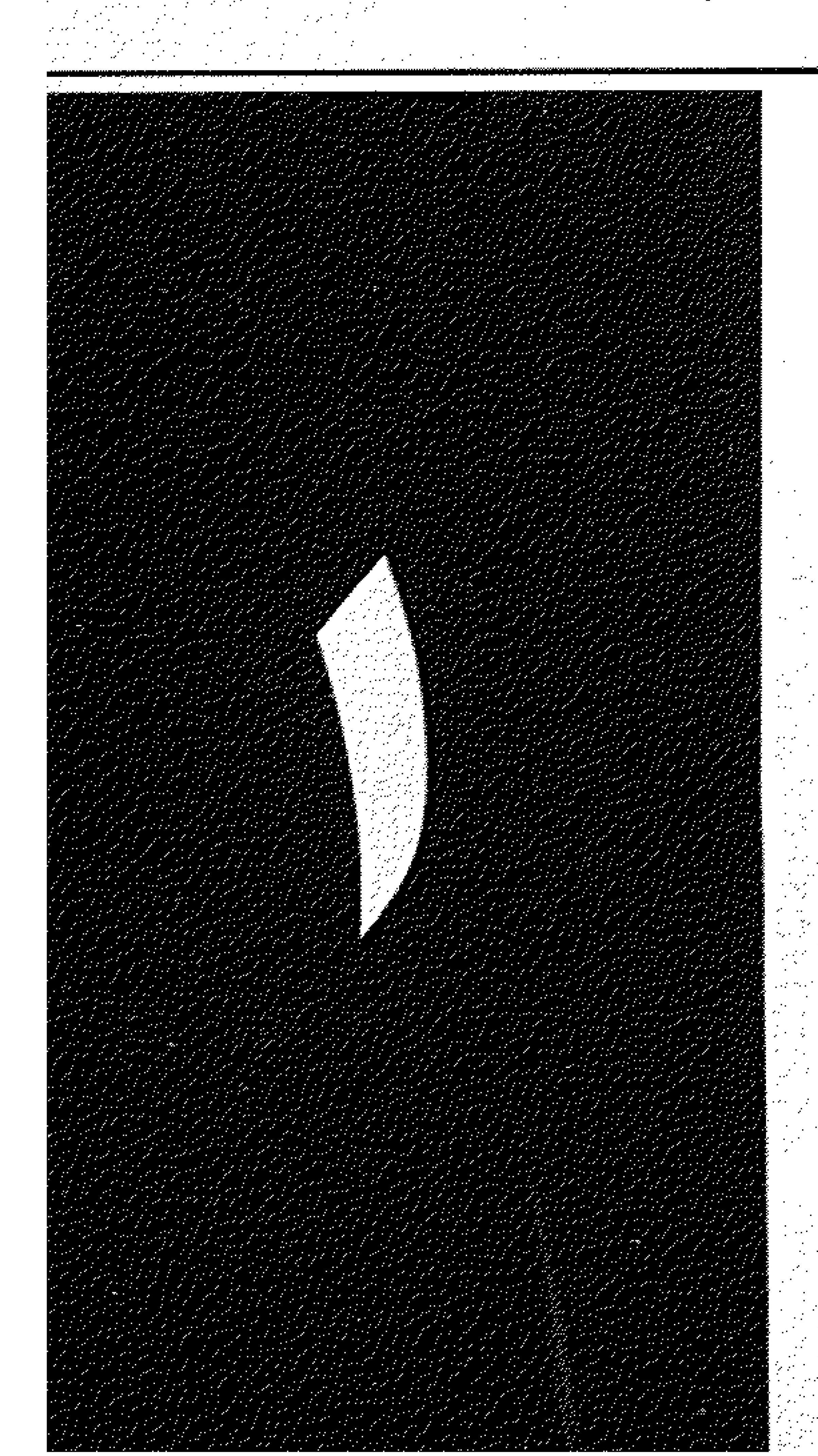
حلب ٧ آب (أغسطس) ٢٠٠٦

الموافق ١٣ رجب ١٤٢٧

المحتويات



الإلهام المعماري في حضارتنا الإسلامية

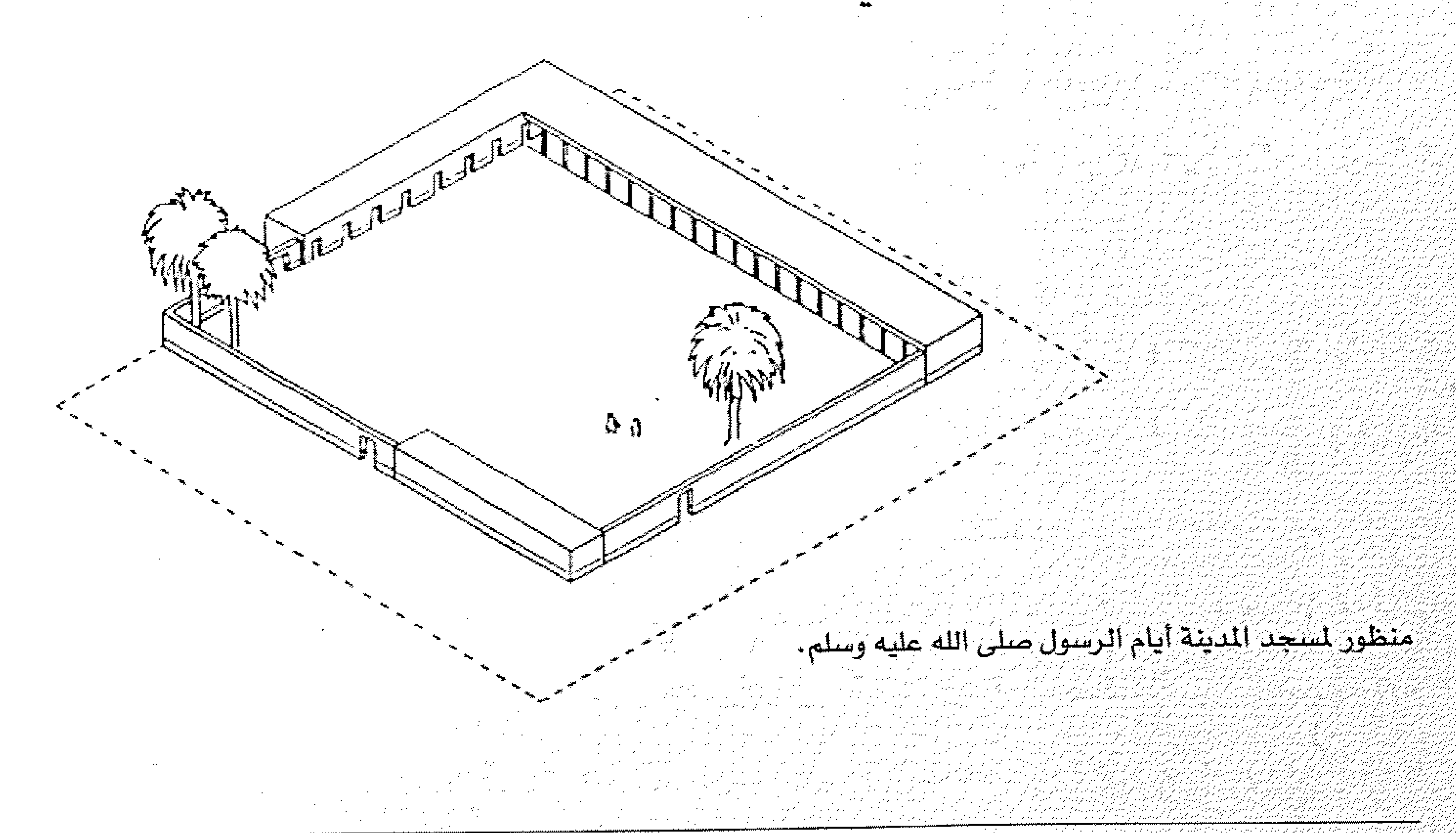


الإلهام المعماري في حضارتنا الإسلامية ❖

تتعدد الفنون الإسلامية وتتباين، وفي بعض الأحيان تتنافس فيما بينها، لجمالها ودقتها، وقد خضع فن العمارة الإسلامي ذو الطراز المتميز والطابع الخاص لعوامل معمارية وبيئية منحته شكله النهائي، وميزتّه في ثلاثة أنواع، هي:

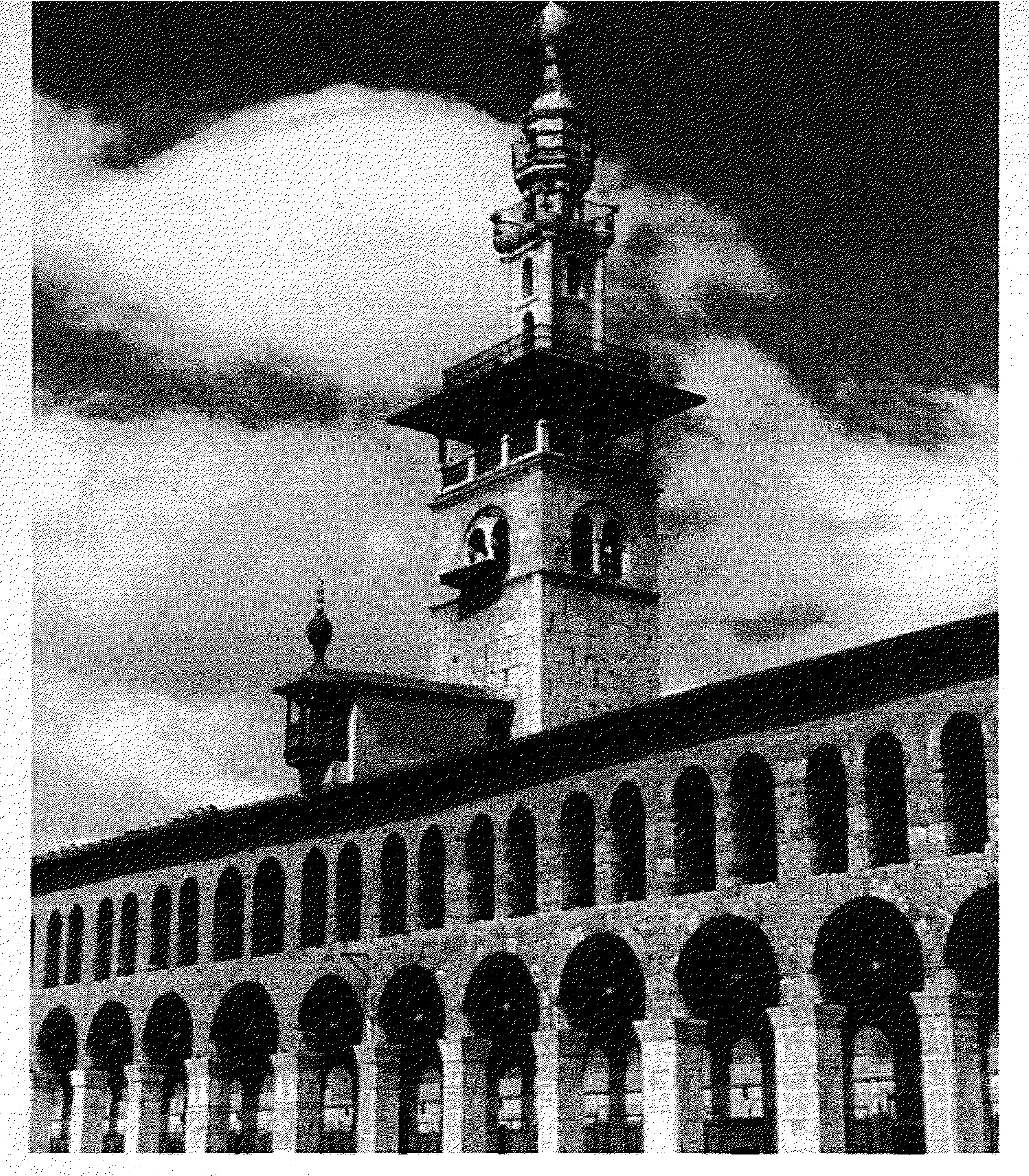
١- العمارة الدينية:

أهمها المساجد ذات القباب والمآذن والأعمدة وما شابهه من عناصر معمارية أساسية ضمن المسجد، وما المسجد إلا بيت الله، الذي يعود تاريخه لأول مسجد أنشأه الرسول صلى الله عليه وسلم بطريقة إنشائية متواضعة، دون مئذنة أو منبر، ثم تطور هذا الطراز المعماري وفق كل عهد أنشىء فيه. كأن نجد الطراز المعماري الخاص بالمسجد الأموي في دمشق، فنلاحظ استعمال الفسيفساء الخضراء ذات اللوحات التزيينية، وعلى أشكال نباتية، بالإضافة إلى أشكال مآذنه الثلاث، واحدة بشكل مثمن، واثنتين بشكل مربع، ونجد سقفه على شكل جملوني.



منظور لمسجد المدينة أيام الرسول صلى الله عليه وسلم.

❖ المجلة العربية العدد ٢٣٠ - ربيع الأول ١٤١٧ هـ، الموافق أغسطس (آب) ١٩٩٦م



مئذنة العروس في المسجد الأموي بدمشق - تصوير: المؤلف.

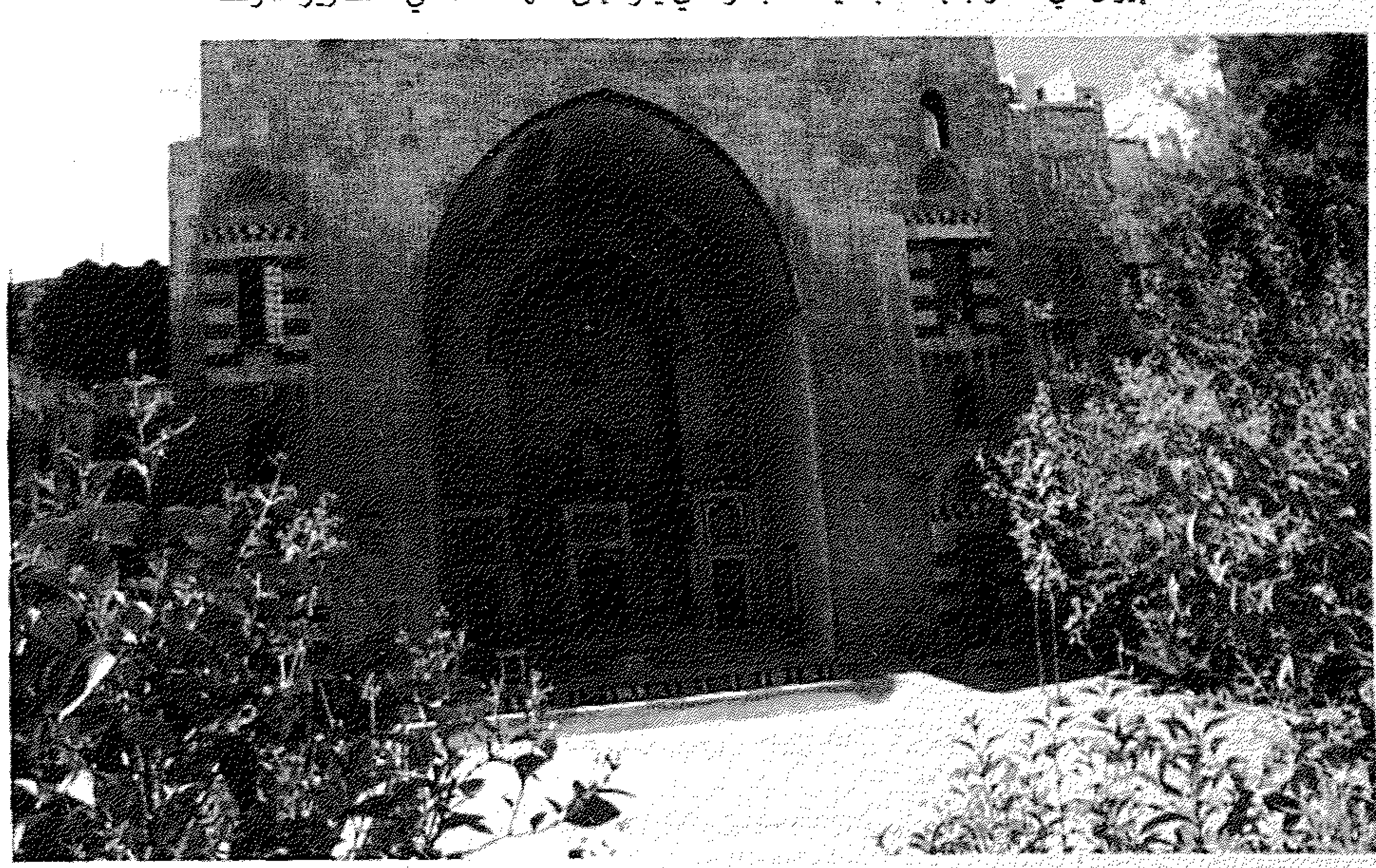
إن المهندس المعماري الذي أنشأه كان متأثراً بالبيئة المعمارية القديمة، ذات العظمة والضخامة، مظهراً الطراز المعماري الخاص بالعهد الأموي، وقام بدراسة الفن المعماري السابق كي يتمكن أكثر في تصميمه، ويحافظ على طراز عهد خاص يحمل طابعاً معمارياً معيناً لا يمكنه الخروج عنه، وبدراستنا لطراز معماري آخر يعود إلى العهد العثماني نجد طرازاً جديداً يختلف تماماً عن الطراز الأموي، فقد أبدع العثمانيون في فن العمارة الإسلامي، وخاصة في إنشاء المساجد والمدارس التي تحيط بالمساجد.

انتشرت المساجد في العهد العثماني بكثرة، وبقيت إلى يومنا هذا بمآذنها الطويلة و المدببة، وكأن سماء مدينة إستانبول محمولة على هذه المآذن. وقد تميز الطراز المعماري الإسلامي لهذا العهد بانتشار الأروقة المربعة الشكل ذات القباب الصغيرة، وغالباً ما يكون للمسجد قبة رئيسة كبيرة، حولها أنصاف قباب أو قباب على شكل أصغر، وتتعدد المآذن ضمن المسجد الواحد، كما أن جميعها متشابهة فيما بينها من حيث شكلها المدبب وصغر قطرها.

٢- العمارة المدنية:

ونقصد بالعمارة المدنية عمارة القصور والبيوت، إذ حظيت باهتمام كبير وعناية ودقة في التصميم والتنفيذ. ويلفت انتباهنا بساطة المسكن من الخارج، بمدخل متواضع وصغير أيضاً، وما إن نطأ المنزل حتى نجد أنفسنا في فناء واسع جميل اصطفت حوله الغرف، وتربع الإيوان وسط المسكن، وهو أحد العناصر المهمة ضمن المسكن، ويكون مفتوحاً على الفناء، ومستواه أعلى

الإيوان في قصر جنبلاط بمدينة حلب، والذي يعود إلى العهد العثماني - تصوير: المؤلف.





الإيوان في بيت أجقباش، والي مدينة حلب في العهد العثماني - تصوير: المؤلف.

من الفناء بقليل، وعلى جانبيه تقع الغرف، ويستعمل الإيوان للجلوس أو الاستقبال. وهناك النافورة التي تتوسط الفناء، وهي عنصر تجميلي وأساسي أيضاً، حيث تتدفق المياه منها وسط جو شرقي مع عبير الياسمين والزنبق والفل والورد، وغيرها من النباتات الموجودة في كل مسكن، ويعدّ البئر عنصراً مهماً ضمن المسكن، وكان يعتمد عليه في توفير مياه الشرب والغسيل، وتوضع فيه الأطعمة صيفاً للمحافظة عليها؛ لأن جوه الداخلي بارد ورطب.

أما الغرف، فقد قسمت قسمين: قسم المعيشة والاستقبال (سلاملك)، ويقع في الدور الأرضي من المنزل حصراً، وهنالك الغرفة المقابلة للإيوان مباشرة لاستقبال الضيوف، وقد حظيت هذه الغرفة بالعناية الفائقة من الداخل، ولا تستعمل إلا في الحالات الخاصة، وفي المناسبات والأعياد.



غرفة نوم في بيت وكيل بمدينة حلب - تصوير: المؤلف.

بالنسبة إلى الغرف الأخرى في الدور الأرضي فهي غرف جلوس وطعام ومعيشة، بالإضافة إلى القبو الذي تحفظ فيه الأغذية والمواد التموينية، مثل الزيت والسمنة والجبن وغيرها.

والقسم الآخر قسم النوم (الحرملك): ويقع في الدور العلوي للمنزل، وفيه غرف النوم ذات النوافذ الصغيرة والمطلة على الفناء وعلى الخارج أيضاً، وقد فصل جناح النوم عن جناح المعيشة، ويصعد إلى الدور العلوي بواسطة درج حجري أو عدة أدراج من فناء المنزل.

إن للمسكن حياة انطوائية نحو الداخل، أي: الفناء، وكان لدين الإسلام الحنيف الدور الكبير في ذلك، إذ فصل بين البيئة الخارجية للمسكن والبيئة

الفناء في بيت وكيل بمدينة حلب - تصوير: المؤلف.





البيئة الداخلية الثرية في مكتب عنبر بمدينة دمشق - تصوير: المؤلف.

الداخلية، وأبعد قسم النوم عن القسم المعيشي للخصوصية. فأوجد المصمم بيئة داخلية فيها الحركة والجمال والطبيعة، مضيفاً لمساته الفنية، مبدعاً بفضل الزخرفات التي تعتلي النوافذ والإيوان، بالإضافة إلى الأشكال الهندسية الجميلة للبلاط في أرضية الفناء، وخاصة أمام الإيوان لأهميته.

ودرس المعماري أيضاً التهوية للمسكن بواسطة الملاقف ليتغلب على العوامل المناخية في المناطق ذات المناخ الحار.

٣- العمارة العسكرية:

وهي ما تسمى بالأربطة أو الثكنات العسكرية، وكانت في السابق على شكل حصن منيع ذي أبراج للمراقبة والحماية، وبشكل مستطيل، ذي فناء واسع تحيط به الغرف السكنية الصغيرة. ولم يلق هذا النوع من العمارة الاهتمام البالغ، كما لقيته العمارة الدينية أو المدنية؛ لأنه بقي محصوراً ضمن إطار عسكري ورسمي، وليس الهدف من المنشآت العسكرية التفنن أو الزخرفة، بل الحماية والمتانة.

التصميم المعماري:

يرتكز التصميم المعماري على أساسات من العلاقات بين الوحدات المعيشية ذات الوظائف المختلفة من جهة، وعلاقة جميع هذه الوحدات المترابطة فيما بينها على شكل كتلة إنشائية، وهي ما تسمى بعلاقة المبنى مع البيئة المحيطة بها. فعندما يحصل المعماري المصمم على مخطط الأرض التي سيقوم بإنشاء المبنى عليها مع تحديد الغاية من المبنى، ويحصل على البرنامج الوظيفي الذي يشكل عناصر هذا المبنى مع المساحات التي سيشغلها كل عنصر على حدة، يقوم بدراسة شاملة قبل الدخول في مرحلة التصميم.

الدراسة قبل التصميم:

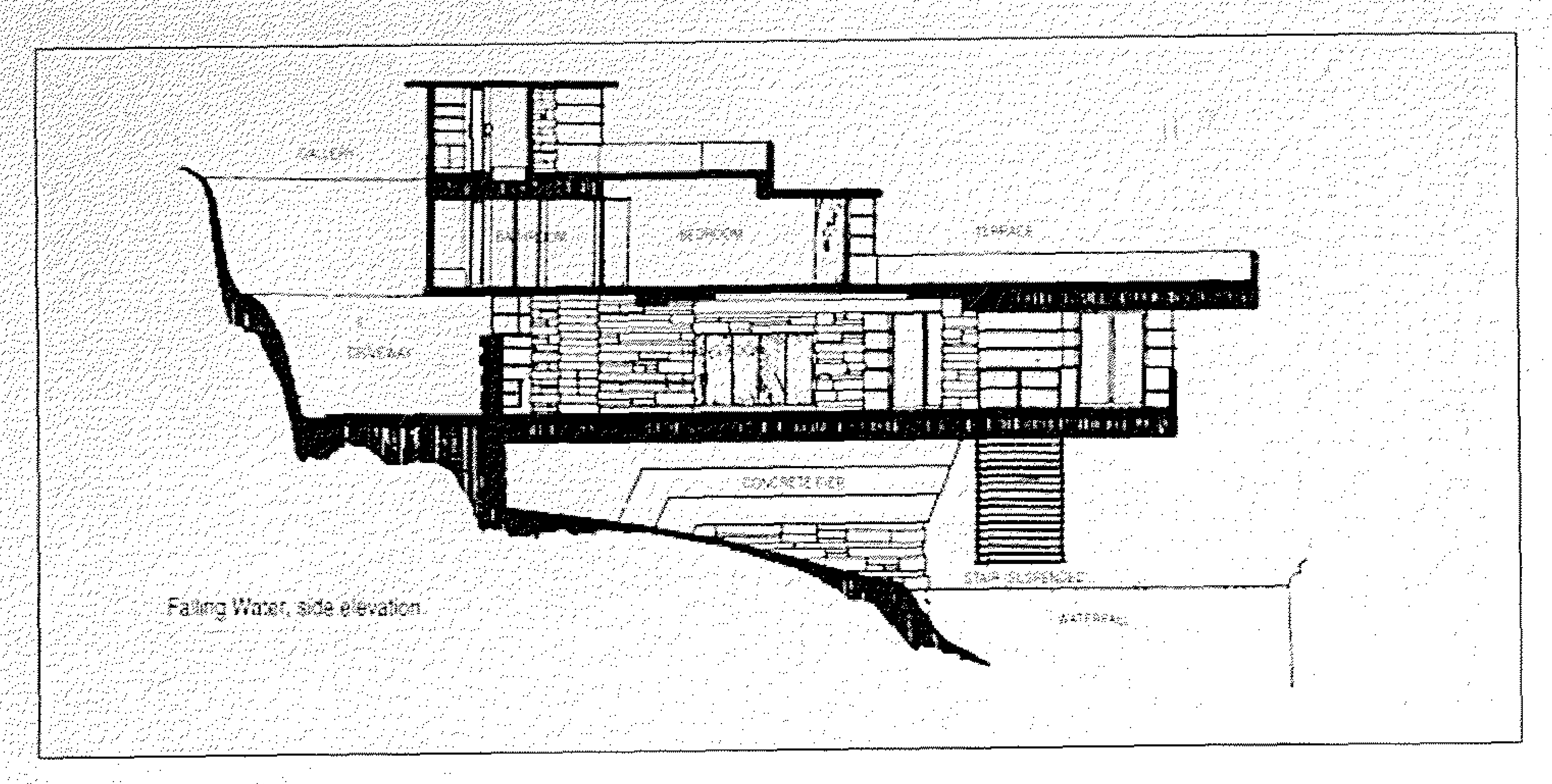
يدرس المعماري أولاً النوعية الوظيفية للمبنى، مطلعاً على المراجع والتصميمات التي تحمل عنوان موضوعه نفسه، مستفيداً من أفكار وتجارب المصممون المعماريون في السابق. ثم يتعرف إلى الموقع العام، ويقوم بالتقاط الصور للموقع وللبيئة السكنية أو الطبيعة المحيطة بها، مع دراسة طبوغرافية للأرض ولدرجة الميل فيها، إذ يرتبط تصميم المبنى بشكل الأرض وبدرجة ميلها، مستغلاً هذا الميل في تصميمه، مع مسح كامل للبيئة السكنية وللطراز المعماري السائد فيها، فمن غير الممكن أن يصمم المعماري مبنى شاهقاً ضمن بيئة معمارية ذات ارتفاع محدود ومعين، أو أن يصمم مبنى لا يمت بأي صلة لبيئته، وكأنه أشبه بمسمار فولاذي اقتلع من مكان آخر ذي شروط بيئية ومعمارية معينة، ليثبت في هذا المكان، وهذه ظاهرة بدأت تنتشر، ويالالأسف الشديد في عالمنا العربي.

المنـــاخ:

يعدّ المناخ عاملاً رئيساً ومهماً، وله تأثير كبير في منحى التصميم المعماري للمبنى، فإن كان المناخ بارداً وذا أمطار وثلوج فتستعمل الأسقف ذات الشكل الجملوني، التي تساعد على انسياب الأمطار أو الثلوج، كما نجد استعمال النوافذ ذات الحجوم الصغيرة للمحافظة على حرارة المبنى وعدم التأثر بالبرودة،



مسكن (فرانك رايت) فوق شلالات المياه، وهو نموذج مثالي لاحترام البيئة الطبيعية.



مقطع توضيحي لمسكن (فرانك رايت).

بالإضافة إلى استعمال جدران سميكة لحصول العازلية الحرارية بشكل قوي. أما إذا كان المناخ حاراً فتستعمل الأسطح المستوية والنوافذ الكبيرة المشرفة على البيئة المحيطة، وبما أن المبنى الجديد سيكون جزءاً من البيئة السكنية والبنائية فيجب أن يكون عنصراً مكملاً وجمالياً، لا أن يكون مخالفاً لها، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك، أحدها المسكن الذي صممه المعماري الشهير (فرانك رايت) فوق شلالات المياه التي تعدّ أحد عناصر البيئة الطبيعية، فلم يكن مسكنه عائقاً في وجه تدفق المياه، وهذا ما نسميه احترام البيئة الطبيعية والمحافظة عليها.

أيضاً هناك دراسة لحركة الشمس وفق الاتجاهات الأربعة، إذ يؤدي هذا العامل دوراً مهماً في التصميم المعماري للمبنى.

العلاقة بين الوحدات المعيشية:

يقوم المعماري بعملية الربط بين الوحدات المعيشية وفق أهمية العلاقة فيما بينها، من حيث نوعية كل وحدة مع درجة اتصالها بالوحدة الأخرى، فلو أخذنا على سبيل المثال مسكناً ما، لوجدناه مؤلفاً من ثلاثة أقسام ثابتة نجدها في جميع المساكن:



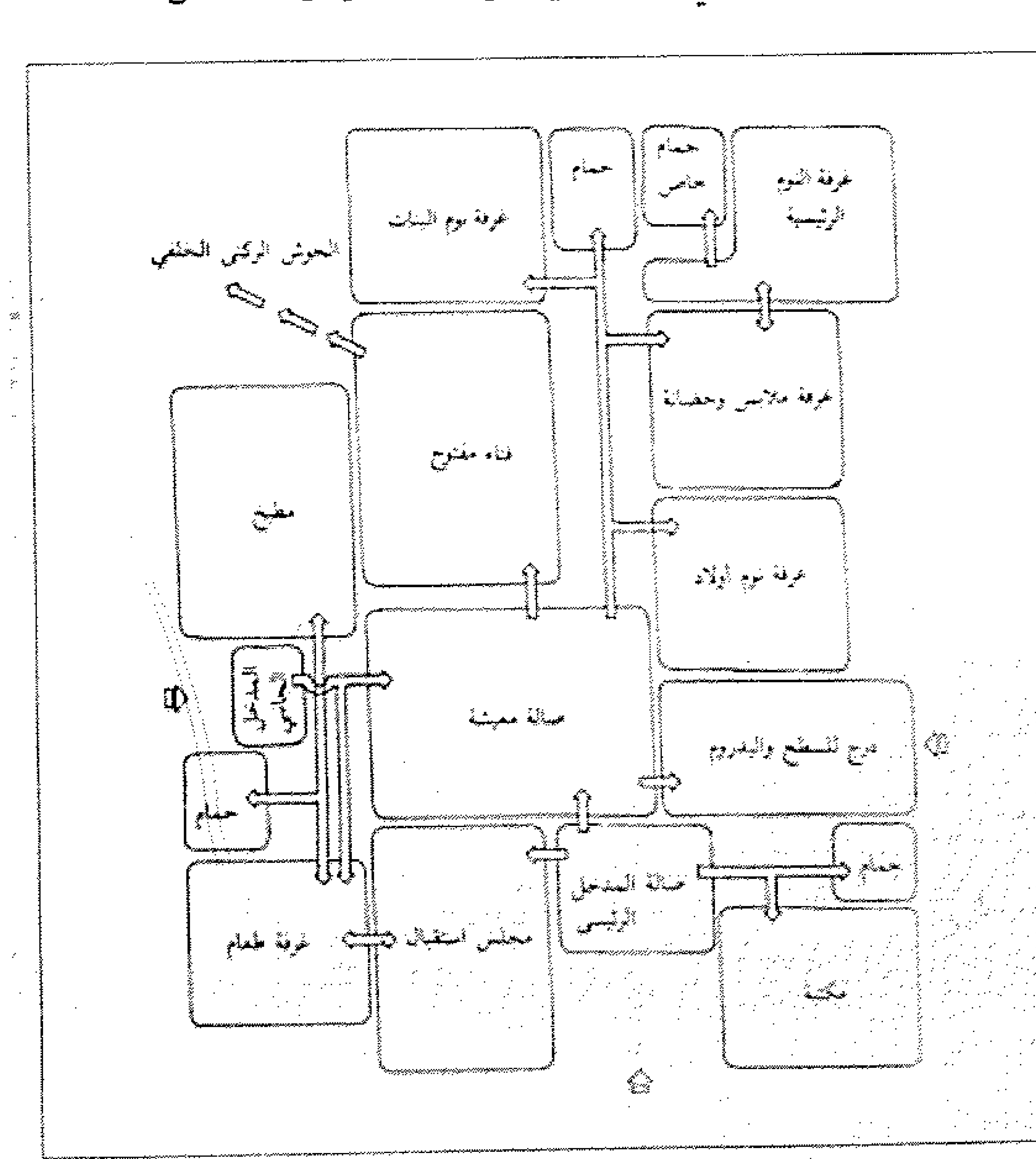
قسم الحرملك في بيت سيسي بمدينة حلب - تصوير: المؤلف.

١- القسم المشترك: المدخل ـ المطبخ.
٢- القسم المعيشي: جلوس ـ طعام ـ استقبال.
٣- قسم النوم: غرفة النوم الرئيسة ـ غرف نوم الأولاد ـ الحمامات.

إن علاقة المطبخ بغرفة الطعام علاقة متينة وقوية، ولذلك يجب أن تكون قريبة منه، أو حتى ملتصقة به؛ لأنه من غير المعقول نقل الأطباق أو الطعام من المطبخ إلى غرفة طعام بعيدة، تتطلب منا قطع مسافة حتى نصل إليها، وهناك العكس بالعلاقة غير القوية بين أقسام المسكن، كإبعاد قسم النوم عن القسم المعيشي، وفصله فصلاً تاماً للمحرمية من جهة، ولتأمين الهدوء لغرف النوم من جهة أخرى.

هذه هي العلاقة الداخلية بين الوحدات المعيشية، أما عن العلاقات

مخطط توضيحي للعلاقة بين الوحدات المعيشية للمسكن.


الخارجية أي المبنى بالبيئة، فهناك أيضاً علاقات قوية، مثل علاقة قسم المعيشة - الذي يقضي الإنسان فيه معظم وقته - بالبيئة الخارجية، فيركز المعماري في اغتنام أفضل اتجاه له إطلالة جمالية، كحديقة أو بحر أو ما شابهه من عناصر بيئية وطبيعية، ويقوم بتوزيع النوافذ ذات المساحات الكبيرة والمشرفة على الخارج.

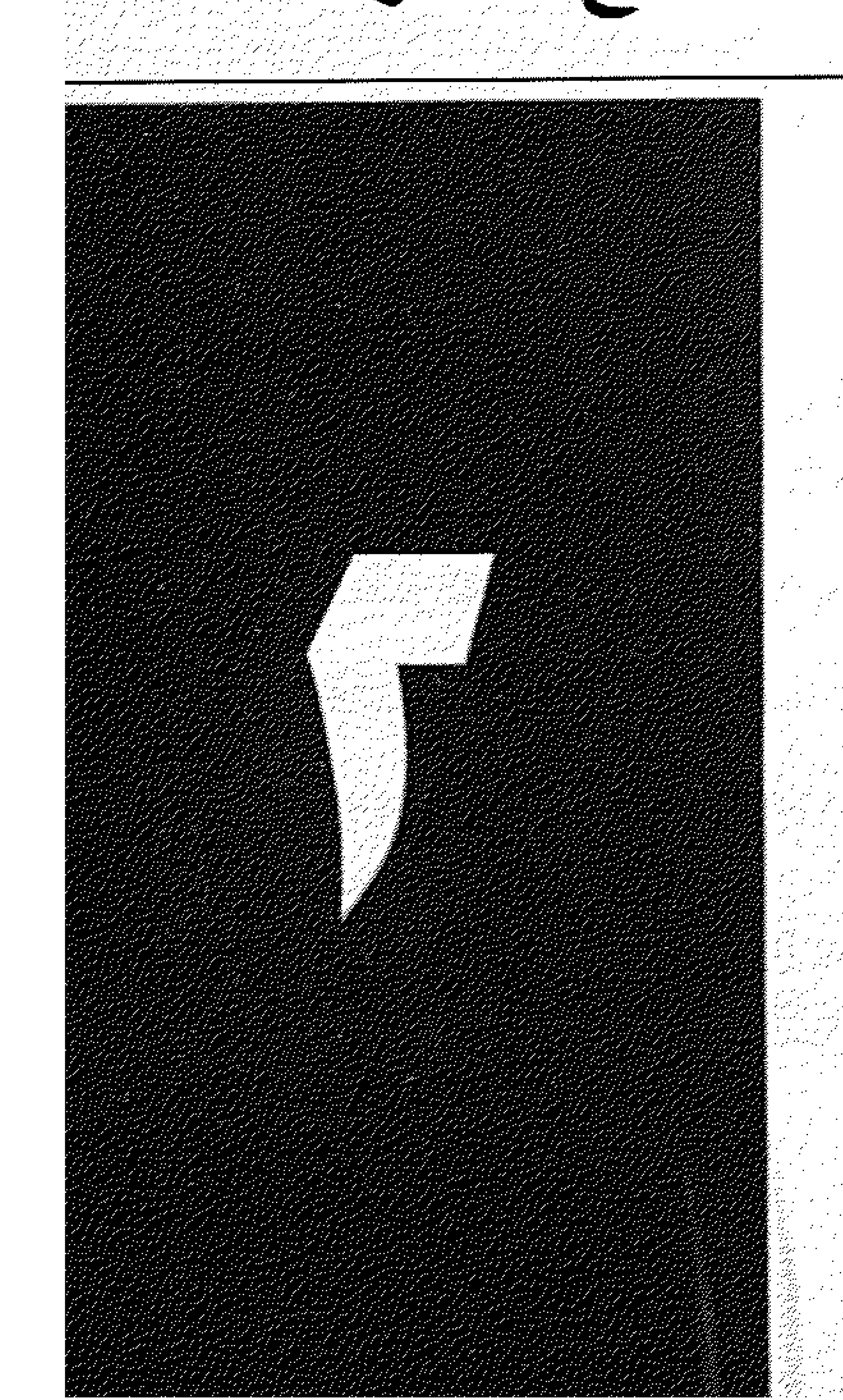
إذن ليس من السهل أبداً أن يبدأ المعماري بالتصميم قبل القيام بدراسة العلاقات الداخلية والخارجية للمبنى، بالإضافة للأمور التي ذكرناها سابقاً، حينها يمكن أن يسكب فنه وتصميمه ضمن بوتقة الواقعية مازجاً الفن بالهندسة، مشكلاً أبدع اللوحات المعمارية وأجملها.

العلاقة المتينة بين البيئة الخارجية والبيئة الداخلية للمسكن.





المسكن التركي . تفاعل الطبيعة مع التراث



المسكن التركي. تفاعل الطبيعة مع التراث ❖

صفران بولو : SAFRAN BOLU

مدينة صغيرة متواضعة، ابتعدت عن الأضواء وعن الضجيج، انسحبت وحافظت على أصالتها وعراقتها لتأخذ مكانها في منطقة البحر الأسود ضمن حدود جمهورية تركية، ولم تحافظ على طرازها المعماري والمعيشي فحسب، بل حافظت على البساطة الريفية وعلى الخصال الحميدة التي تجدها في أخلاق وتصرفات ساكنيها، يستقبلك الناس بابتسامة خالية من النفاق أو الرياء، فتندهش للوهلة الأولى متعجباً وأنت تدخل بوابة متحف مكشوف. والمتجول في الأزقة الضيقة المتعرجة لهذه المدينة، يتأمل البيوت القديمة ذات المشربيات والأسقف الجملونية التي حافظت على طرازها المعماري التقليدي، فيتلهف شوقاً لزيارة أحد البيوت كي يتعرف ومن الداخل إلى العناصر المعمارية للبيت التركي.

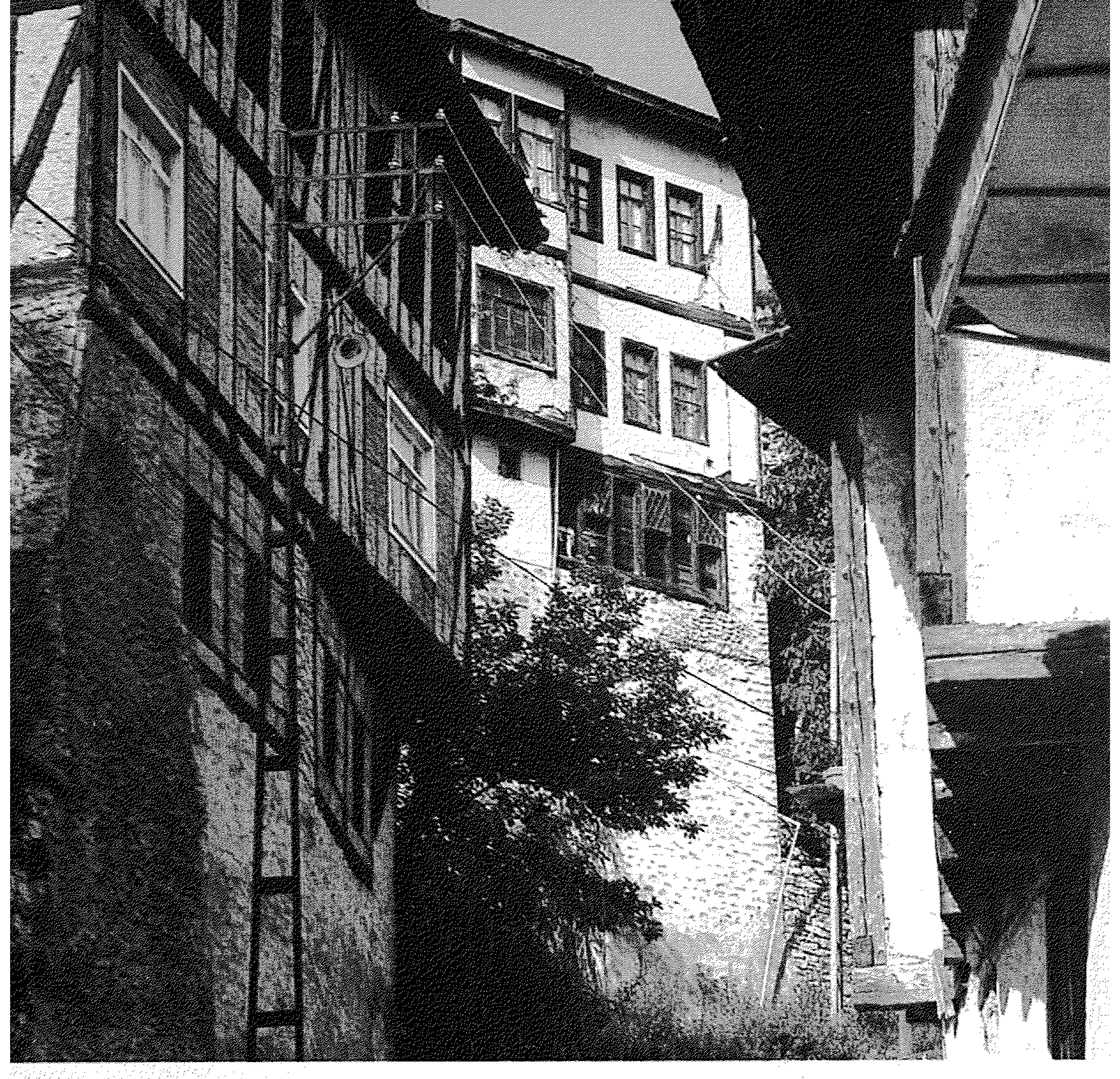
عناصر البيت:

يتألف البيت التركي من عنصرين أساسيين من حيث شكله الرئيس، وهما : الرواق والغرف.

١- الرواق:

من أهم خصائص البيت التركي أن غرفه غير متصلة مع بعضها بشكل مباشر، بل عن طريق الرواق، والمسمى بالصوفة (Sofa)، فالرواق هو المساحة المشتركة بين الغرف، وله الأهمية الكبرى في تأسيس البيت التركي، وفي إعطائه شكله النهائي، كما أن اتصال الغرف بالرواق يعطي ميزة خاصة للبيت التركي إذا ما قورن بالبيوت الأوروبية.

❖ المجلة العربية العدد ٢٣٥- شعبان ١٤١٧ هـ، الموافق يناير (كانون الثاني) ١٩٩٧م



الانفتاحية نحو البيئة الخارجية للمسكن التركي بمدينة صفران بولو.

٢- الغرف:

الغرفة، هي وحدة مستقلة تماماً ومتكاملة. فلكل غرفة باب مستقل وخاص بها بنظام داخلي مستقل، ولا يوجد قطعاً أي اتصال مباشر بين غرفة وأخرى. ويلفت انتباهنا ونحن بداخل الغرفة أن جميع عناصرها ثابتة، فالخزائن ضمن الجدران، ومكان الجلوس ثابت أيضاً على شكل مجلس شرقي، أما التزيين الداخلي للغرفة فينحصر على مناطق معينة، ولا نجد لوحات تزيينية.



المجلس الشرقي في المسكن التركي بمدينة صفران بولو – تصوير: المؤلف.

يقضي الفرد جميع احتياجاته ضمن الغرفة الواحدة، إذ تستعمل كوحدة معيشة في الجلوس نهاراً، وفي النوم ليلاً، ويتم تناول الطعام فيها، بالإضافة للوضوء والصلاة، كما أن الضيف يخضع لنظام استقبال معين، ولا نجد مجموعات مستقلة في الجلوس.

وبما أن الغرفة تستعمل لأهداف عديدة، فإن مفهوم النظافة والطهارة في غاية الأهمية، مما نجد نظام خلع الحذاء خارج الغرفة لأن الجلوس والطعام

والنوم يتم ضمن منسوب واحد وقريب من سطح أرضية الغرفة، علماً أن أرضية الغرفة تغطى بالسجاد أو بالبسط ذات الألوان المتناسقة مع لون المجلس وبأشكال ورسومات شرقية معينة.

عناصر الغرفة:

للغرفة عدد من العناصر الرئيسة، موزعة على النحو الآتي:

١- المساحة المتوسطة:

تبقى هذه المساحة فارغة لتناول الطعام وسط الغرفة وعلى طاولة مستديرة الشكل، منخفضة الارتفاع، حيث يجلسون على الأرض حول طاولة الطعام، وبعد الانتهاء من الطعام ترفع الطاولة لتبقى المساحة المتوسطة فارغة ولتساعد على الحركة ضمن الغرفة، دون أي عوائق.

٢- مساحة الجلوس:

مكان الجلوس ثابت، وهو على شكل مجلس عربي ذو منسوب أعلى من أرضية الغرفة، ويحيط بجدران الغرفة، كما أن أهمية المجلس تتناقص بدءاً من رأس الغرفة وحتى طرف الباب، حيث يجلس الضيف في وسط المجلس، أما صاحب المسكن فيكون مكان جلوسه أقرب إلى المدخل، وهذا يمثل أحد أنواع الاحترام والضيافة.

٣- النوافذ:

تعتبر النوافذ عنصراً مهماً من العناصر الرئيسة في البيت التركي بمنطقة الأناضول، خاصة لرؤية البيئة المحيطة بالبيت، وتنقسم إلى قسمين أساسيين، هما:

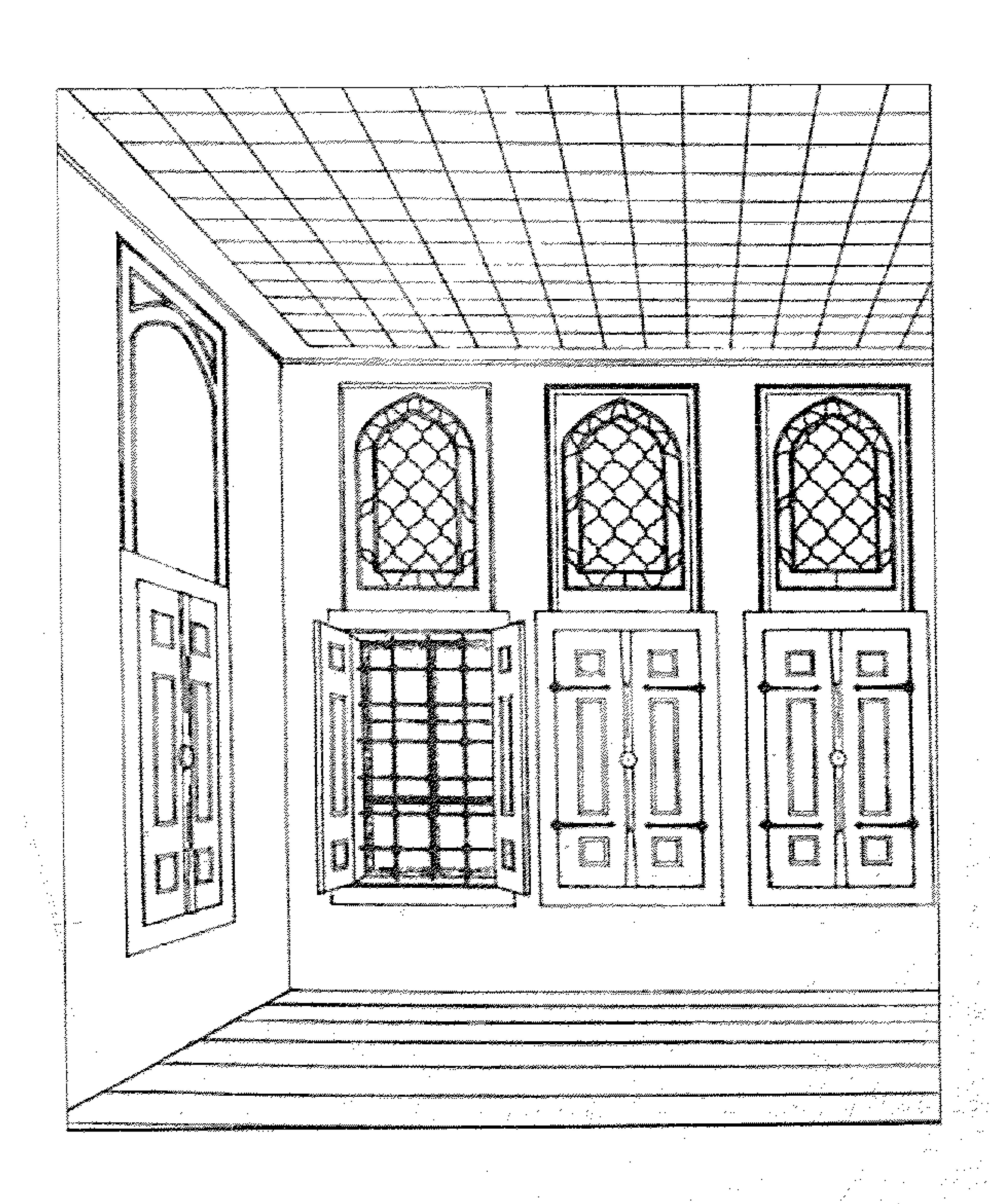
❖ النوافذ المرتفعة:

لاقت هذه النوافذ اهتماماً كبيراً من حيث الشكل والتنفيذ، كما أنها تتميز بصغر حجمها وبكونها ثابتة، أما عن الاهتمام بها فيعود لكونها قريبة من

السقف، كي تظهر جماله وبما يحمله من زخرفة ونقوش، أو لإضاءة الغرفة بشكل عام. وللنافذة وجهان من الزجاج، وجه داخلي مؤلف من إطار خشبي عليه قطع صغيرة من الزجاج الملون، أعطته شكلاً جميلاً بواسطة الجبس، ووجه خارجي مؤلف من زجاج شفاف غير ملون، ليساعد في إضاءة الوجه الداخلي الملون للنافذة، وعند إغلاق النوافذ السفلى يمكن أن يستمد الضوء من النوافذ العليا للغرفة.

❖ النوافذ المنخفضة:

يتميز هذا النوع من النوافذ بأنها قابلة للفتح والإغلاق، على عكس النوافذ العليا، ويصل عرضها تقريباً إلى ٨٠ سم، أما ارتفاعها فيصل إلى ١٢٠ سم، ويرتبط عدد النوافذ بحجم الغرفة وبدرجة الاحتياج لها. وعلى الرغم من كبر حجم الغرفة أحياناً، غير أن النافذة حافظت على حجمها



منظور توضيحي لأحد المساكن من الداخل، يوضح العلاقة بين النوافذ العليا والنوافذ المنخفضة.

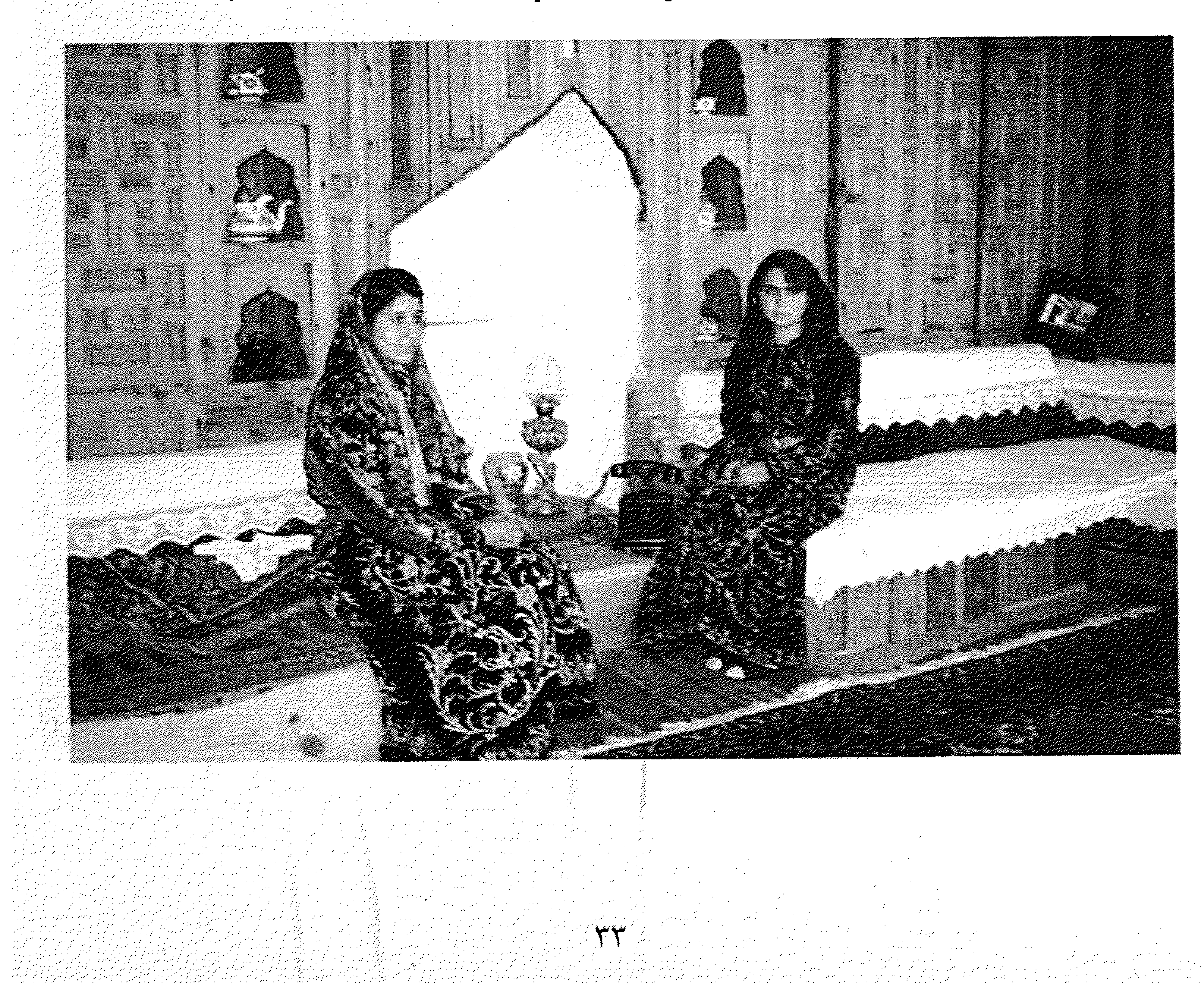
فنلاحظ صغر حجم الدرف ضمن النافذة الواحدة، كذا الأمر بالنسبة إلى الزجاج الثابت على درفتها. وتفتح الدرف بثلاثة أشكال:

- بواسطة الانزلاق العمودي للدرفة.
- بواسطة مفصلات أفقية.
- بأشكال متعددة ضمن نافذة واحدة.

٤-الموقد:

يتوسط الموقد جدار الغرفة، ونجد الخزائن ذات الرفوف على جانبيه، وقد أعطى الموقد لجدار الغرفة صفة خاصة وهي البروز ضمن الجدار نحو داخل الغرفة. ولقي الاهتمام والاعتناء في شكله وفقاً لأهمية الغرفة، بالإضافة لكونه عنصر مهم في تدفئة الغرفة، وصار أيضاً عنصراً من عناصر الديكور الداخلي للغرفة في البيت التركي، أما عن شكله الخارجي فينفذ من الجبس أو الخشب.

التكامل الفني بين الموقد والجدران الخشبية في المسكن التركي بمدينة صفران بولو - تصوير: المؤلف.

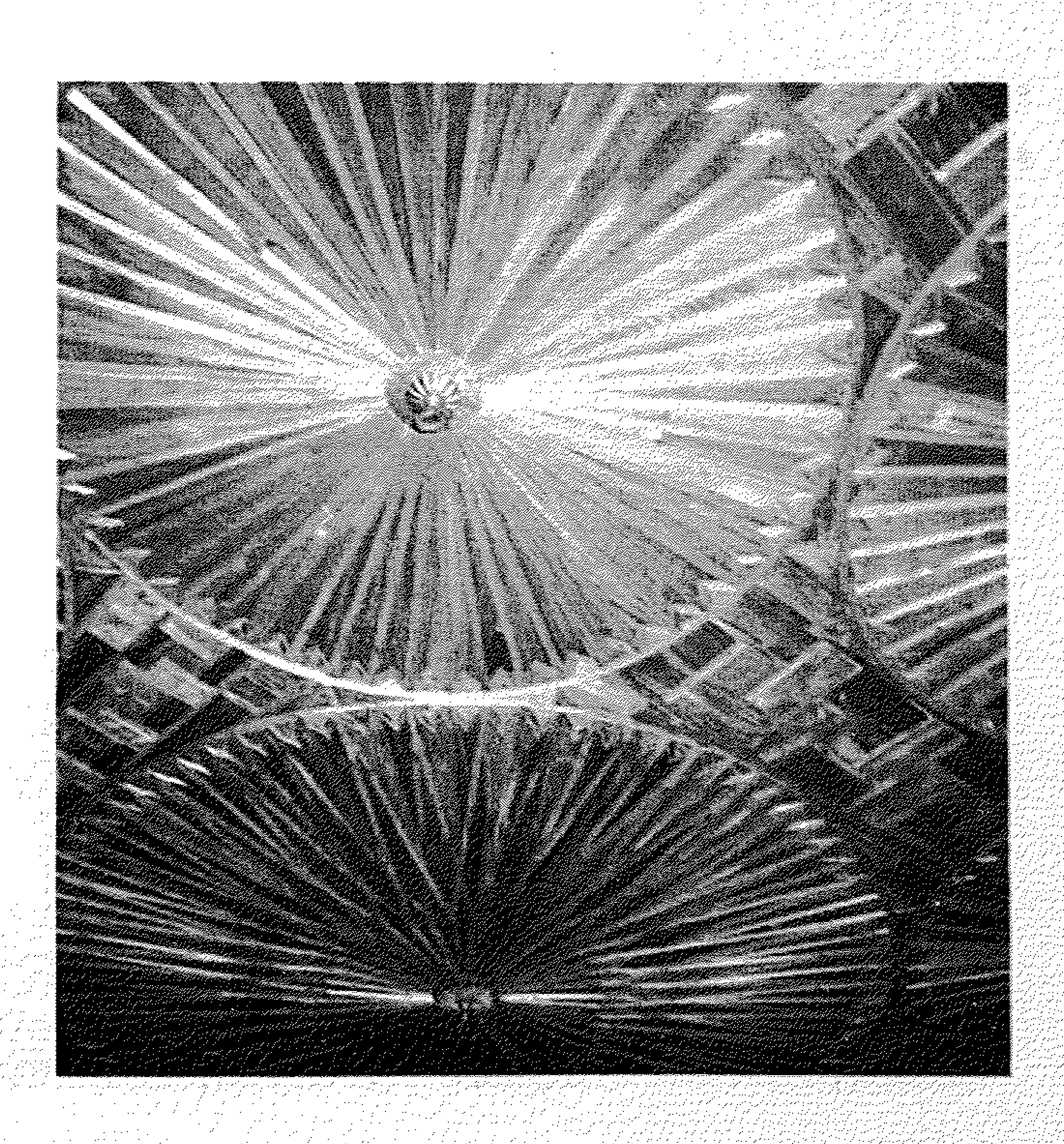


٥- الخزائن:

تعتبر الخزائن من العناصر المهمة والمؤثرة في تشكيل الغرفة للبيت التركي، وهي ثابتة ضمن الجدار وتستعمل لوضع الأشياء اليومية كالوسائد والأغطية وما شابهه من حاجات أخرى، وهناك الخزائن المكشوفة ذات الرفوف، فتعتبر كعنصر جمالي في وضع الأشياء الثمينة أو التجميلية. وقد صممت الخزائن بحيث يكون ارتفاعها مناسب لامتداد يد المستعمل لأعلى رف، لذلك فإن ارتفاع جميع الخزائن ثابت، أما الرفوف التي تعتلي الخزائن فتستعمل لوضع الأشياء الغير مستعملة بشكل يومي.

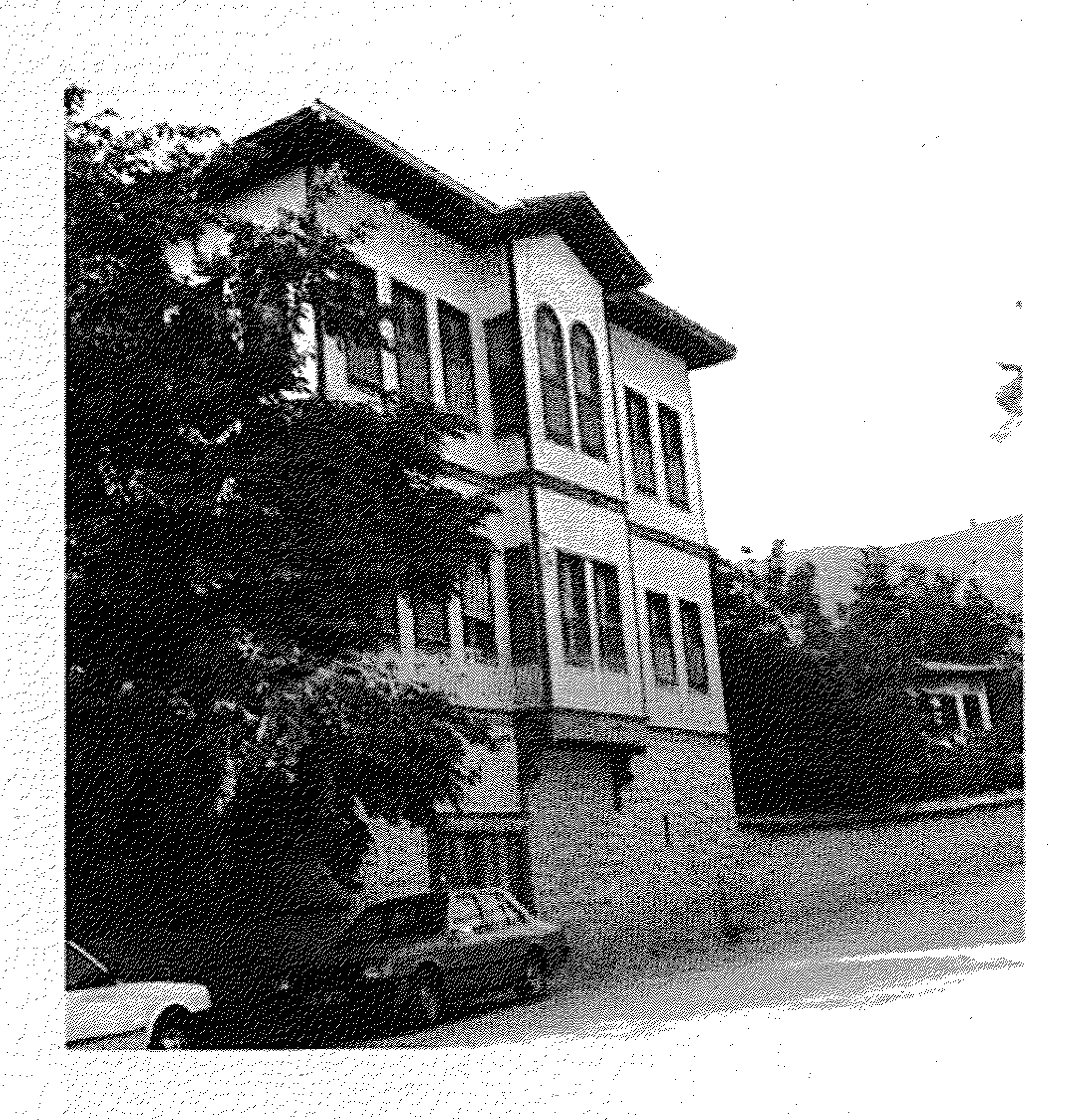
٦- السقف:

حظي السقف بمكانة رفيعة في البيت التركي كعنصر فني وتزييني، علماً أن درجة العناية بالسقف ارتبطت بأهمية الغرفة من جهة، وبالوضع المادي



سقف خشبي ذو شكل هندسي منتظم، ومقّسم بواسطة الأصابع الخشبية - تصوير: المؤلف.

لصاحب المسكن من جهة أخرى، لأن السقف يبقى عنصراً تزيينياً للغرفة. أما عن أهم أنواعه: السقف المنتظم، وتكون أخشابه منتظمة ومقسمة بواسطة الإطارات ذات الأصابع الخشبية، إذ نجد الصفائح الخشبية للسقف متداخلة فيما بينها، ويوجد في مركز السقف شكل فني له بروز، وفي مقطع الجدار مع السقف هناك بروز لإطار السقف.



الباب الخارجي الواسع في أحد البيوت

بمدينة صفران بولو - تصوير: المؤلف.

٧- الأبواب:

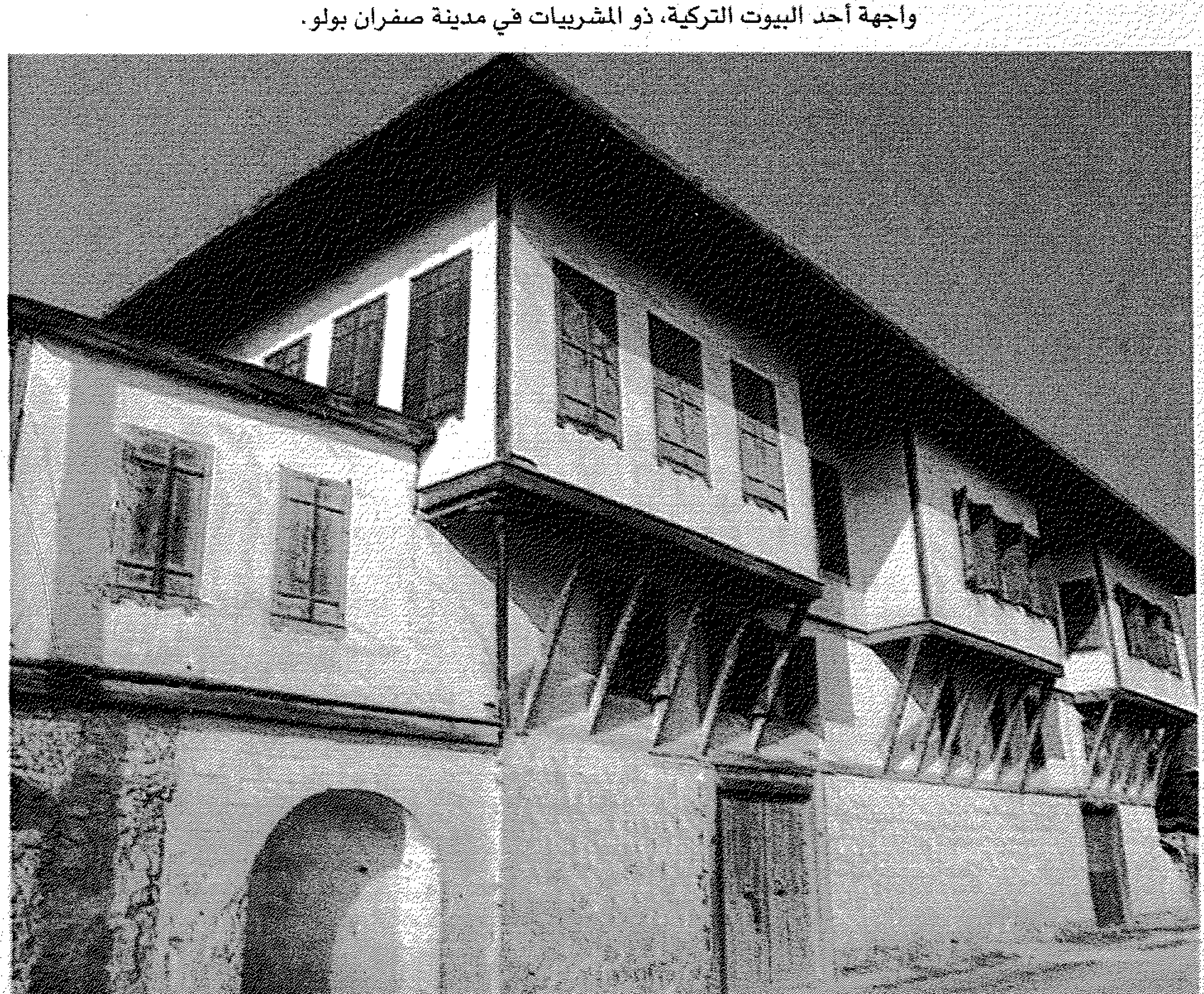
الباب الخارجي للبيت التركي وبشكل عام واسع، ومؤلف من درفتين، والباب هو رمز البيت. أما الأبواب الداخلية للبيت، أي أبواب الغرف فتعتبر العنصر المرتبط بالغرفة، كما تم العناية بوجه الباب الداخلي والمفتوح على الغرفة، أما عن الوجه الخارجي فكان أقل عناية وأشد بساطة.

بما أن كل غرفة من البيت تعتبر وحدة منفصلة ومنفردة عن باقي الغرف، فلا نجد غرفة ببابين، أو غرفتين متصلتين بين بعضهما البعض بشكل مباشر، بل هناك الرواق الفاصل بين جميع الغرف، مما يجعلنا نلاحظ أن الأبواب تفتح من أحد زوايا الغرفة، وعند فتحها لا يمكن رؤية داخل الغرفة من الخارج، لهذا السبب نجد الباب وكأنه يفتح للخارج مباشرة دون رواق أو حاجز.

تأثير الأناضول على البيت التركي:

إن معطيات الأناضول الطبيعية أثرت بشكل قوي ومباشر على شكل البناء، وعلى طريقة تنفيذه، فالبيئة واقعة تحت تأثير أقاليم مختلفة، كما أن شكل البيت التركي وشكل الغرفة مرتبط تماماً ببيئة المجتمع التركي، فمفهوم العائلة الكبيرة وبمرورها من مرحلة الهجرة إلى مرحلة الاستيطان له الدور المهم والأساسي في تشكيل البناء، وفي إعطاء شكله، فقد تجمع وتحت سقف واحد الأب والأم والأولاد، كذلك زوجات الأولاد.

واجهة أحد البيوت التركية، ذو المشربيات في مدينة صفران بولو.



وقد كان لدين الإسلام الحنيف دوراً أساسياً في نظام تشكيل البيت التركي وفي توزيع غرفه، فالمعيشة منطوية نحو الداخل، والحلول ضيقة في العلاقات الخارجية.


يتألف البيت التركي من أدوار قليلة، وقد نفذ على أساس دور واحد فقط، ولكن مع مضي الزمن ازداد عدد الطوابق وتحول لدورين: الدور الأرضي صار (الدور الحقيقي)، أما الدور الأعلى فيعتبر بمثابة ممر بين المسكن والطبيعة.

لهذا السبب فإن الدور الأرضي للبيت التركي يحمل من حيث المخطط في شكله وخواصه كل الاختلافات مع انخفاضه متلائماً مع الشروط الطبيعية المحيطة به، أما الطابق العلوي فقد حافظ على شكله ولم يطرأ عليه أي تغيير، هذه الخواص المهمة نجدها في جميع البيوت التركية، علماً أن الطابق الأرضي ارتبط بالمناخ الطبيعي وتطابق مع عوامل الطبيعة والبيئة، بيد أن الدور العلوي له الأهمية الأكبر من قبل الأتراك. ولهذا السبب نجده حاملاً الخواص الأساسية للبيت التركي القديم.

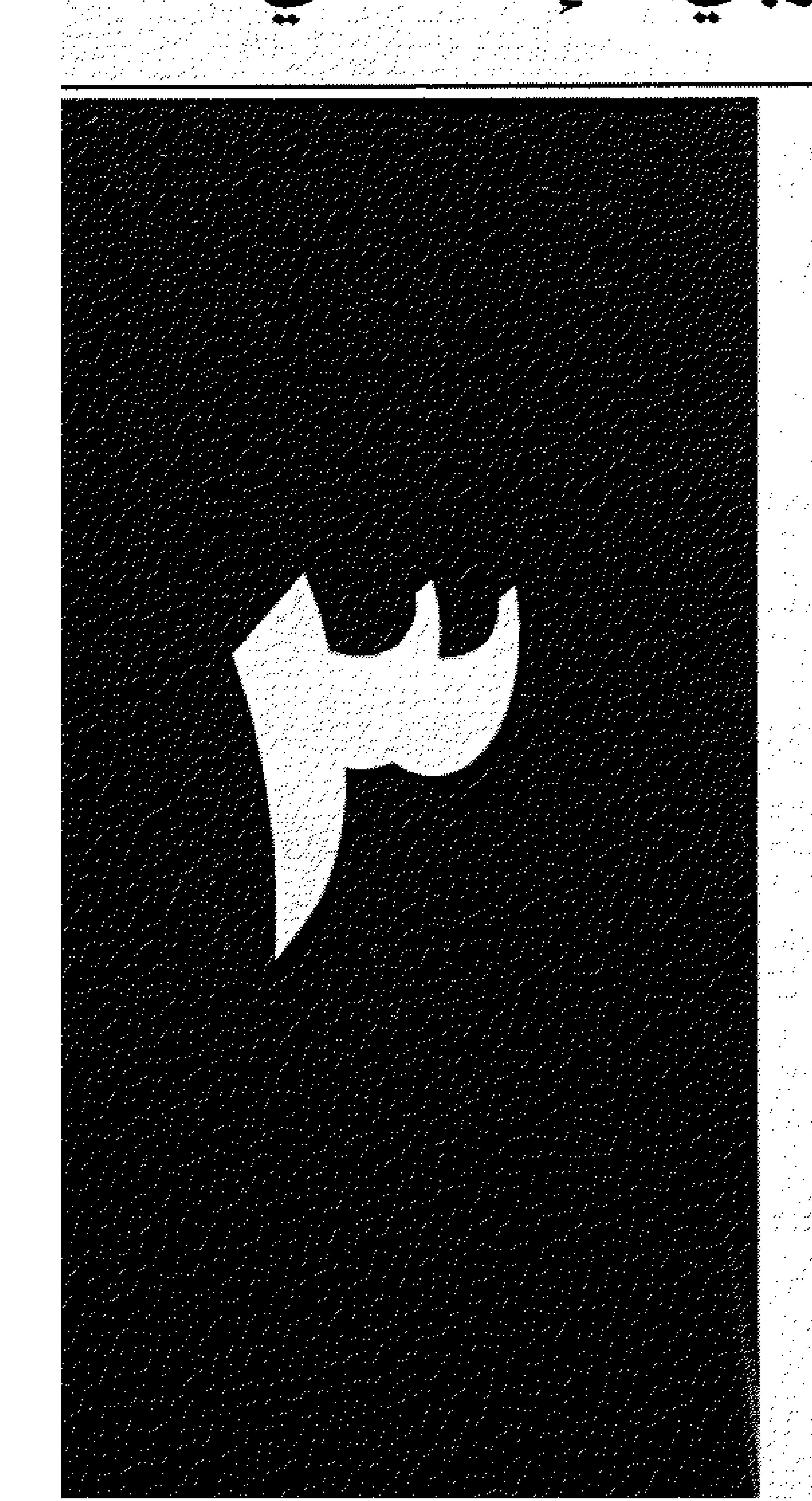
تأثير البيئة الداخلية والخارجية:

إن للأبواب والنوافذ الدور المهم والرئيس في علاقة الغرف مع البيئة الداخلية والخارجية لها، خاصة النوافذ فلها التأثير الكبير على النظام الداخلي للغرفة في تأسيسها وفقاً للعادات الاجتماعية والعقائد الدينية، وهناك في بعض الحلول الانفتاح نحو البيئة الخارجية باتجاه الشوارع أو خارج المبنى، كما أن عناصر البيئة أثرت مع الزمن على نوافذ البيت، فنلاحظ صغر حجم نوافذ الدور الأرضي وكبر حجم نوافذ الدور العلوي مع ازدياد عددها أيضاً، كما ارتبط عدد وحجم النوافذ بالبيئة حسب وظيفتها ودرجة اهتمامها.

ظهرت أيضاً المشربيات التي صممت باتجاه البيئة المحيطة، وصارت عنصر جلوس مهم في الغرفة، فتعتبر المشربية عنصراً أساسياً في البيت التركي، وهي عبارة عن بروز في الجدار يتألف من عدة نوافذ لمشاهدة البيئة الخارجية المحيطة، كالحديقة أو الشارع أو الحي.



على أطلال حضارة أندلسنا العربي الإسلامي



على أطلال حضارة أندلسنا العربي الإسلامي❖

تاريخ الأندلس في أرقام:

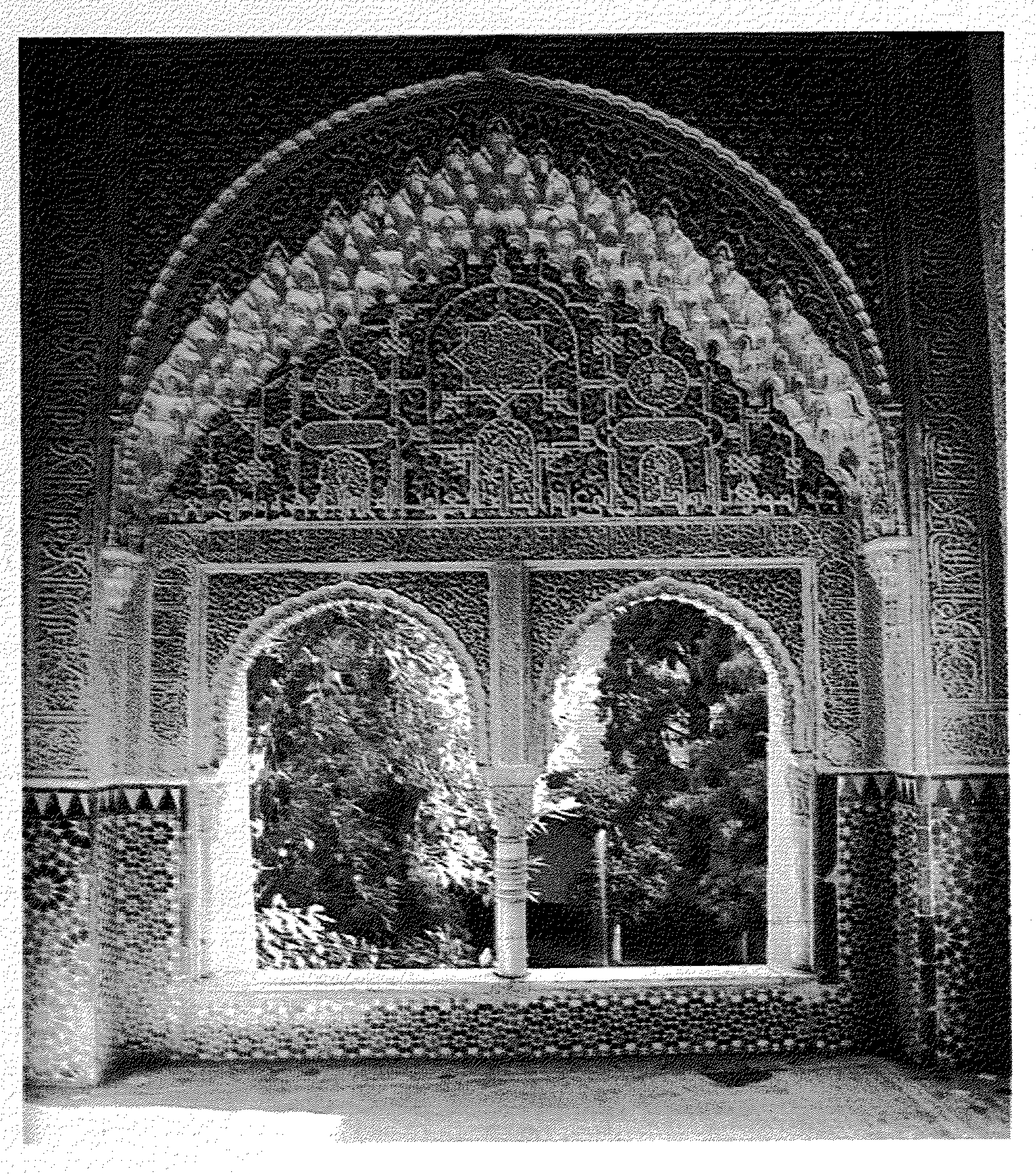
تقع الأندلس في الجزء الجنوبي من أسبانيا، ويقصد بها جنوبي نهر الوادي الكبير الذي يضم سبع مديريات على الشكل الآتي: قرطبة، وإشبيلية، وقادش، وجيان (خاين)، وغرناطة، ومالقة، وولبة. أما عن أول عملية فتح خضعت لها الأندلس فكانت بتاريخ (٧١٠ ـ ٧١٥ م) على يد القائد العظيم والفذ طارق بن زياد الذي أحرق سفنه مخاطباً جنده: (أين المفر، البحر من ورائكم والعدو من أمامكم..). أي لا مناص لكم من لقاء العدو، وكانت معركة عظيمة توجت بانتصار هذا القائد العربي، بالإضافة إلى البطلين موسى بن نصير وابنه عبد العزيز ابن موسى.

بعد هذه المرحلة كانت الأندلس تابعة للخلافة الأموية في دمشق لمدة أربعين عاماً (٧١٥ ـ٧٥٥ م) خسر فيها العرب بعض المناطق الواقعة في الركن الشمالي الغربي، بالإضافة إلى الأراضي الواقعة بين ساحل كنتبرية ونهر دويرة لغاية الطرف الغربي من جبال ألبرته.

ثم قدم إلى الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان والمعروف بإسم الداخل، لينشئ الأمارة الأموية القرطبية عام ٧٥٦م، وتلاه أمراء سبعة، ثم تحولت الأندلس لدار خلافة إسلامية في حكم عبد الرحمن الناصر في عام ٩٢٩م، بذلك أصبح العالم الإسلامي مقسماً لثلاث خلافات: العباسية، والفاطمية، والأموية (الأندلسية).

تبع ذلك فترة سميت بالعصر الذهبي للأندلس وامتدت من عام ٩٢٩ إلى عام ١٠٠٩م، لما بلغته من حضارة واستقرار إلى أن بدأت الفتن الأهلية على عرش الخلافة في مرحلة استلام عبد الرحمن المنصور (المنصور هو محمد إبن أبى عامر)، وبذلك تم إلغاء الخلافة الأموية في الأندلس عام ١٠٣١م.

❖ مجلة الحرس الوطني. العدد ١٧٥ - شوال ١٤١٧ هـ، الموافق فبراير (شباط) ١٩٩٧م



شرفة (ميرادور) في قاعة الأختين بقصر الحمراء.

في عـام ١٢٣٦م سقطت عاصمـة الأندلس العـربي الإسـلامي قـرطبـة، ثم تلتهـا إشبيلية عـام ١٢٤٨م، أمـا عن غـرناطة فقـد صـمـدت لـهجمـات الممالك النصـرانيـة حـتـى عـام ١٤٩٢م، ثـم اسـتـسـلمت هـي أيضـاً لتكون آخـر مـدينة أندلسـية عـربيـة تسـقط في أيدي النصـارى، ليسـدل السـتـار على تاريخ عـريق كان فيه الإبداع والفن، بالإضافة إلى العلوم والمعارف.

قرطبة:

لقرطبة أبواب عدة ضمن سورها المنيع، كباب ليون، والباب الجديد، وباب القنطرة، وباب إشبيلية، وباب الإجوز، وباب عامر.


أما عن أعظم حكامها فكان عبد الرحمن الناصر، وعن أهم الشخصيات التي عاشت في قرطبة: أبو الوليد بن رشد، أعظم فلاسفة العصور الوسطى، وأبوبكر بن طفيل، صاحب قصة حي بن يقظان، وأبو القاسم الزهراوي الذي قدم للإنسانية طرائق استخراج الحصى من الكلى والمثانة، بالإضافة إلى الشاعر الزجال أبوبكر بن قزمان وآخرين من الأدباء والعلماء. وقد ازدهرت قرطبة و أينعت إلى أن بدأت الفتن والخيانات مع نهاية حكم بني أمية الأندلسي لتسقط واهنة في يد فرناندو الثالث عام ١٢٣٦م، وهو ملك قشتالة وأرجون.

جامع قرطبة:

ندخل جامع قرطبة بتأمل وتمعن في هذا العمل المعماري الضخم، وتزداد أحزاننا عندما نجد التشويه الذي خضع له هذا الجامع بإنشاء كنيسة في عهد فرناندو الثالث، وعلى الرغم من هذا التشويه حافظ الجامع على أصالته وروحانيته متميزاً بطرازه المعماري الخاص به بتحميل سقف الجامع البالغ ارتفاعه تسعة أمتار على عمد رفيعة، قطر الواحد منها ٢٥ سم، واضعاً عموداً فوق عمود وقوساً فوق قوس وبشكل معقود.

مر بناء هذا الجامع بثلاث مراحل خلال سبعة أجيال من المعماريين، أول حجر وضع فيه كان عام ٧٨٠م، أما آخر حجر فكان عام ١٠٠٠م. وكان الخليفة الأموي عبد الرحمن الداخل أول من بدأ ببناء جامع قرطبة مستغرقاً فترة سبع سنوات من بنائه، وكانت مقاييسه الأولى (٧٥ X ٦٥) متراً، ومنه (١٢) رواق فقط وتسع بلاطات عمودية على جدار القبلة، ثم بدأت الزيادات بالأروقة، وبني محراب جديد لتصل مساحته إلى (١٣٠ X ٧٥) متراً.

في تلك المرحلة من الزيادة الأولى التي خضع لها المسجد، بدأ المعماري



بيت الصلاة في جامع قرطبة بعد

رفع السقف.

جامع قرطبة مخطط الأقواس الداخلية

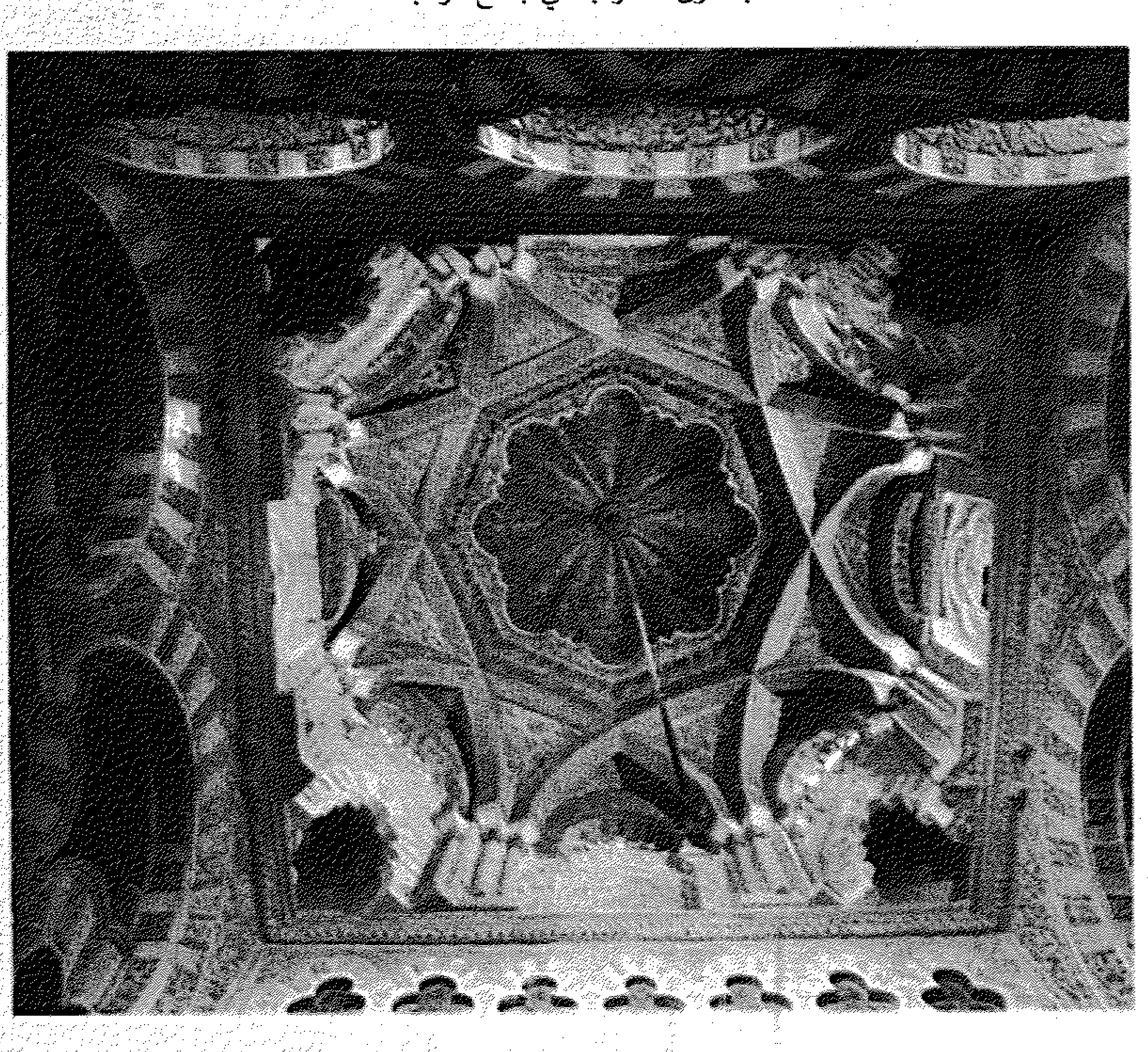


صالة السفراء في إشبيلية.

باستخدام الأعمدة ذات العقود لرفع مستوى السقف كي يكون مناسباً للمساحة الجديدة للجامع. آخر زيادة تمت سنة ٣٧٧هـ ـ ٩٨٧م، في عهد المنصور بن محمد بن أبى عامر لتصبح مساحة الجامع (١٢٥x ١٨٠) متراً، وصار له (١٠٩٣) عموداً رخامياً موزعة على (٣٥) رواقاً. أما عن الفن الزخرفي لهذا الجامع فنجده في الأسقف ذات الزخارف الهندسية على شكل دوائر وفصوص ومسدسات ومثمنات، وفي الآيات القرآنية أيضاً.

كذلك تم استعمال الطوب الأحمر والحجارة في بناء الأقواس، وفي القبة التي تقوم على عروق متشابكة من الحجر التي هي واحدة من ثلاث قباب تزين سطح جامع قرطبة، بالإضافة إلى الإبداع الذي نجده في المحراب أيضاً، الذي جعل سقفه من قطعة حجرية واحدة على صورة محارة مقسمة عدة فصوص مزخرفة.

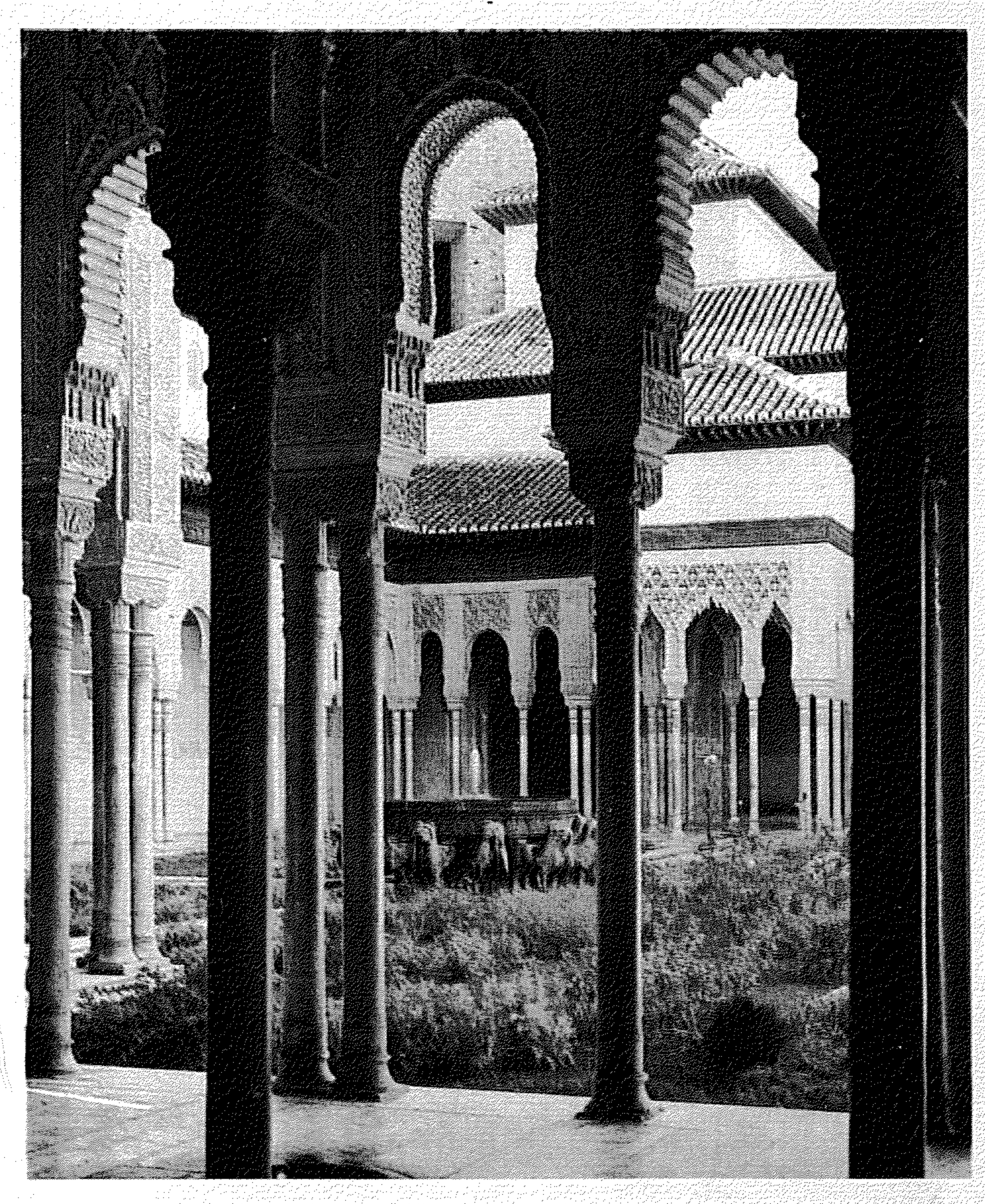
القبة فوق المحراب في جامع قرطبة.



إشبيلية:

ندخل مدينة ثانية خرج منها أجدادنا العرب بعدما بذلوا قصارى جهدهم في الدفاع عنها حتى عام ١٢٤٨م، فلا نجد سوى القليل من الآثار بعدما

باحة الأسود في قصر الحمراء.



هدموا بتعمد كل ما هو قديم وعائد إلى حضارتنا العربية، وكان أول ما هدموه مسجد اشبيلية الجامع ليبنوا فوقه كنيسة ضخمة ذات مساحة كبيرة تصل إلى (٨٨١٦) متراً مربعاً، كنيسة فيها الظلام والشحوب رغم المبالغة بالأعمدة واستخدام الذهب والنحتيات.

وقد بني جامع إشبيلية بقرار من يوسف بن عبد المؤمن، وقام على تصميمه المهندس أحمد بن باسة، ولم يكن هذا المسجد هو الوحيد الذي هدم، بل كان هناك أيضاً مسجد بن عدبس الذي بناه عبد الرحمن الأوسط، وهدم هذا الجامع أيضاً ليبنوا مكانه كنيسة السلفادور، ولم يبق من هذا المسجد سوى قاعدة مئذنته الشامخة بارتفاع ٩٦ متراً، وقد جعلوها برجاً لكنيستهم.

غرناطة:

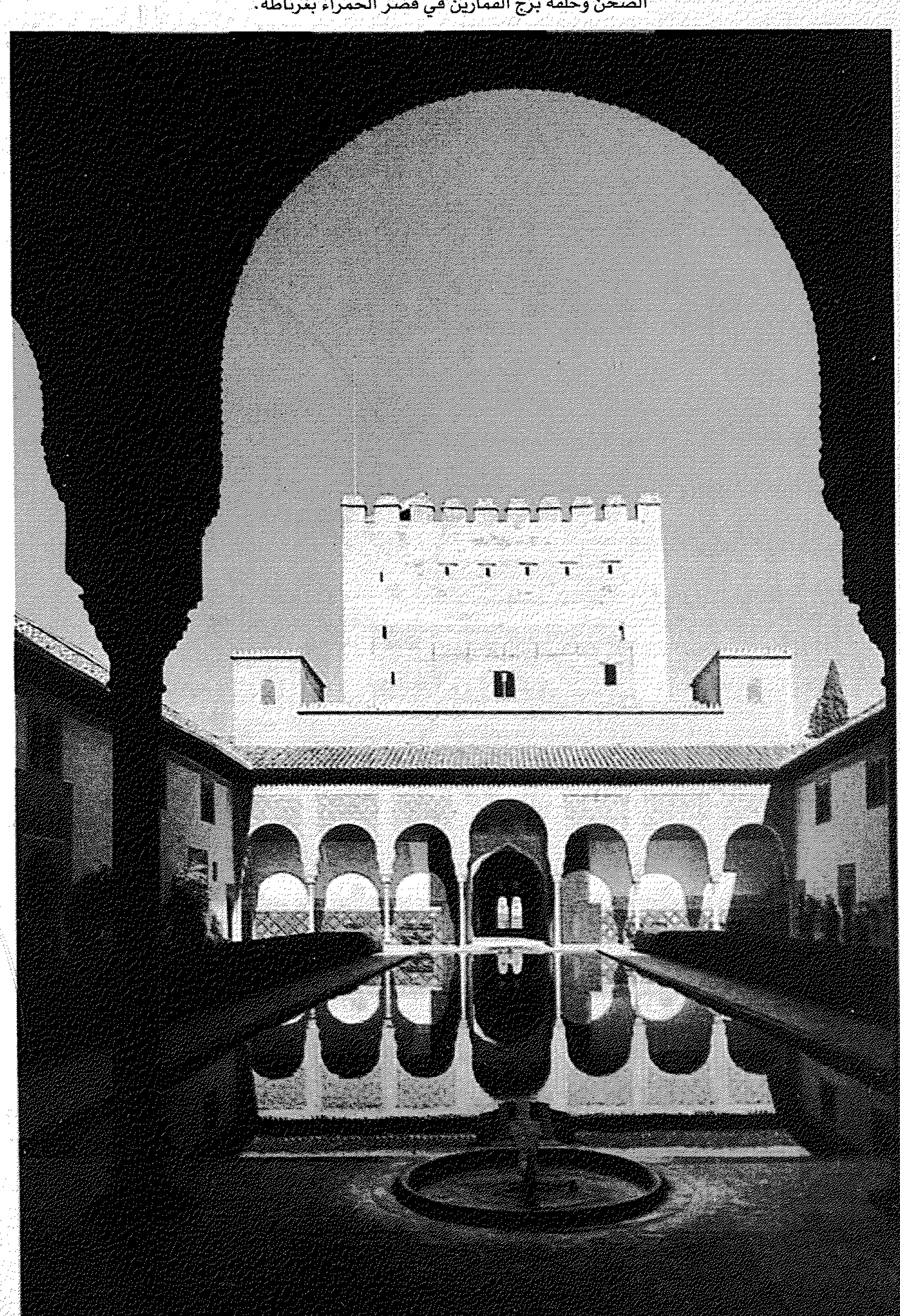
نغادر إشبيلية باتجاه غرناطة قاطعين مسافة تصل إلى ٢٥٧ كيلومتراً لنصل بشغف إلى مدينة الشعر والطرب، مدينة الجمال بطبيعتها وخضرتها الغناء، فقد اهتم العرب بمدينة غرناطة من حيث الطبيعة بحفر القنوات والشبكات المائية لري الأراضي الخصبة. غير أن الأحبار قد هدموا جامع غرناطة ليبنوا فوقه كاتدرائية ضخمة متعمدين هدم بيوت الله ليبنوا فوقها الكنائس، وفي هذه الكنيسة دفن فرناندو وعائلته. أما عن الآثار الأخرى المتبقية فهناك فندق غرناطة، أو الخان الغرناطي الذي تدخله بمدخلين لتجد نفسك في فناء واسع ويحيط بالفناء المبنى المؤلف من ثلاث طبقات.

قصر الحمراء:

أطلقت كلمة حمراء نسبة إلى لون الحجارة المستخدمة في بناء هذا القصر، والحمراء حصن بني على قمة هضبة اعتصم فيها الفارس محمد بن نصر بن الأحمر بعد سقوط قرطبة، بانياً الأسوار والأبراج الحصينة ليشكل مملكة غرناطة ابتداءً من عام ١٢٣٨م.

فندخل قصر الحمراء عبر باب الشريعة الذي بناه أبو الحجاج يوسف، ليؤدي بنا إلى وسط مباني الحمراء، والى الميدان والقسم المدني أيضاً، ثم

الصحن وخلفه برج القمارين في قصر الحمراء بغرناطة.



ننتقل عبر ممر جانبي إلى بوابة أخرى، ومن ثم إلى ميدان فسيح يسمى ميدان الجب.

تنقسم الحمراء إلى ثلاثة أقسام:


١- قسم القصبة: وهو القسم العسكري، حيث يخزن فيه السلاح والعتاد والحبوب.

٢- قسم المباني العامة: وهو قاعات استقبال السلطان وجلوسه، بالإضافة إلى مجالس المشاورات والجامع.

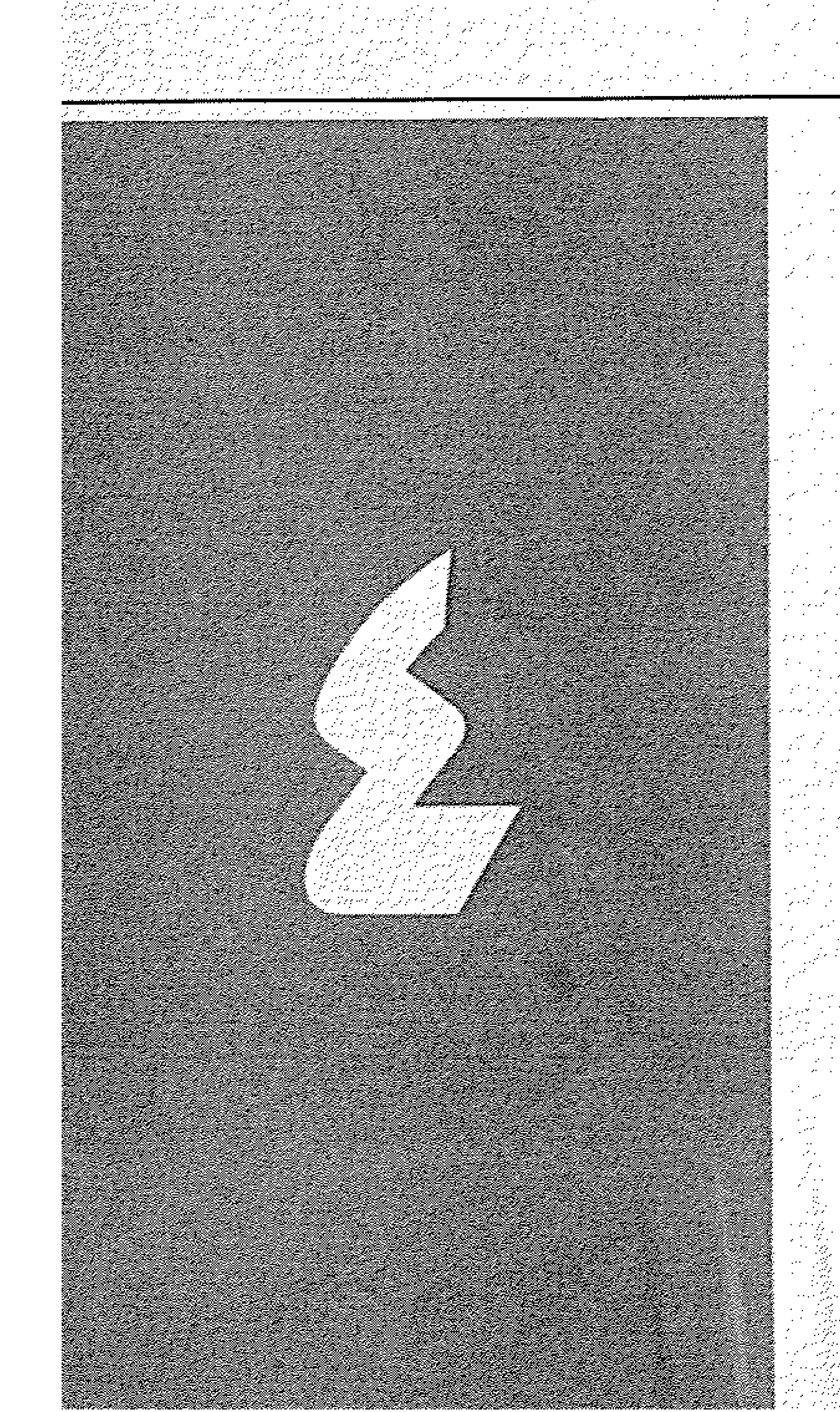
٣- القسم الخاص: وهو القسم السكني للسلطان ولعائلته وخدمه، نصل بعدها إلى المشور، وهو قاعة لاجتماعات السلطان بالشعب أو بوزرائه، ومنها تصل إلى القاعة المذهبة والمؤلفة من بوابة ذات عمودين من الرخام، وهذه القاعة غنية بالنقوش المذهبة، وتصل ببهو مكشوف نرى منه مدخل قاعة قمارش الغني بالهندسة الرائعة، في غرفة قمارش تنبهر العين لدقة الزخارف واحتشادها، وللتنسيق المتميز بين الحجر والرخام والجبس مع الخشب، بالإضافة إلى الخضرة والماء، هناك البهو المستطيل الذي تتوسطه بركة مستطيلة، وفي نهاية أطرافه سبعة عقود ذات أعمدة من المرمر ورقيقة جداً، تمر تحت الأقواس إلى قاعة قمارش الغنية أيضاً بالنقوش والزخارف لنمضي إلى حمام الحمراء، ثم إلى بهو السباع الصغير والرائع بأعمدته وأقواسه، ومن ثم نمر لزيارة السجن.

تميزت الحديقة الأندلسية بارتفاع جدرانها الخارجية وانعزالها عن العالم الخارجي لتحقق هدف العازلية التامة كي تسنح الفرصة للمرء بالتأمل والتفكير مصغياً إلى حفيف الأشجار أو لصوت خرير المياه وزقزقة العصافير، مستنشقاً عبق الأزهار والريحان.

وبعدها تصل إلى القصر الكبير المطل على نافورة بحوض مستدير، بالإضافة إلى البركة مستطيلة الشكل والماء ينبعث من الجانبين ليصب في هذه البركة، وفي نهاية الممر المائي تصل إلى خميلة ثانية مطلة على الحمراء، وبهذا تكون قد وصلت إلى آخر المطاف في رحلتك الممتعة.



المساجد في العصر العثماني



المساجد في العصر العثماني ❖

تميزت العمارة الإسلامية العثمانية بطابعها الخاص وفنها الجديد المختلف عن باقي العمارات الإسلامية الأخرى، التي سبقتها، خاصة في أشكال قببها الكبيرة والمرتفعة، وبمآذنها المدببة والشاهقة.

كما تطور هذا الفن متأثراً بالحضارة البيزنطية، وبما خلفته من كنائس ضخمة، وكان هنالك عدد ضخم من المعماريين الذين أبدعوا وتفوقوا في هذا المجال، وعلى رأسهم المعماري سنان الذي شيد عدة مساجد في تركيا خاصة، وفي العالم الإسلامي عامة، وبلغت أعماله ٤٤٠ عملاً في أرجاء الدولة العثمانية، ومن أهم أعماله:

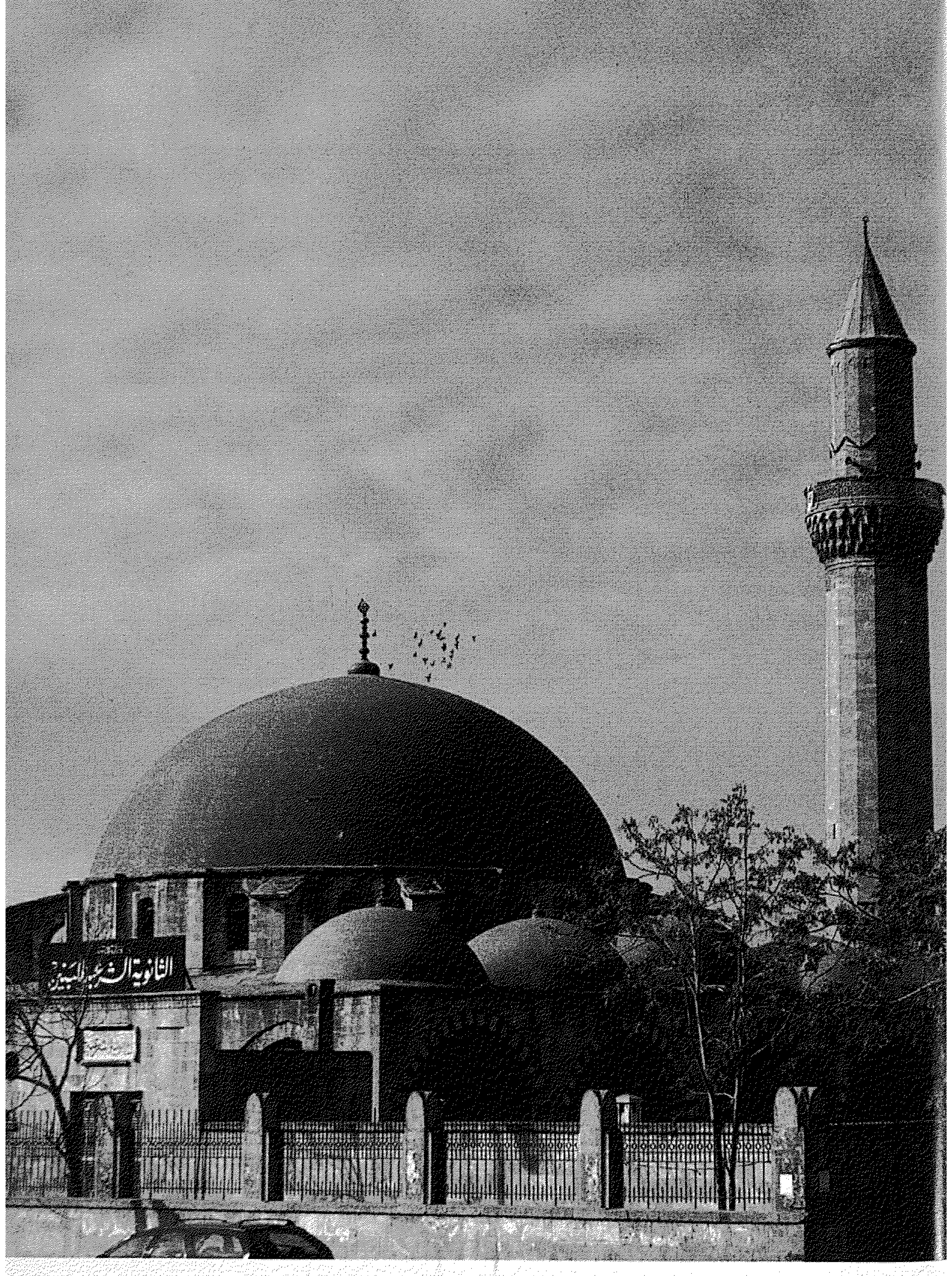
مدرسة خسرو باشا (المدرسة الخسروية):

وتعدّ أول المدارس العثمانية التي شيدت في سورية بشكل عام وأقدمها، وفي مدينة حلب بشكل خاص، فقد قام المعماري سنان ببناء المدرسة الخسروية عام ١٥٣٦م، بأمر من الوالي خسرو باشا بن سنان، في عهد السلطان سليمان الأول القانوني، وعلى الرغم من تواضع المدرسة من حيث القياس، مقارنة بمشروعات سنان التي نفذها فيما بعد في مدينة إستانبول وغيرها. إلا أنها من أهم المدارس الإسلامية، وتساير، وبنجاح، الموقع الذي أقيمت عليه، وتختلف عما سبقها من المدارس والمساجد، لتشكل بداية الحقبة العثمانية في تاريخ مدينة حلب، فقد ظهر أول مرة في عمارة المساجد التخطيط المعتمد على القبة الواحدة.

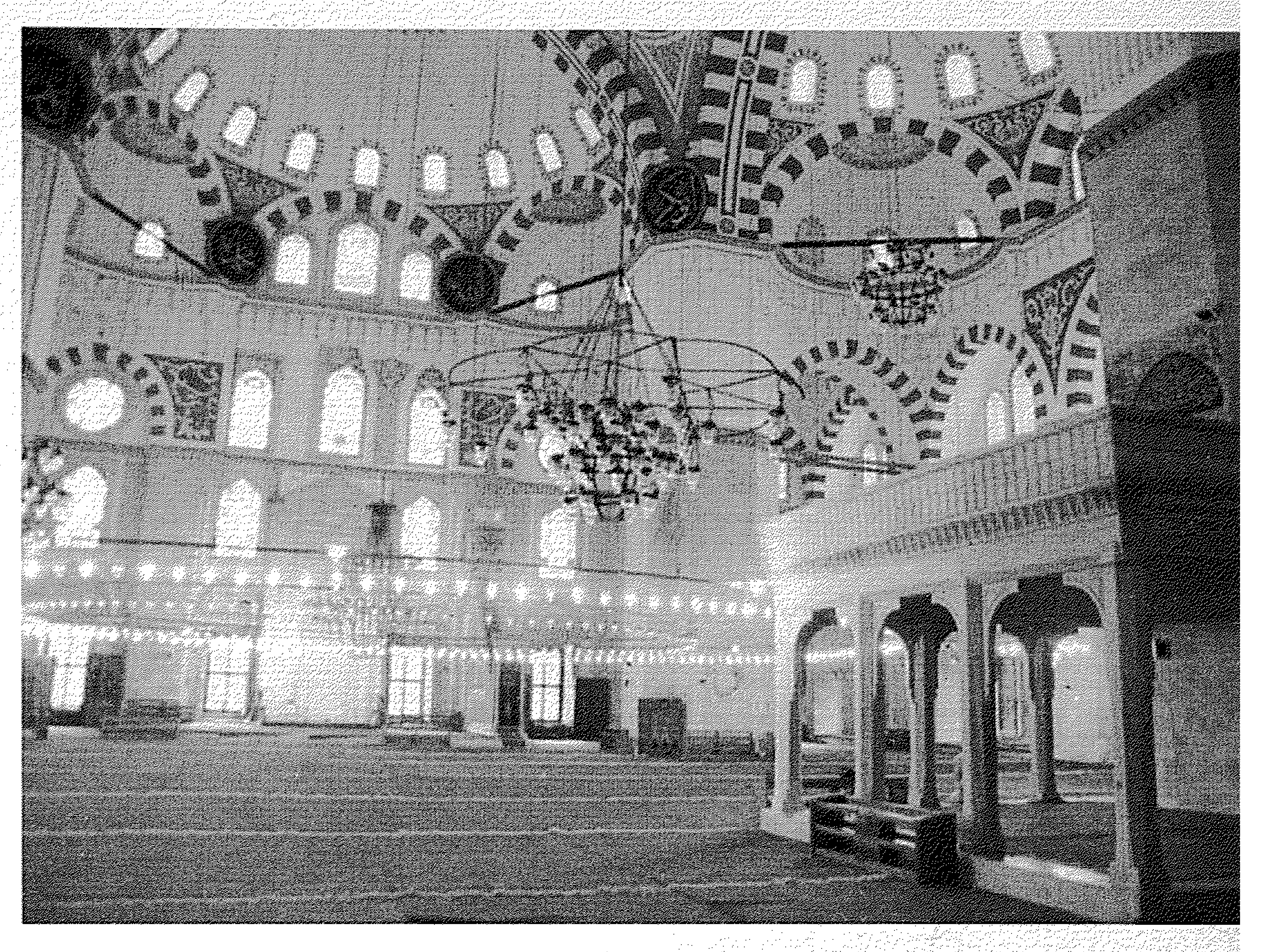
جامع شهزاده وكليته:

وقد بناه المعماري سنان في استانبول بأمر من السلطان سليمان القانوني،

❖ نشرة وزعت في معرض للصور الفوتوغرافية، بمبنى السفارة التركية في الرياض، المملكة العربية السعودية، ٦ رجب ١٤١٨ هـ الموافق (تشرين الثاني) ١٩٩٧م



مدرسة خسرو باشا بمدينة حلب - تصوير: المؤلف.



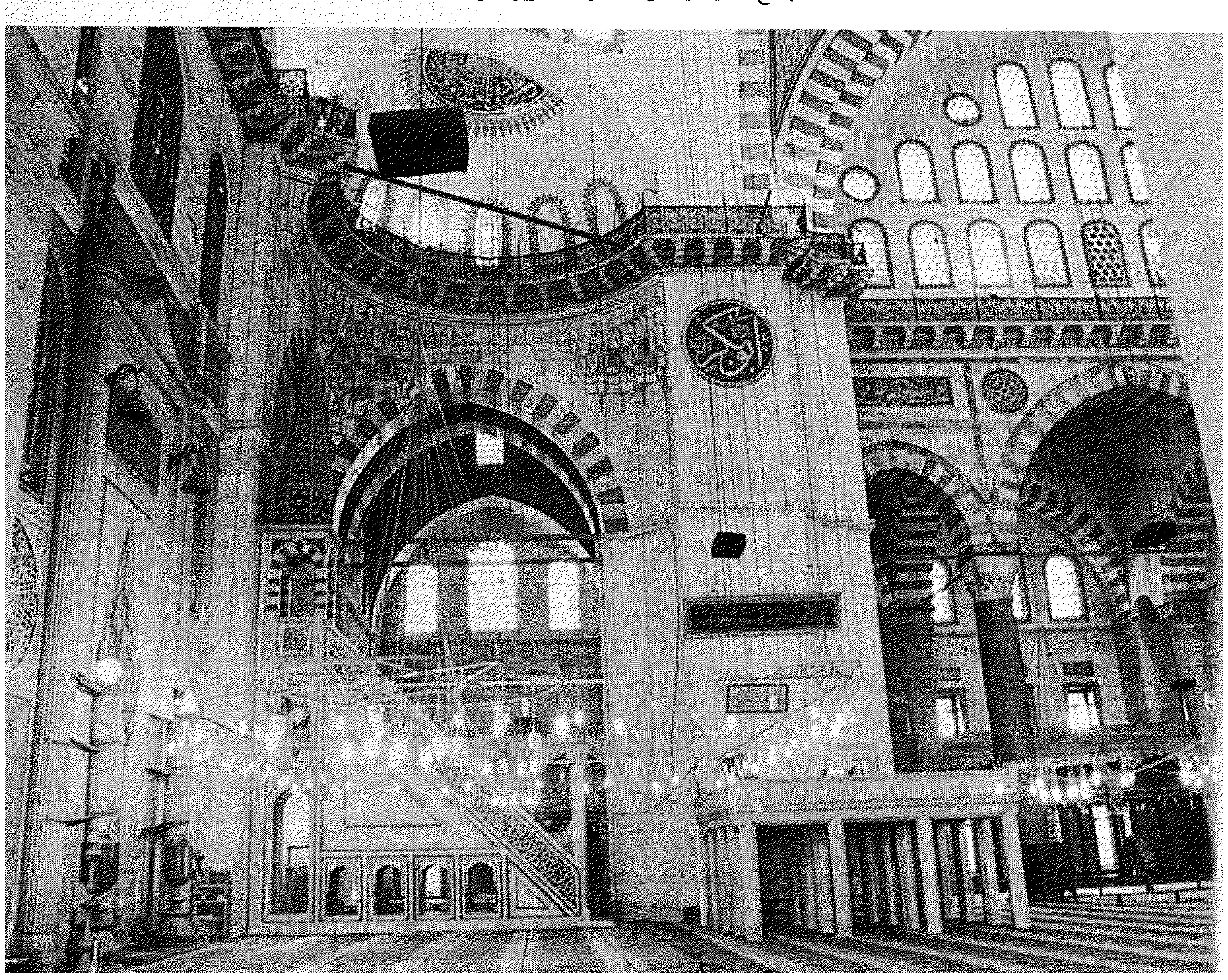
جامع شهزاده بمدينة إستانبول - تصوير: المؤلف.

عام (١٥٤٤ ـ ١٥٤٨ م). تخليداً لذكرى وفاة الابن الأكبر للسلطان، وكان عمر سنان آنذاك ٥٤ عاماً، ونقلاً عن كتاب فنون الترك وعمائرهم الصادر عن مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإستانبول، في وصف سنان لجامع شهزاده بأنه أحد أعمال فترة تلمذته، فنرى فيه المحاولة الأولى لسنان في معالجة مشكلة نصف القبة، التي وجدها في قباب أياصوفيا وبايزيد، عندما ابتكر النموذج المثالي للمبنى ذي القبة المركزية وأنصاف القباب الأربعة الدائرة حولها. بعد أن اعتمد على أسلوب جديد بالكامل جعله يقيم منشآت معمارية ضخمة ورائعة بأسلوب خاص به هو.

جامع السليمانية بإستانبول:

قام المعماري سنان عام ١٥٥٠م، بإنشاء جامع السليمانية ضمن مجمّع السليمانية الكبير، في مدينة إستانبول، بطلب من سليمان القانوني، وحاول سنان جاهداً في أن يقدم تصميماً جديداً وجريئاً من حيث النسب والأسلوب، وبمفهوم واع لنظريات البناء، خاصة بعد أن تجاوز الستين من عمره، وبعد قيامه بتشييد عدد من الجوامع، ودراسته المتأنية والدقيقة للأسلوب الذي شيدت عليه كنيسة أياصوفيا وجامع بيازيد، ليحقق نجاحاً جديداً في عمارة المساجد، وليكسب رضاء السلطان سليمان القانوني، فقام سنان باختيار موقع مرتفع وعلى ربوة مشرفة على القرن الذهبي، ليتحول مجمع السليمانية إلى أكبر وأول جامعة منذ زمن محمد الفاتح، وقد استغرق تشييد المجمّع سبع سنوات.

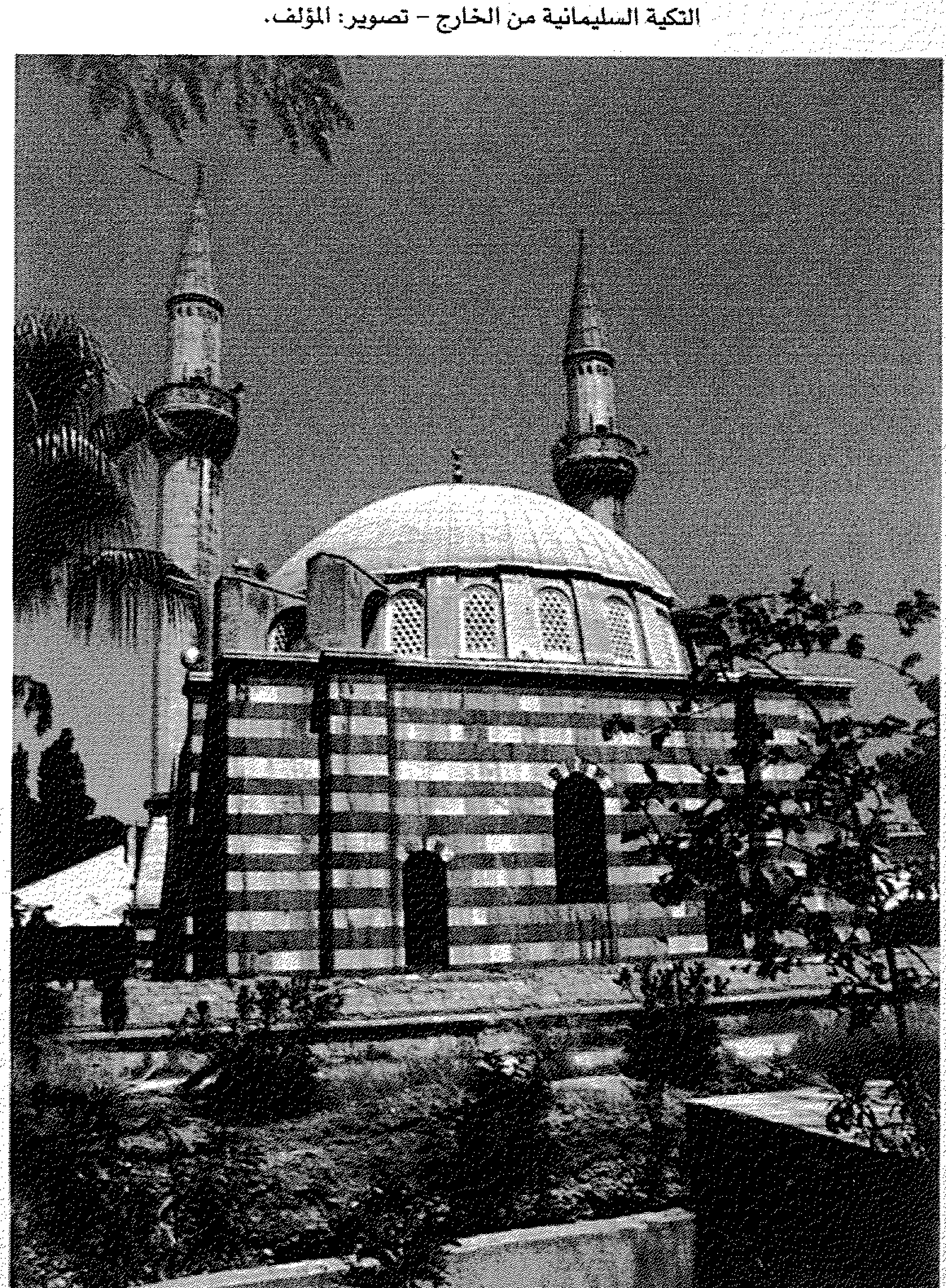
جامع السليمانية من الداخل - تصوير: المؤلف.



جامع التكية السليمانية:

أنشئت التكية السليمانية في مدينة دمشق عام ١٥٥٧م، على أنقاض القصر الأبلق المملوكي بأمر من السلطان سليمان القانوني، قام بتشييدها المعماري سنان، والتكية: هي شكل من أشكال المدارس التي تضم مسجداً وقاعات للتدريس، وغرفاً لإقامة العلماء والطلبة القادمين من خارج المدينة، ولسكن المحتاجين والفقراء. هذه الغرف تفتح على الباحة المكشوفة، وأمامها أروقة مسقوفة بسلسلة من القباب، وذلك على جانبي الباحة من الجهتين الشرقية والغربية، ويتوسط الباحة بركة مستطيلة، مع توزع الحدائق في أرجاء التكية.

التكية السليمانية من الخارج – تصوير: المؤلف.



جامع السليمية بأدرنة:

قام المعماري سنان بتشييد هذا الجامع بمدينة أدرنة عام ١٥٦٨ م، وانتهى من بنائه عام ١٥٧٤ م بأمر من السلطان سليم الثاني. ويعد جامع السليمية نموذجاً لعمارة سنان المتميزة والثرية، وخصوصاً أنه بناه عن عمر يناهز الثمانين، ولهذا نلاحظ نضوج فنه وابتكاراته لتتحول إلى رائعة معمارية استغرقت خمس سنوات من الإنشاء، فعندما أمره السلطان سليم الثاني بإنشاء الجامع، قام سنان باختيار المكان المرتفع المناسب لهذا الصرح المعماري على أعلى ربوة في مدينة أدرنة، بحيث يمكننا رؤيته من جميع أنحاء المدينة، بقبته الضخمة ذات القطر (٣١,٥ متراً) التي فاقت قبة أياصوفيا، محققاً بذلك حلماً رافقه وأقض مضجعه سنوات طويلة.

مراحل تطور العمارة الإسلامية العثمانية:

مرت عمارة المساجد العثمانية في تركيا بثلاثة مراحل رئيسة، موزعة على النحو الآتي:

١- مرحلة القرنين الرابع عشر والخامس عشر:

وهي مرحلة تطور للعمارة العثمانية، وأهم سمة فيها البساطة في الشكل، والابتعاد عن المبالغة في الزخارف، والنحت، إذ كان الشكل المتّبع للمسجد بناء مربع، وبجدران حجرية ذات مداميك آجرية، ولهذا البناء قبة واحدة مستديرة ترتكز على جدرانه لتقوم بوظيفة القاعدة، وهذا ما يسمى بالمسجد ذي الوحدة الواحدة، علماً أن هذا الشكل مستمر إلى يومنا هذا في تركيا.

وهناك أيضاً شكل آخر يسمى بالجامع ذي الوحدات المتعددة، وتميزه من الشكل الأول إضافة الأيونات الجانبية لأداء الصلاة فيها، إلا أن المكان الأساسي للصلاة هو القاسم المشترك بين النوعين، وهناك الوحدات المتعددة والمتكررة على شكل قباب ودعامات، كما هو الحال في جامع بايزيد الأول الذي شيد عام ١٣٩٦ م، والمتميز بشكله المستطيل، وباثنتي عشرة دعامة تقسم داخله إلى عشرين وحدة متساوية تعلو كل وحدة منها قبة كاملة.



جامع بورصة الكبير، نموذج للوحدات المتكررة - تصوير: المؤلف.

٢- مرحلة القرنين السادس عشر والسابع عشر:

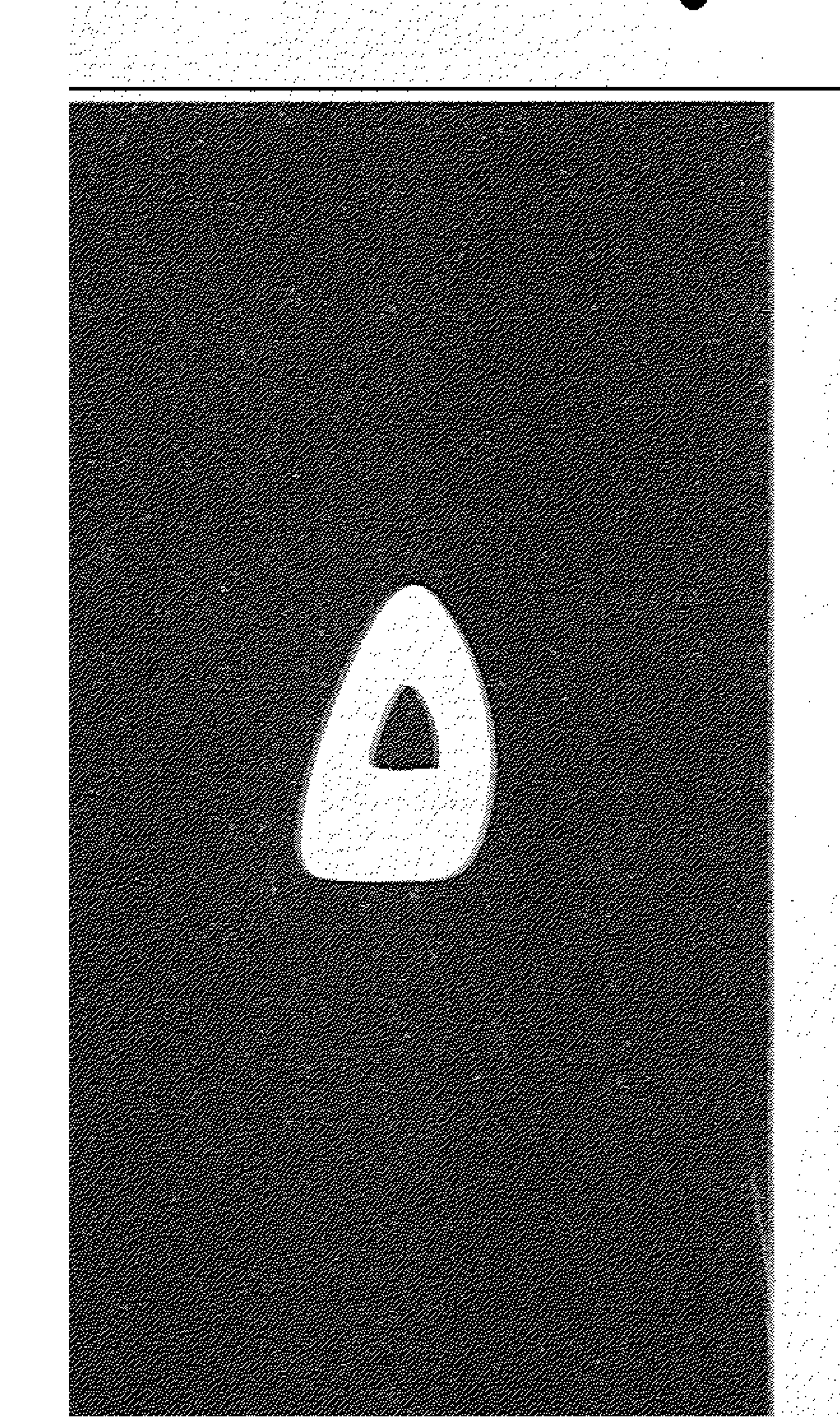
سميت هذه المرحلة بالمرحلة الذهبية؛ لأن العمارة العثمانية تخطت فيها الأقسام المستقلة ذات الوحدات المربعة والمكررة، وبدأت تظهر المساجد الضخمة الغنية بالزخارف والنقوش، سواء أكانت داخلية أم خارجية، لأن هذه المرحلة بالذات كانت فيها الدولة العثمانية في قمة ازدهارها وقوتها مما انعكس على فنها المعماري أيضاً.

٣- مرحلة القرن الثامن عشر حتى الحرب العالمية الأولى:

كانت هذه المرحلة امتداداً للمرحلة السابقة، إلا أن التدهور الاقتصادي والتمزق والحروب التي خاضتها الدولة العثمانية أدت لتقلصها، وبعد مرحلة من البذخ الزائد ودخول الطراز المعماري (الباروك) الغربي المنشأ على المساجد العثمانية، بدأت تعكس هذه المرحلة المتأزمة على الفن المعماري العثماني، وكانت تلك نهاية الفن العريق الذي دام ستة قرون، ولم يقتصر هذا الفن على تركيا فحسب، بل انتشر في أنحاء العالم الإسلامي بعد ما فتح العثمانيون عدة مدن تاركين مساجدهم فيها إلى يومنا هذا حافلة بالمآذن الكثيرة التي يعلوها الأذان والتكبير خمس مرات في اليوم.



الغرف الزجاجية. . تاريخها وأشكالها



الغرف الزجاجية. . تاريخها وأشكالها ❖

تاريخ البيوت الزجاجية:

يعود تاريخ البيوت الزجاجية للإمبراطورية الرومانية، إذ كانت الغاية من هذه الغرف حماية النباتات الخاصة والمتميزة في فصل الشتاء لتأمين درجة حرارة معينة، بالإضافة للاستفادة من أشعة الشمس الطبيعية الواصلة للنباتات والأشجار عبر الألواح أو الصفائح الزجاجية الشفافة المثبتة على الأسقف والجدران للغرف الزجاجية. وقد مرت البيوت الزجاجية بمرحلة تطور بدأت من أواسط القرن السابع عشر، وعلى شكل بنائي وبدائي بسيط بنوافذ كبيرة وواسعة للاستفادة من أعلى درجة للإضاءة، وخاصة لأشجار البرتقال والليمون.

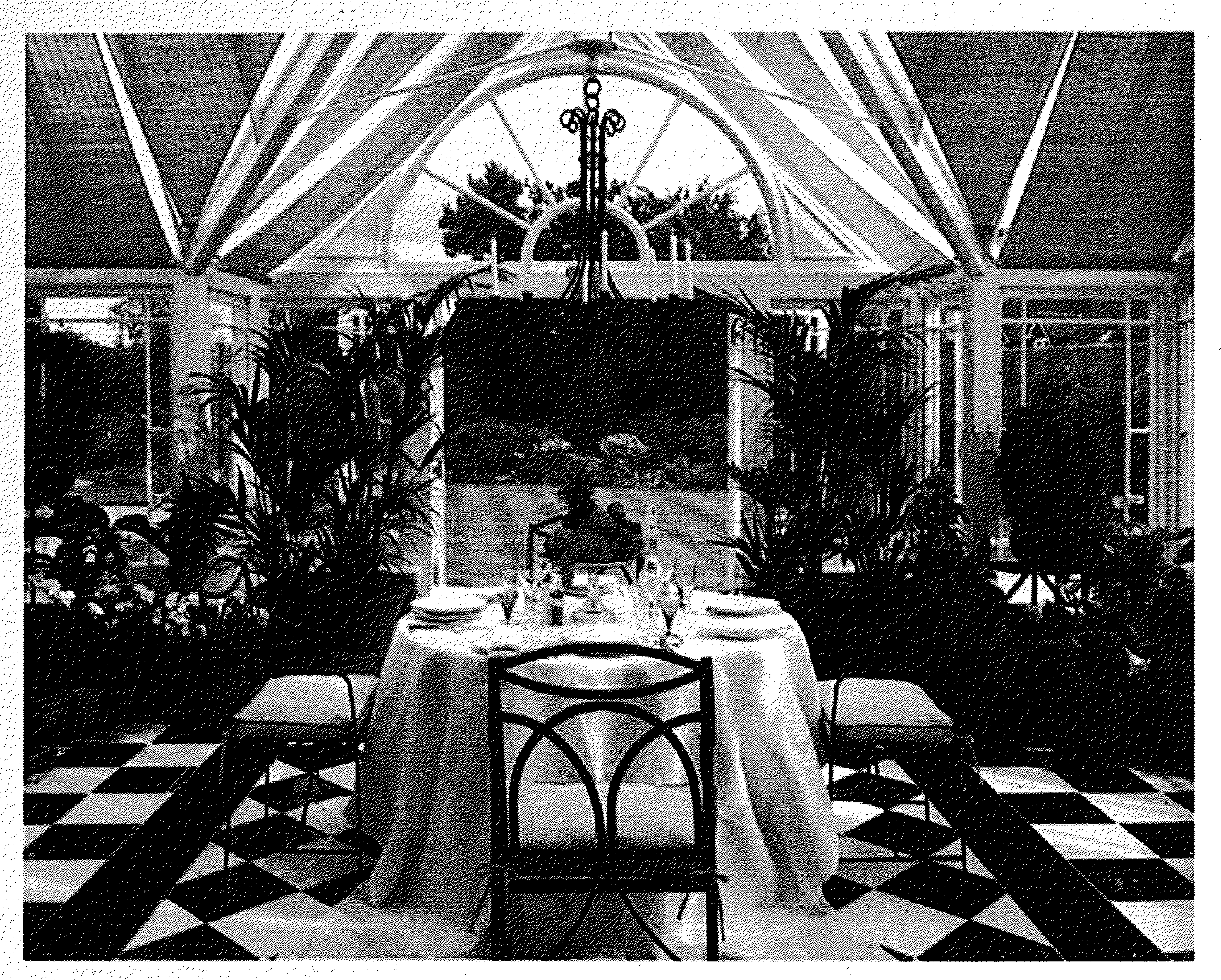
وبعد مراحل عدة وصل البيت الزجاجي في السنوات الأربعين الأولى من القرن التاسع عشر الميلادي إلى أرقى أشكاله النهائية، ولم تعد الغرف الزجاجية للزراعة فحسب، بل صارت غرف معيشية للجلوس فيها والتمتع بجمال الطبيعة المحيطة بالغرفة الزجاجية، أوعلى شكل حديقة شتوية، لأن درجة الحرارة فيها معتدلة ومناسبة، وأحياناً أخرى تتوسط هذه الغرف برك للسباحة، أو شلالات اصطناعية تتدفق منها المياه لتكون عنصراً جمالياً مكملاً للخضرة والطبيعة.

أشكال الغرف الزجاجية:

بما أن الغرض من الغرف الزجاجية مشاهدة البيئة الخارجية (الطبيعة) من عدة زوايا، فغالباً ما يكون شكل هذه الغرف دائرياً أو نصف دائري، أو متعدد الأضلاع، وتتصل هذه الغرفة بجدار البيت الخارجي لتكون على شكل بروز زجاجي دائري الشكل، وهذه الغرفة صلة الوصل بين البيت الأساسي والحديقة المحيطة به.

❖ المجلة العربية العدد ٢٤٧ - وشعبان ١٤١٨ هـ، الموافق ديسمبر (كانون الأول) ١٩٩٧م

تتعلق مساحة الغرفة بمساحة البيت بشكل عام من جهة، وبمساحة الحديقة المحيطة بالبيت من جهة أخرى، ويتم تحديد مكان الغرفة أيضاً وفق العناصر الطبيعية المحيطة بالبيت، علماً أن الغرف الزجاجية المعيشية تنفذ في كل البيوت المستقلة ذات الحدائق الواسعة أو المطلة على المناظر الطبيعية كالغابات أو البحر.



إطلالة الغرف الزجاجية نحو الحدائق المحيطة بالبيت.

الطريقة الإنشائية للغرف الزجاجية:

بالطبع لا يستخدم البلوك أو الحجارة في بناء الغرف الزجاجية لأنها ستقوم بحجب الإضاءة والرؤية، وتتحول إلى غرفة ذات نوافذ واسعة، لكن



التفاعل الحقيقي بين الغرف الزجاجية والبيئة المحيطة من غابات وحدائق.

الغرض الأساسي زيادة عدد السطوح الزجاجية التي تسمح بنفوذ أشعة الشمس عبرها لداخل الغرفة ولتحقيق عملية التفاعل الحقيقي بين المكان (الغرفة) والبيئة المحيطة بها (الطبيعة).

لهذا اعتمد على الأصابع الحديدية لربط الصفائح الزجاجية فيما بينها، أو باستخدام الألمونيوم كونه مادة أشبه بالحديد، ولا يمكنها أن تصدأ، وفي بعض الحالات أيضاً تستخدم الأصابع الخشبية وعلى شكل نوافذ وأبواب منفتحة نحو الحديقة.

إلا أن الحديد هو المادة الأساسية لمتانته وصلابته، وتربط جميع القطع الحديدية في الجدران والأسقف بواسطة اللحام، ثم تثبت عليها الصفائح

الزجاجية السميكة، وتطلى الأصابع الحديدية بدهان واقي من الصدأ ثم يستعمل الدهان الأساسي.

تتشكل أسقف الغرف الزجاجية من عدة قطع صغيرة الحجم، على عكس الجدران، لأن الغاية من الأسقف الإنارة فقط، أما الغاية من الجدران الزجاجية الإنارة والرؤية. يثبت أيضاً سلم حديدي على جدار الغرفة الجانبي للوصول إلى سقف الغرفة الزجاجية من الخارج كي يساعد في عملية الصعود للقيام بنظافة الألواح الزجاجية بين الحين والآخر، أو لصيانة الغرفة الزجاجية بشكل عام.

الدفيئة الزجاجية:


هي شكل مصغر ومبسط للغرفة الزجاجية، عبارة عن قفص زجاجي مصنوع من إطار خشبي أو معدني، ويثبت هذا القفص على شرفات البيوت، أو على نوافذها بواسطة دعامات، أو تثبت مباشرة على إطار النوافذ إذا كان حجم الدفيئة صغير، مع تأمين التهوية واختيار الاتجاه المناسب، فأنسب اتجاه هو الغرب أو الجنوب، أو الشرق للحصول على أكبر كمية من الضوء.

لم تظهر هذه الحلول إلا بسبب التزاحم العمراني المنتشر في وقتنا الحالي، وبازدياد عدد الأبنية الشاهقة ذات الشقق الضيقة والمحرومة من عنصر الخضرة والطبيعة.

قطعت الأشجار، وتحولت الحدائق لمباني متلاصقة إسمنتية، فكانت الدفيئة النافذية رمزاً للحديقة، وإن كانت المساحة ضيقة ومتواضعة، وصارت عادة وضع النباتات على النوافذ كي تصلها أشعة الشمس وتضفي جمالاً على البيت من الداخل والخارج، فهناك أنواع خاصة من نباتات الزينة تحافظ على خضرة أوراقها طيلة السنة ولا تحتاج لعناية خاصة في رعايتها ونموها.

البيوت الزجاجية الزراعية:

هذا النوع من الغرف الزجاجية هو نقطة الانطلاقة للبيوت الزجاجية، فأول البيوت الزجاجية صممت بهدف زراعي لحماية النباتات من برودة



الغرف الزجاجية الزراعية، تقوم بحماية نباتات الزينة.


الطقس مع الاستفادة من أشعة الشمس الطبيعية عبر صفائحها الزجاجية المثبتة على الجدران والأسقف.

انتشرت البيوت الزراعية وبكثرة، خاصة في القرن الحالي، وذلك للحصول على محاصيل زراعية في مواسم مختلفة عن طريق دراسة كل نوع من النباتات على حدة لتأمين درجة الحرارة المناسبة لها رغم برودة الطقس في الخارج خلال فصل الشتاء.

تتراوح درجة الحرارة بين ٢١- ٢٣ درجة مئوية نهاراً، وأقل بـ٥ - ٧ درجات ليلاً. أما الرطوبة فتتراوح ما بين ٣٠ و٦٠٪.

العناية بواجهات الغرف الزجاجية، وبأشكال نوافذها.





عمارة البيمارستان .. والحضارة الإسلامية في الطب

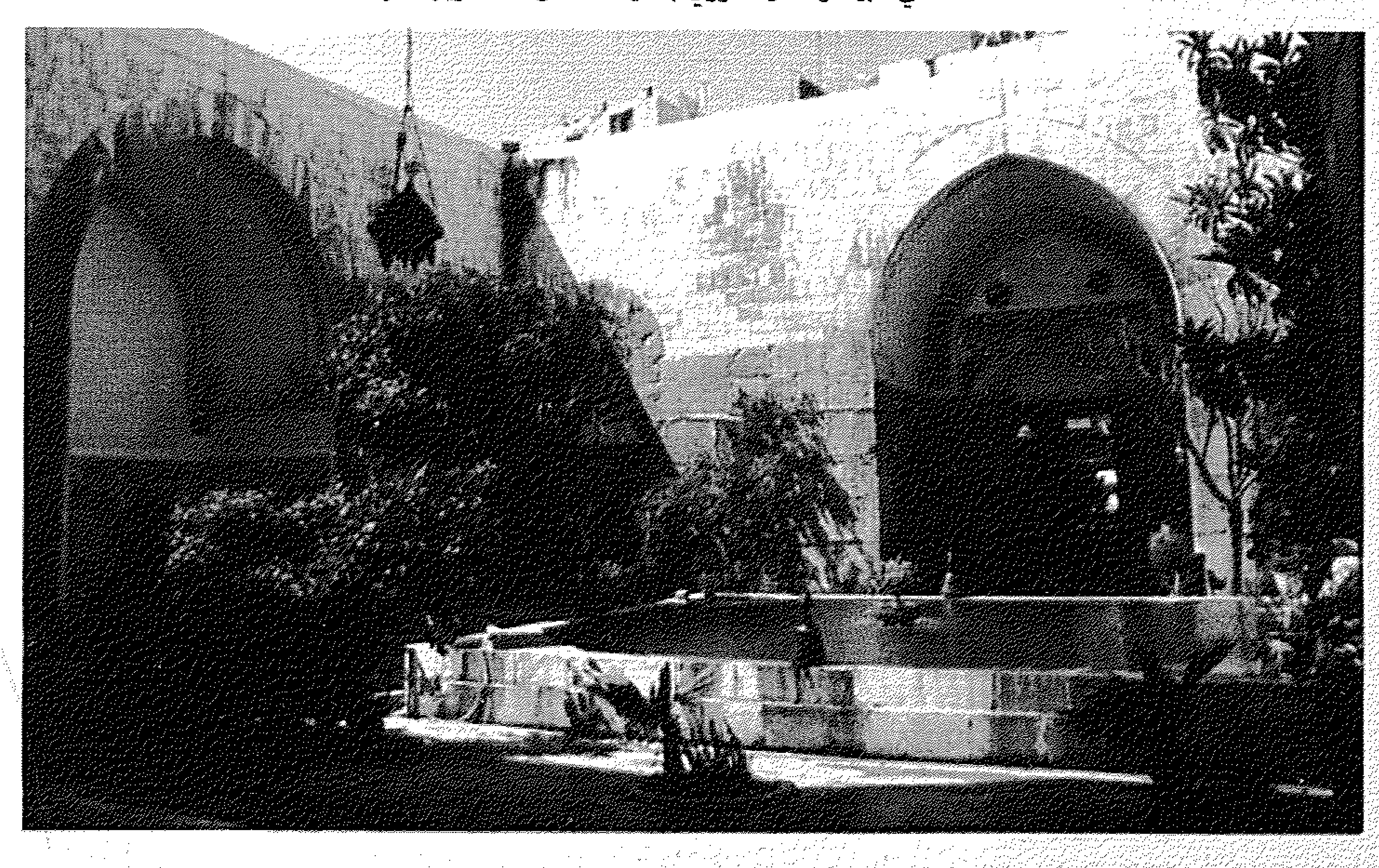


عمارة البيمارستان .. والحضارة الإسلامية في الطب *

من بين العلوم التي أبدع فيها أجدادنا العرب، علم الطب والجراحة، وبرز منهم أمثال ابن سينا والرازي وابن النفيس وأبي القاسم الزهراوي، وغيرهم من الأطباء والعلماء.

كما رافق هذا الإبداع العلمي إبداع معماري من خلال تصميم البيمارستانات وإنشائها التي أخذت شكلاً معمارياً مناسباً للاحتياجات الطبية والعلاجية، وحملت البيمارستانات السمات المعمارية العربية من حيث الشكل والتصميم لتأخذ وضعها النهائي وفق متطلبات العصر وتطوراته ليتحول اسمها لاحقاً من بيمارستان إلى مستشفى.

الفناء الداخلي للبيمارستان النوري بمدينة دمشق - تصوير: المؤلف.



* صحيفة الحياة العدد ١٢٨٤٩ - ١٢ محرم ١٤١٩ هـ، الموافق ٩ مايو (أيار) ١٩٩٨م

أعلام الطب ومؤلفاتهم:

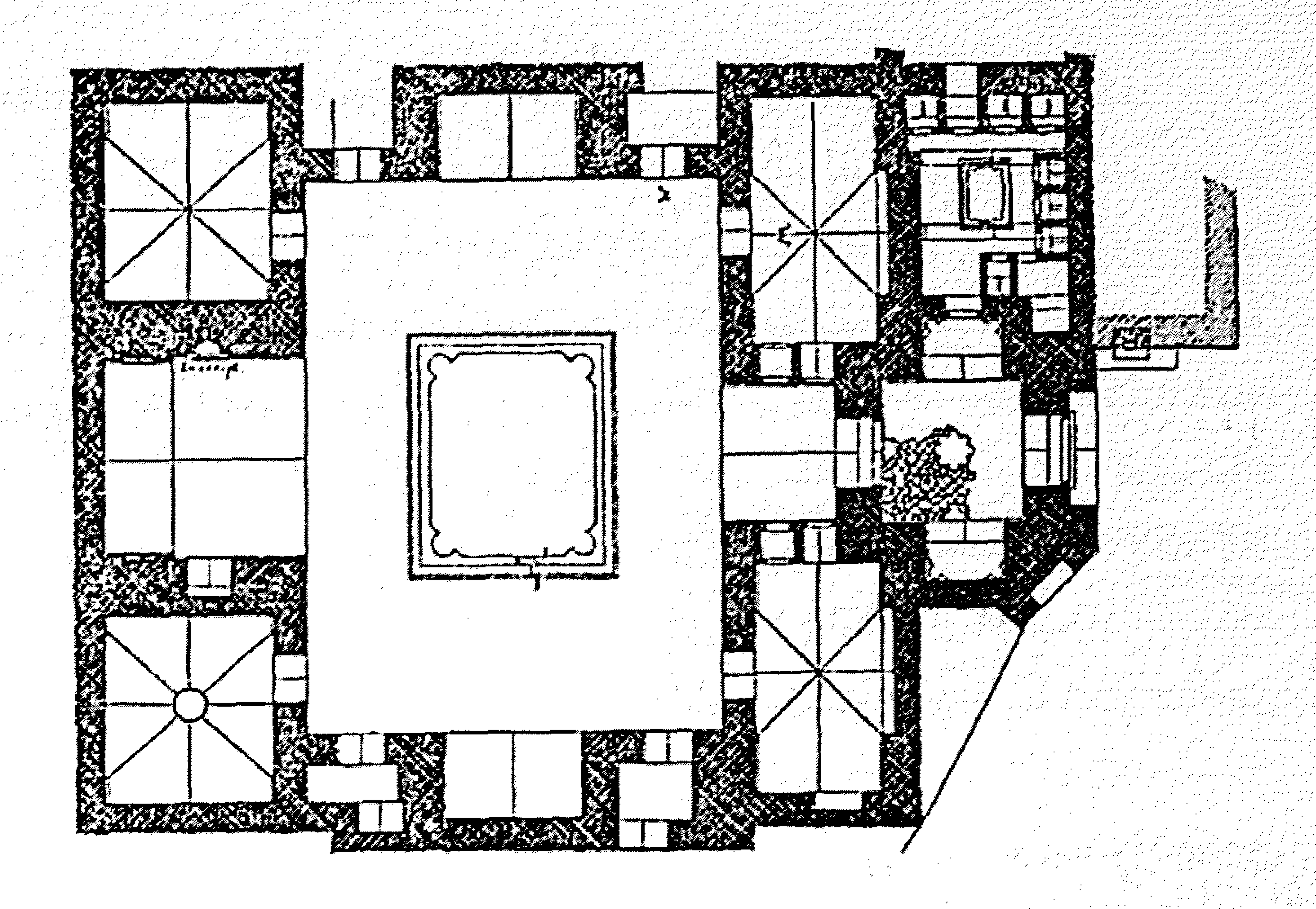
بينما كان الغرب يغط في سبات جهله الحالك، كان العلماء العرب منهمكين في البحث والعلم والمعرفة والنور. وقد اعتمد أطباء أوروبا آنذاك على الشعوذة في إنقاذ المرضى من معاناتهم وتخفيف آلامهم، فعلى سبيل المثال اعتمد الطب الروماني على ترجمات غير واضحة بل ناقصة لتآليف يونانية وبيزنطية، أو أن يعترف المريض للكاهن بآثامه التي ارتكبها في حياته ليرشه بالماء المقدس الذي فيه الدواء والشفاء. أما الأطباء العرب، فقد كان الرازي أبرزهم، وقد كتب رسالة عن الحصبة والجدري أصبحت مرجعاً أساسياً في أوروبا حتى القرن الثامن عشر، وكذلك ابن سينا الذي شخص الالتهابات التي تصيب الأضلاع والرئة وخراج الكبد.

وهناك أيضاً ابن رشد الذي اكتشف المناعة التي يتركها داء الجدري الأسود بعد إصابته الأولى، كما لمع اسم الجراح الأندلسي الكبير أبي القاسم الزهراوي بإدخاله تجديدات كثيرة في علم الجراحة ومداواة الجروح وتفتيت الحصاة داخل المثانة، وفي التشريح.

أما في طب العيون، فقد ظهر اسم الطبيب إسحاق بن حنين، صاحب المقالات العشر عن العين التي أصبحت مرجعاً أساسياً لطب العيون في أوروبا حتى القرن الثامن عشر.

تاريخ البيمارستان:

يعود تاريخ إنشاء البيمارستانات، حسب المصادر التاريخية، إلى الوليد بن عبد الملك، ومن ثم إلى نور الدين الزنكي أيضاً، فقد انتشرت البيمارستانات نتيجة التقدم الطبي الذي أحرزه الأطباء العرب، وذلك لخدمة المرضى وفق أسلوب معماري مناسب لجميع الاحتياجات والمتطلبات. ولم تظهر المستشفيات في أوروبا إلا في نهاية القرن الثاني عشر، وذلك بعد التأثر بمستشفيات وبيمارستانات العرب إثر الحملات الصليبية إلى الشرق الإسلامي.



المسقط الأفقي للبيمارستان النوري بمدينة دمشق.

اهتم المعماري العربي خلال تصميمه البيمارستان بالوظائف الاحتياجية المعينة والمتباينة، وسكب هذه الوظائف في بوتقة معمارية تحمل طابعاً شرقياً متماشياً مع الطراز المعماري العربي العام، ونجد تشابهاً كبيراً للمساقط الأفقية بين البيمارستانات والمدارس الإسلامية التي شيدت في ذلك العصر من حيث الشكل المستطيل للمبنى ذي الصحن الواسع بفسحته السماوية، وتحيط به أقسام البيمارستان المنفصلة والمتعددة على شكل أروقة محمولة على عقود تقوم على أعمدة رشيقة.

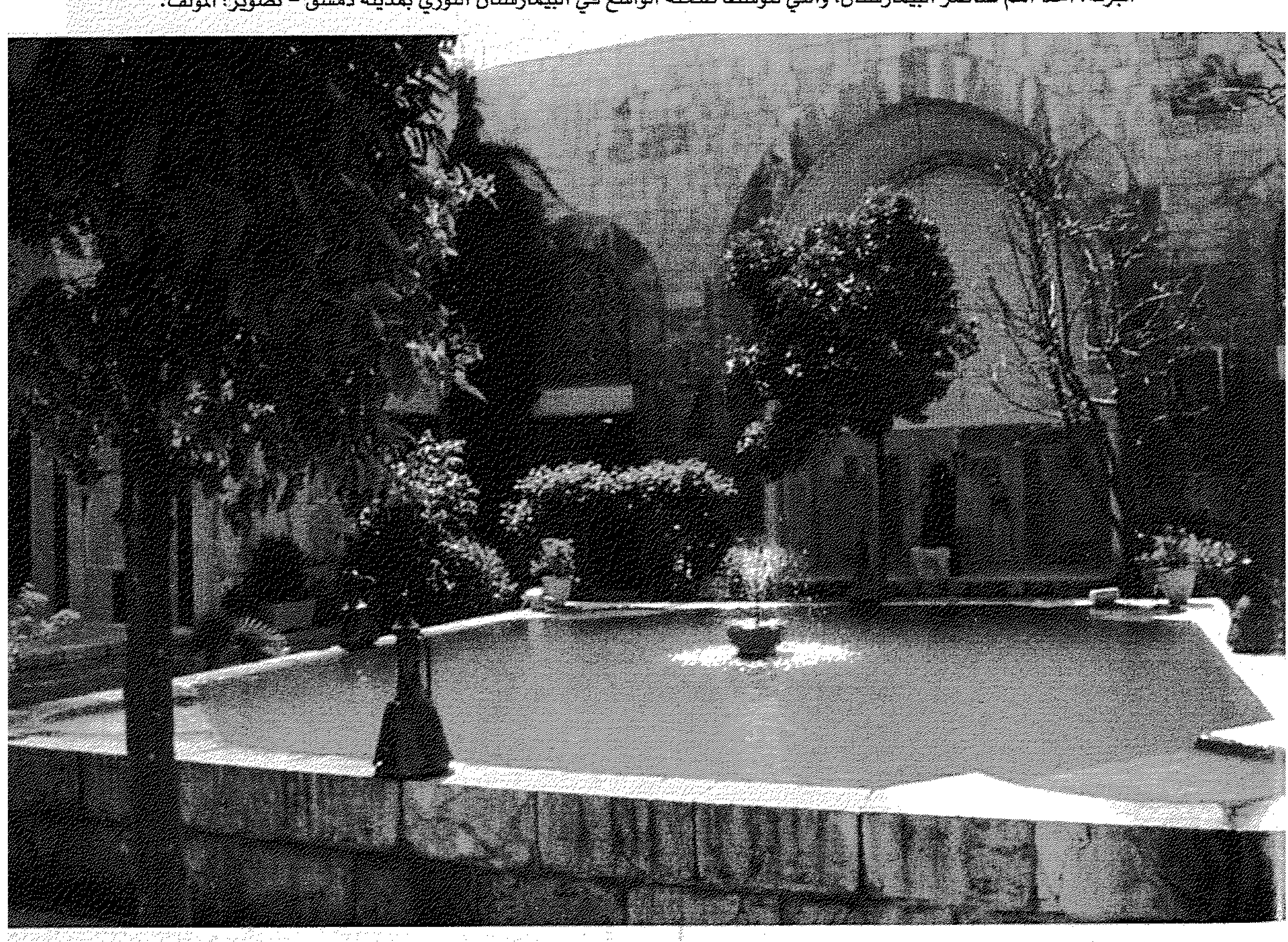
وتتوسط هذه الفسحة بركة ماء لاهتمام المعماري العربي بعنصر الماء الحيوي، وهناك أيضاً البئر(الجب) لتزويد البيمارستان بالماء، ونلاحظ هنا استخدام الأسلوب المعماري للبيت العربي والعناصر المعمارية، مثل القبب، والإيوانات، والأروقة ذات الأعمدة والأقواس، إضافة إلى المقرنصات والتزيينات من نقوش

وكتابات فوق باب البيمارستان وداخله، والمداميك السوداء والصفراء المتباينة، والرخام الملون في الأرضيات، والعناية الخاصة بالمدخل الرئيس ذي الأبواب الخشبية المكسوة بصفائح نحاسية مزينة بأشكال هندسية متقاطعة.

عناصر البيمارستان:

يقوم المعماري بدراسة شاملة للعناصر التي يتكون منها المبنى مع عملية ربط بين هذه العناصر دارساً أيضا البيئة المحيطة بالمبنى، مختاراً الموقع المناسب خصوصاً في إنشاء البيمارستان لأهميته الصحية.

البركة، أحد أهم عناصر البيمارستان، والتي تتوسط صحنه الواسع في البيمارستان النوري بمدينة دمشق - تصوير: المؤلف.





الإيوان في البيمارستان النوري بمدينة دمشق - تصوير: المؤلف.

وترى المستشرقة الألمانية (زيغريد هونكه) في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب) أن السلطان عضد الدولة وكلّ إلى الطبيب الشهير الرازي البحث عن أفضل مكان ليبني فيه مستشفى جديداً حديثاً في مدينة بغداد، فكان أن أوصى الرازي خدمه بتعليق قطعة كبيرة من اللحم من مختلف الأنواع في كل أطراف بغداد، ثم انتظر مدة أربع وعشرين ساعة وانتقى المكان الذي ظل فيه اللحم أحسن حالاً، أو أقل سوء.


أما السلطان صلاح الدين الأيوبي، فقد اختار في القاهرة أحد قصوره الضخمة وحوّله إلى مستشفى ضخم كبير، المستشفى الناصري، وانتقاه بعيداً عن الضوضاء.

أجنحة مستقلة:

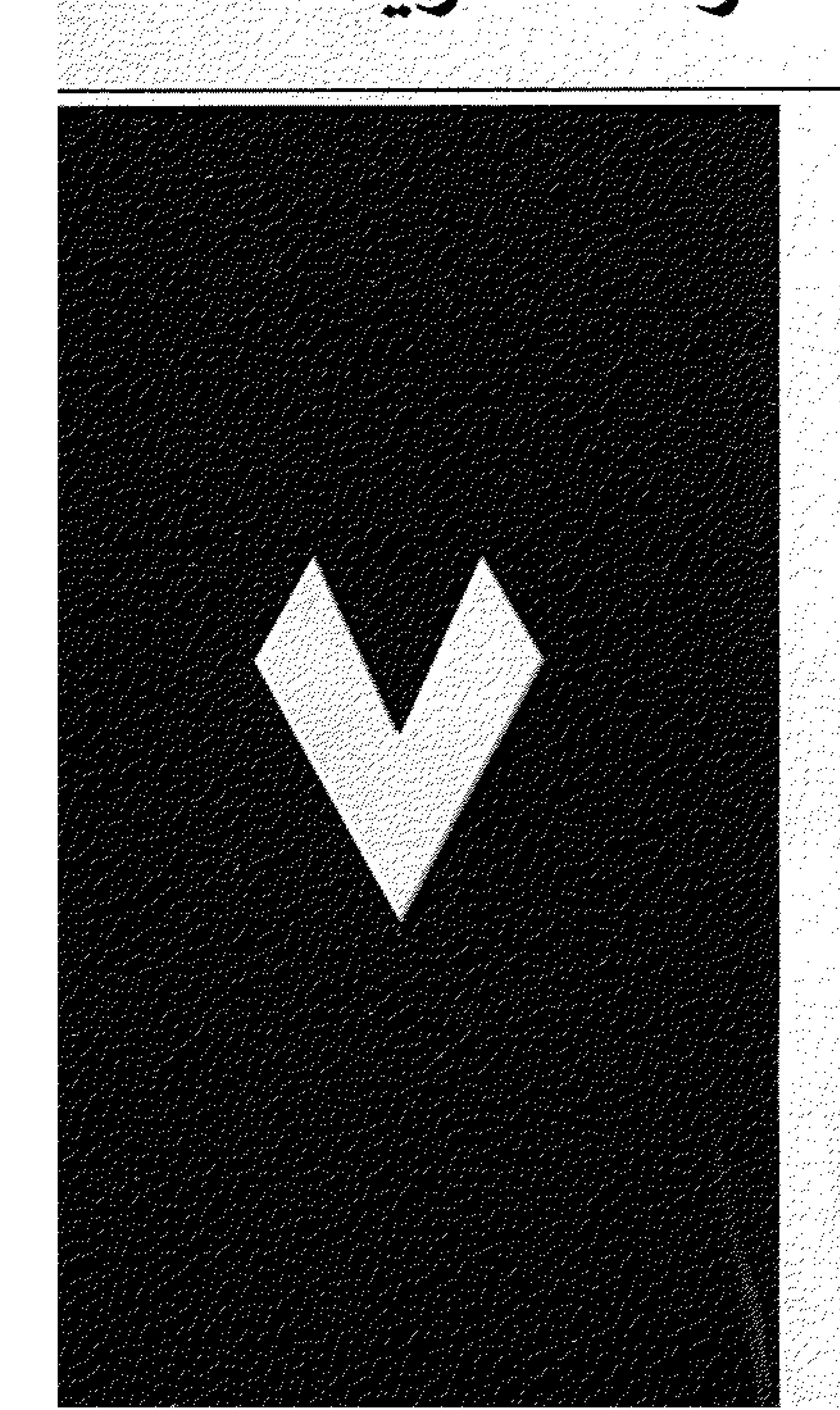
وللبيمارستان في العادة مدخلان: أولهما رئيس لاستقبال المرضى والزوار. والثاني فرعي وخاص بالخدمات العامة للبيمارستان، وعندما ندخل الباب الرئيس نجد غرفاً للانتظار والمعاينات الخارجية، مما يدل على فصل القسم الأول الخارجي عن الأقسام الداخلية، إضافة إلى وجود شبابيك ذات قضبان حديدية مطلة على الصحن السماوي للبيمارستان وفائدة هذه الشبابيك إطلالة الزوار على أهلهم المرضى من دون الاختلاط بهم.

وانتشرت الدهاليز والممرات المنكسرة في البيمارستان لتحقق عملية الربط بين الأجنحة المستقلة، فلكل جناح أهميته الخاصة، وعزلته المعينة، وفق طراز معماري مشترك، ونجد أيضاً الأجنحة المخصصة للمجانين الخطرين، بعيدة عن الأجنحة الأخرى لتحظى بعزلة تامة، وبشكل محكم الإغلاق ذي نوافذ محصنة وغير منفتحة على الساحة مباشرة.

ومن أهم البيمارستانات في عالمنا العربي مستشفى عضد الدولة في بغداد بأقسامه الواسعة، ومستشفى النوري في دمشق مع ميادينه المخصصة لكل الفروع، وجوهرة المستشفيات المستشفى المنصوري في القاهرة، والبيمارستان الأرغوني الكاملي في حلب.



مساجد وقصور باقية من الحضارة الأموية



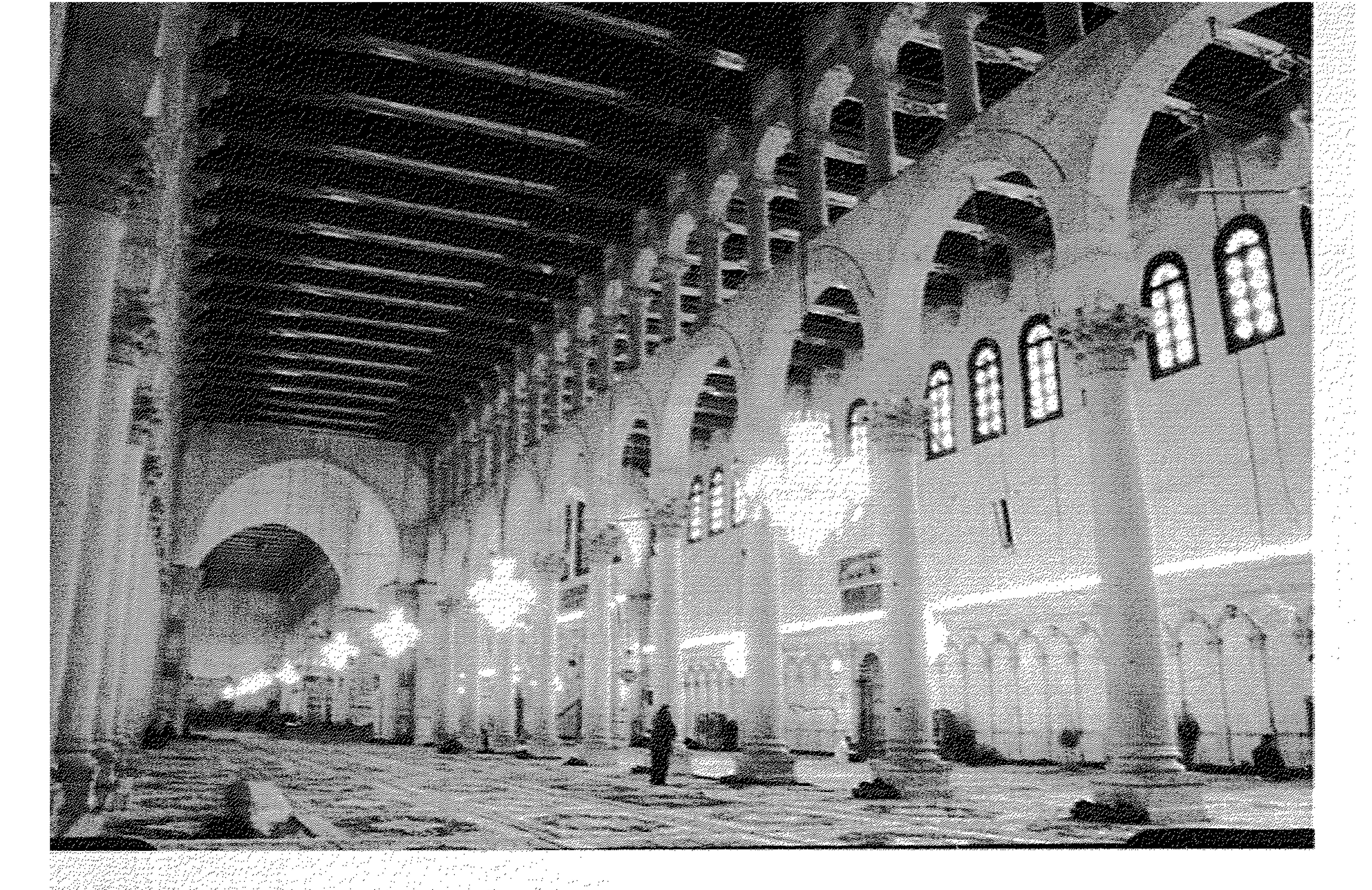
مساجد وقصور باقية من الحضارة الأموية ❖

ندخل الجامع الأموي لنجد أنفسنا في مكان يعدّ آية من آيات الجمال والإبداع، وفي صرح معماري صار قدوة ومصدر الهام لمعماريين كثر، كجامع قرطبة بالأندلس، وغيره من الجوامع الأخرى.

صحن الجامع الأموي بمدينة دمشق - تصوير: المؤلف.



❖ صحيفة الحياة العدد ١٢٩٣٥ - ١٠ ربيع الآخر ١٤١٩ هـ. الموافق ٣ أغسطس (آب) ١٩٩٨م



القبلية في الجامع الأموي بمدينة دمشق – تصوير: المؤلف.

شيد هذا الجامع سنة ٨٧ هـ ـ ٧٠٦م، بأمر من الوليد بن عبد الملك ليكون نموذجاً معمارياً ينافس المعابد التي بنيت في المنطقة نفسها التي بني عليها هذا الجامع، كمعبد جوبتير.

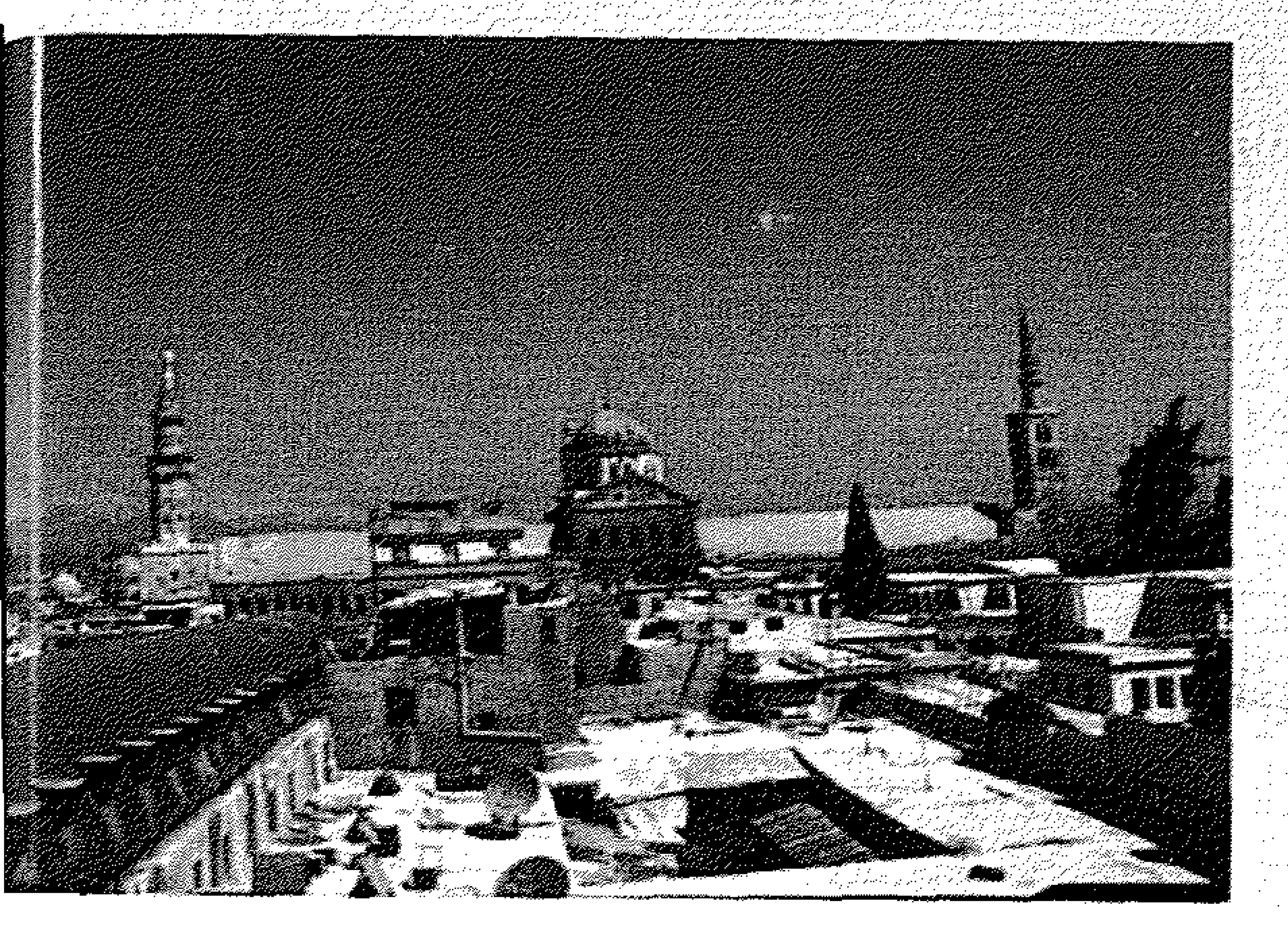
لصحن الجامع ثلاثة أبواب:

باب البريد ، وباب النوفرة ، وباب العمارة أو الكلاّسة.

وهناك الرواق المسقوف المحيط به والقائم على الأعمدة. أما القبلية فمغطاة بسقف خشبي مائل على شكل جملوني، ومساحتها مع باقي أقسام الجامع (١٥٧ x ٩٧ متراً).

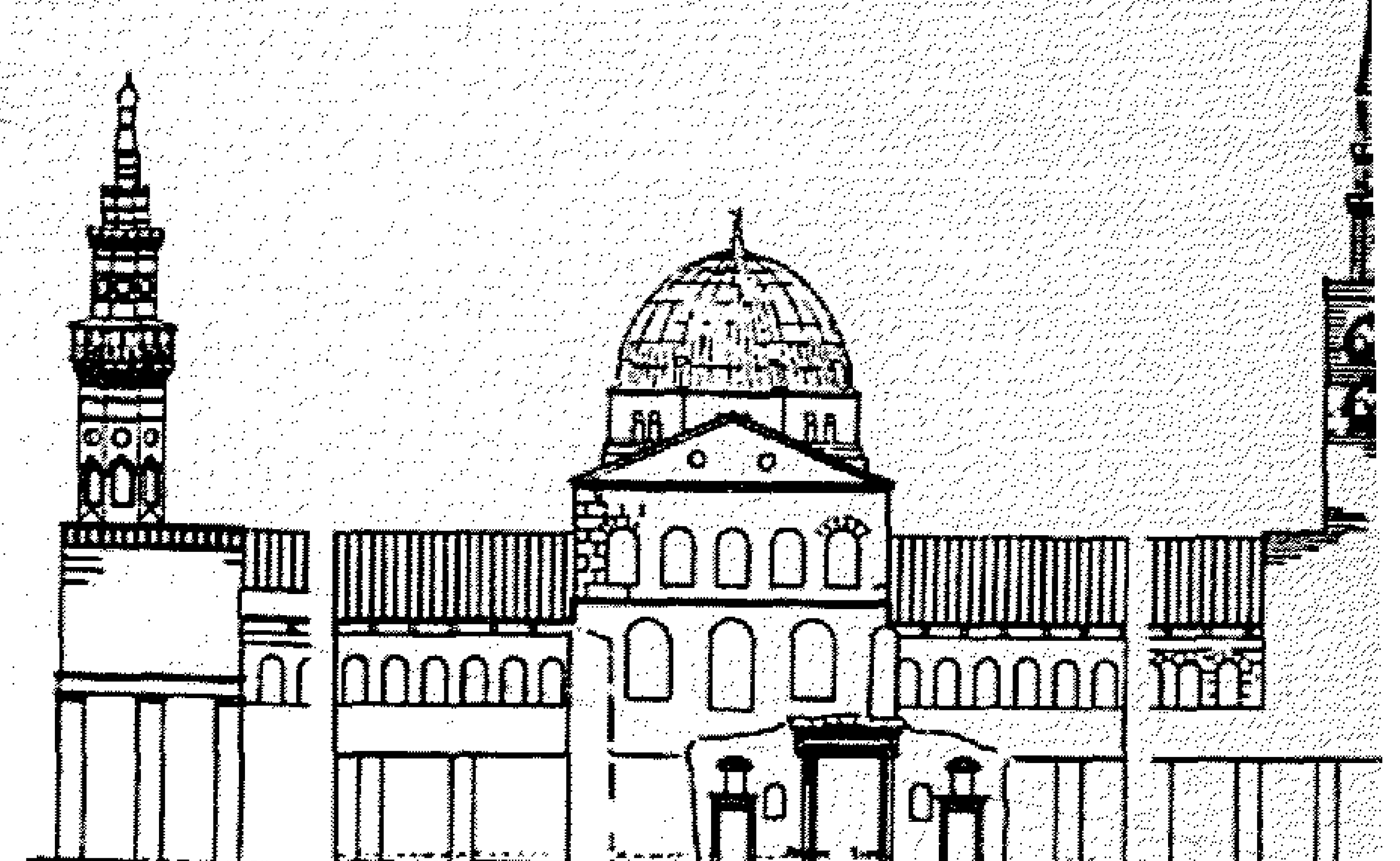
أما قاعدة الجامع فمستطيلة ومؤلفة من ثلاثة أروقة، وهناك عدة محاريب صغيرة، بالإضافة إلى المحراب الرئيس.

وللجامع ثلاث مآذن ذات ارتفاع شاهق و شكل برجي، كما أن نظام المآذن بدأ أول مرة في هذا الجامع ليصبح طريقة يحتذى بها في باقي الجوامع،



واجهة الجامع الأموي بمدينة دمشق – تصوير: المؤلف.

واجهة حرم الجامع الأموي بمدينة دمشق – عن كريزويل.



والى يومنا هذا من حيث الشكل، ومن حيث العناية الفائقة بزخرفته واستعمال الرخام والموزاييك الملون باللون الذهبي على أشكال نباتية، بالإضافة الى استعمال الأعمدة الرخامية ذات العقود الكبيرة والصغيرة لتساعد على حمل الرواق أو الأسقف.

الجامع الأموي الكبير في حلب:

أثر آخر وميراث قيّم تركه لنا الأمويون في حلب الشهباء، ويتشابه كثيراً بالجامع الأموي في دمشق؛ لأن كليهما مستطيل الشكل، وتبلغ مساحة الجامع (١٠٥ x ٨٠ متراً).

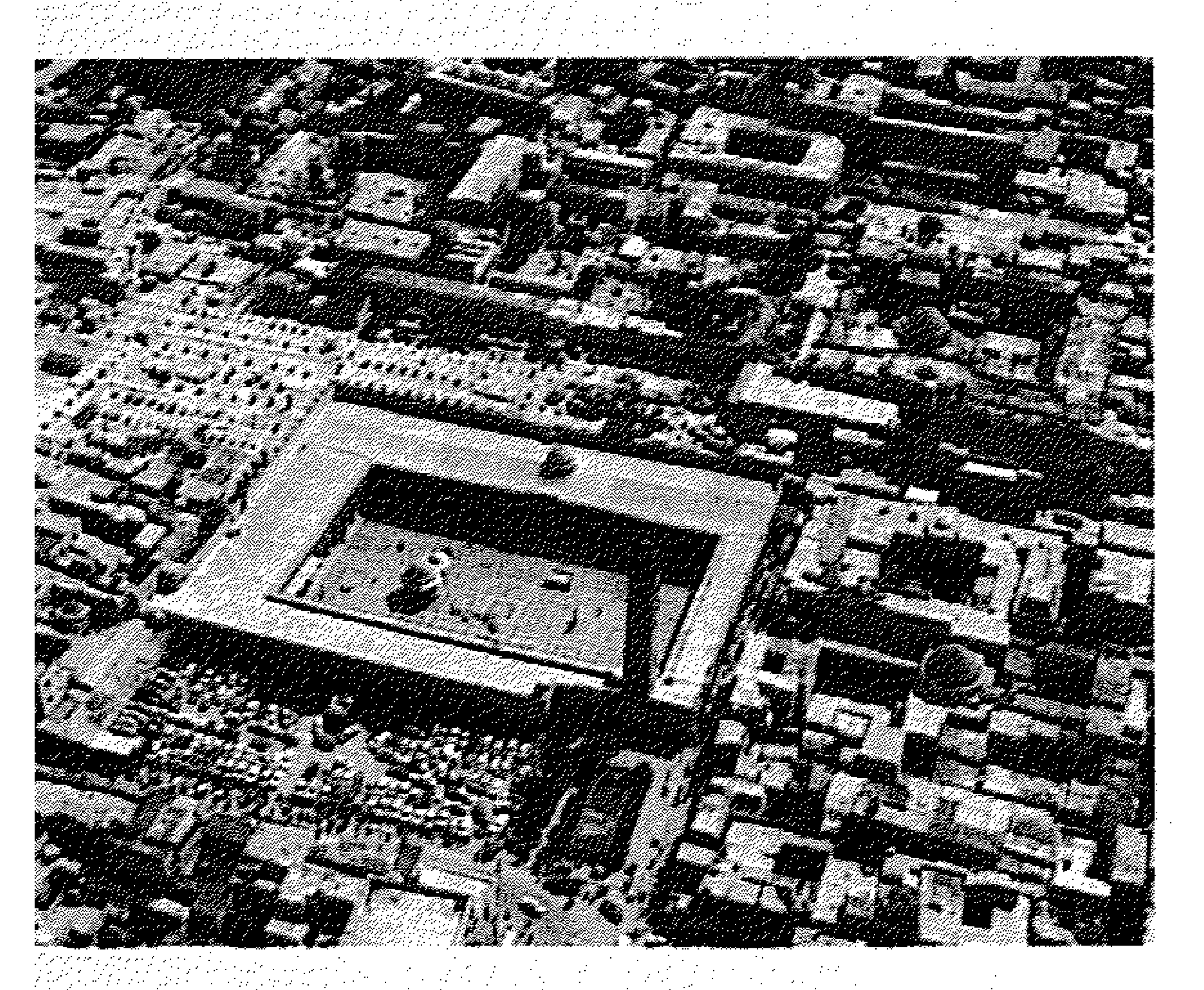
يقع هذا الجامع بالقرب من أسواق حلب القديمة، وله أربعة أبواب، هي: باب النحاسين، وباب الطيبة، وباب الجراكسة، وباب المساميرية، منها من

فتح على السوق، مما يسهل عملية دخول الباعة والأشخاص الآخرين لقضاء الصلوات فيه، ويكون مكان لقاء وتعبد، بالإضافة إلى حضور الدروس الدينية، وأحياناً لحل الخلافات أو التساؤلات بمساعدة الشيخ إمام الجامع، لكونه صديق الجميع ومستشارهم، وينتشر في أنحاء صحن الجامع، مجموعة من القرّاء، يتلون ويرتلون القرآن.

أما في داخل الحرم، فهناك عدة محاريب للصلاة، بالإضافة إلى المنبر الخشبي، وهناك ثلاثون عضادة موزعة تحمل ثلاثة أروقة.

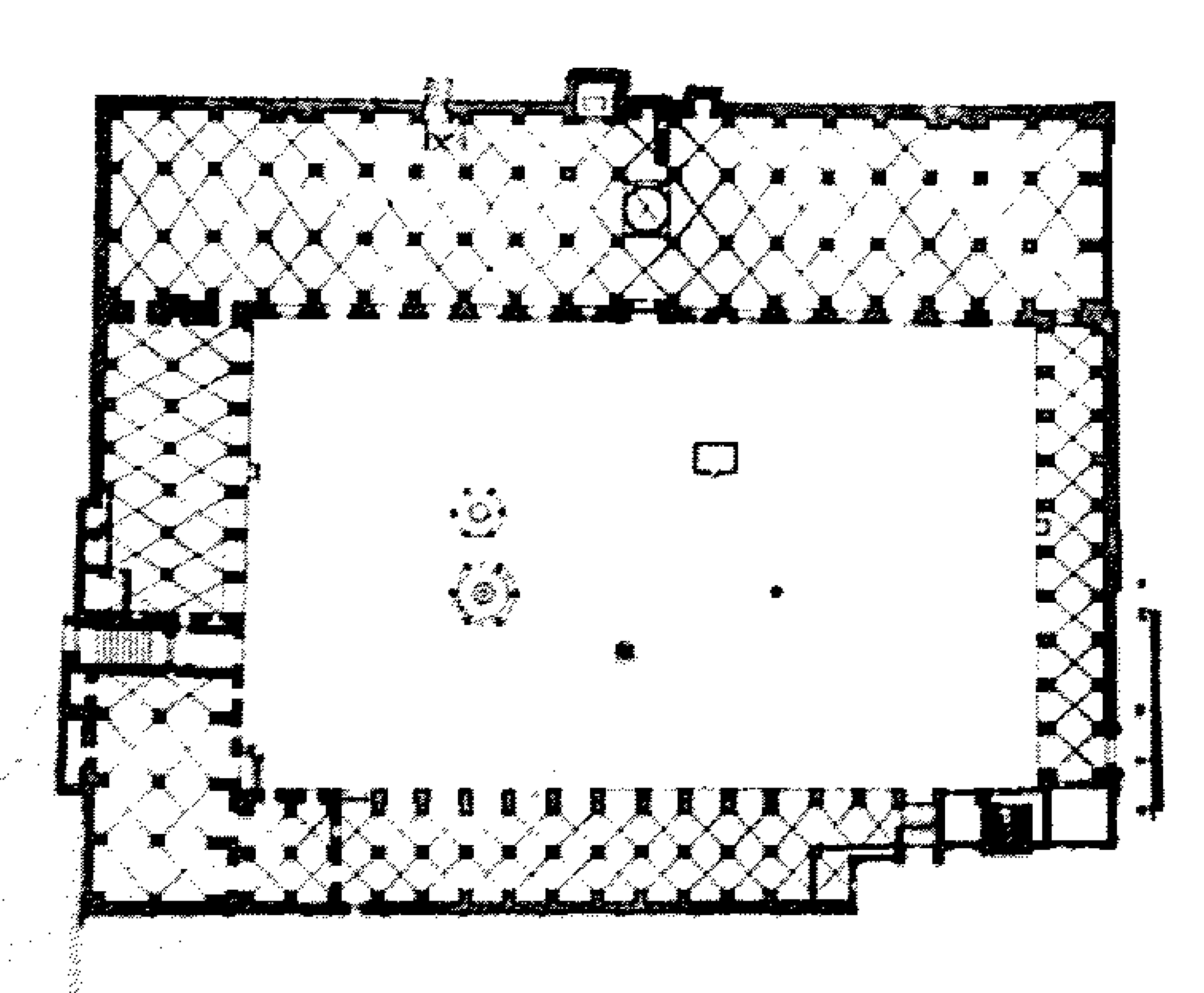
مئذنة الجامع مربعة وبرجية الشكل، يبلغ ارتفاعها ٤٢ متراً، يصعد إليها المؤذن سابقاً للأذان يومياً خمس مرات بواسطة باب خشبي صغير، ولها ١٥٤ درجة تصل بين صحن الجامع وشرفة المئذنة.


نجد أيضاً فن الزخارف والنقوش التي تعتلي صرح المئذنة، وأنشأ هذه المئذنة المهندس المعماري حسن بن مفرح في سنة ٤٨٣ هـ.



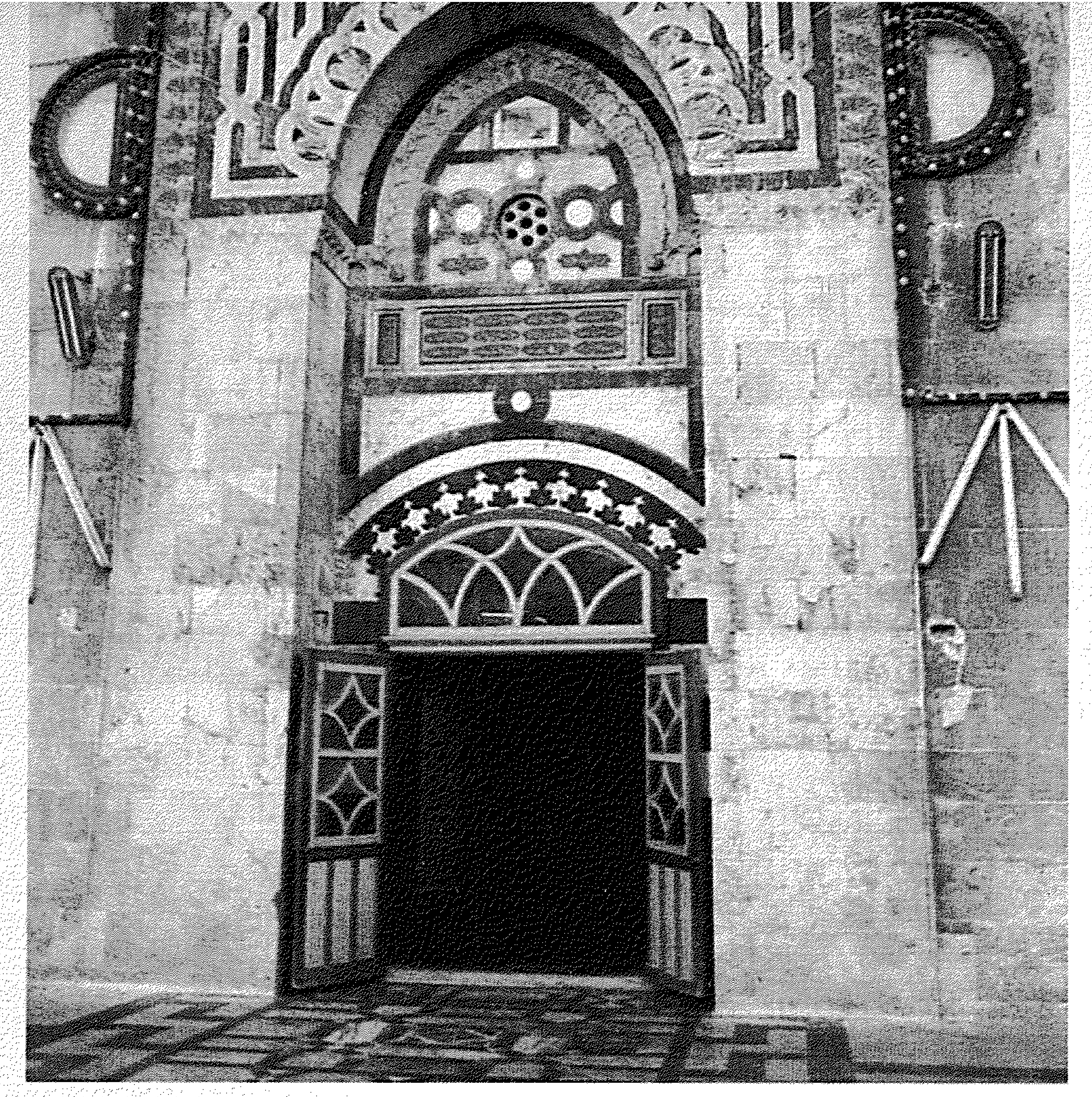
لقطة جوية للجامع الأموي بمدينة حلب.

المسقط الأفقي للجامع الأموي بمدينة حلب.





صحن الجامع الأموي بحلب وتبدو المئذنة والشادروان

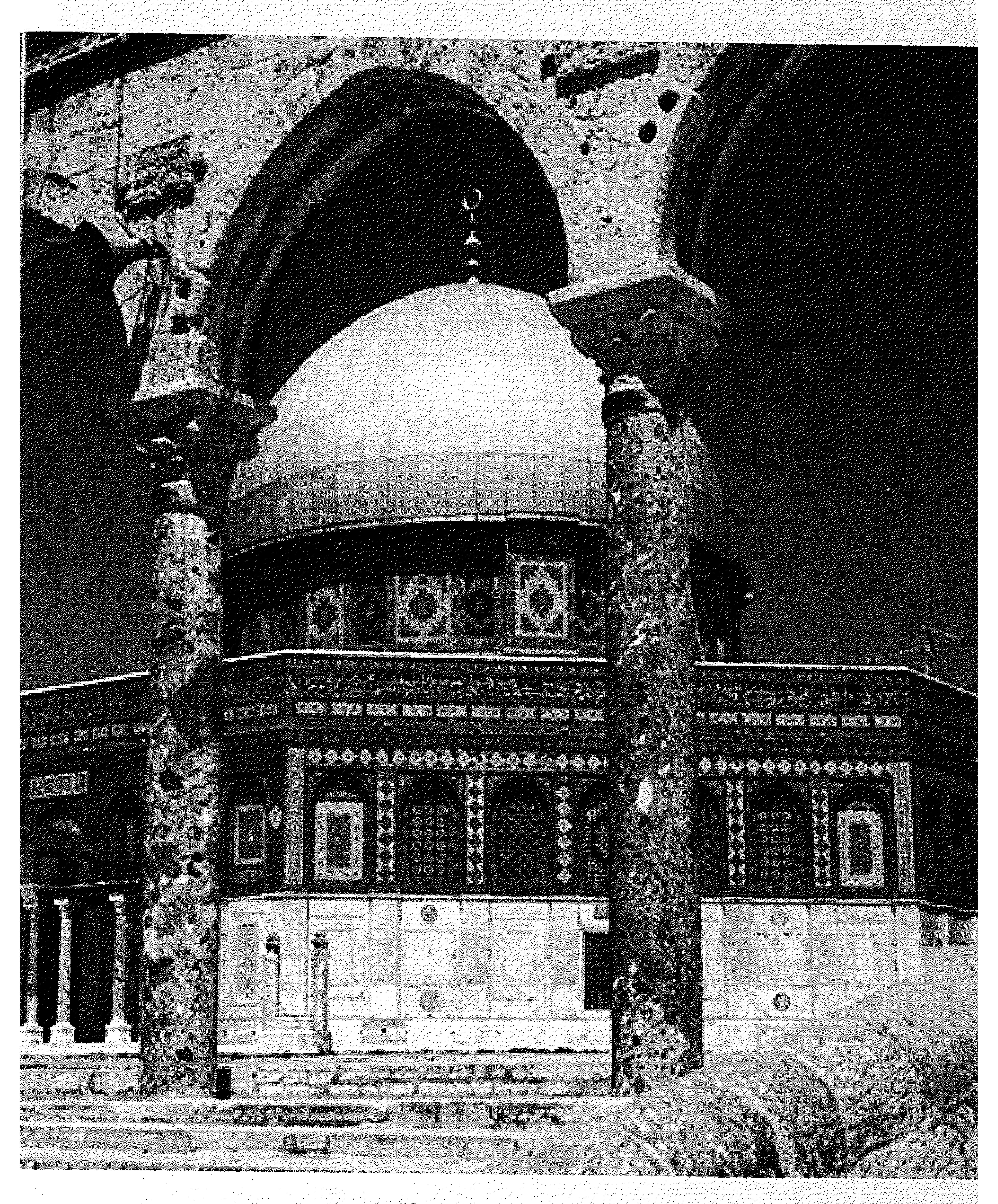


مدخل قبلية الصلاة للجامع الأموي بمدينة حلب.

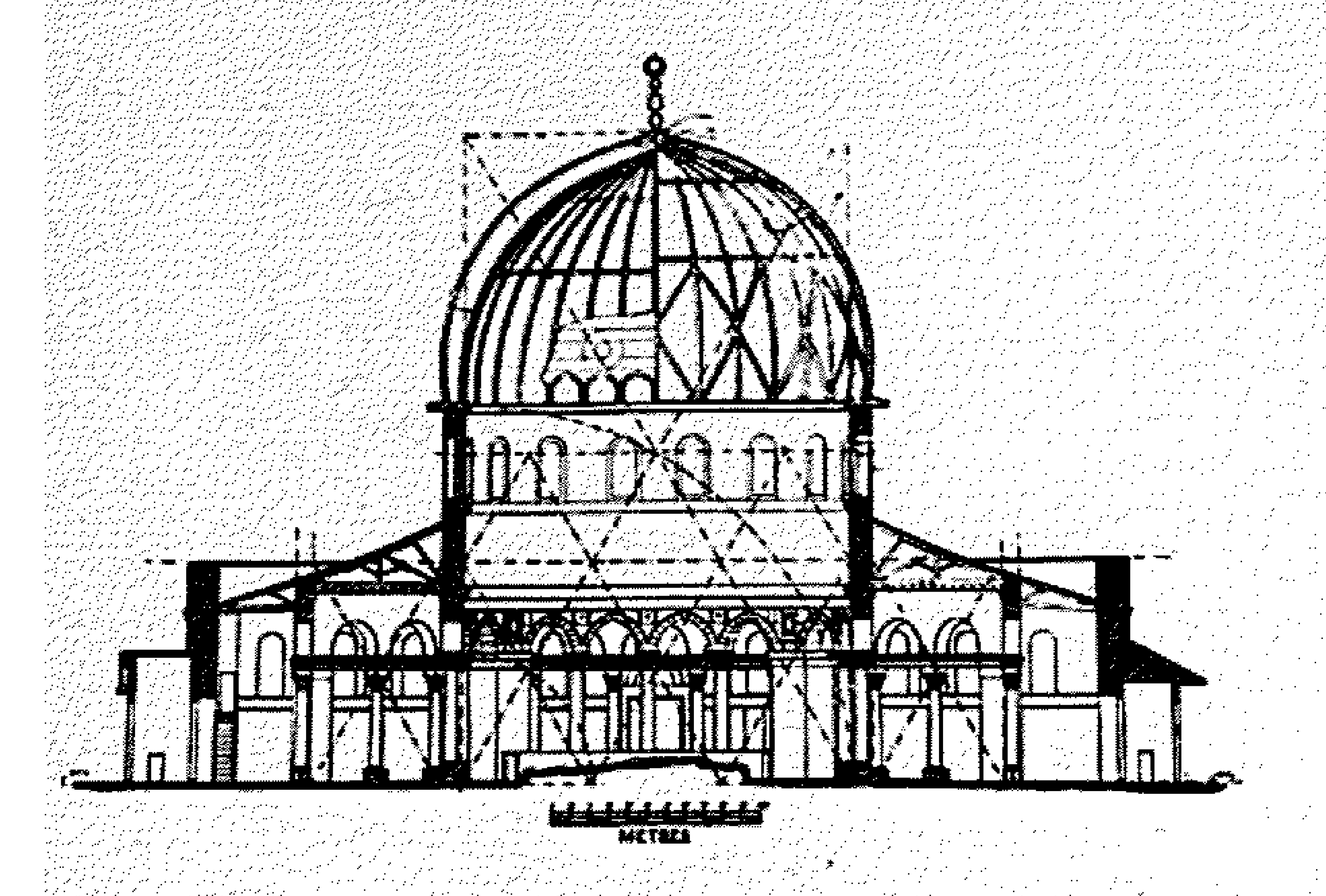
مسجد قبة الصخرة:

كلنا يعلم حادثة الإسراء والمعراج، عندما صلى النبي صلى الله عليه وسلم إماماً في القدس بالأنبياء، وكيف حاولت الصخرة أن تتبعه، وبأمره توقفت في الهواء وعلى ارتفاع ١,٥ متراً عن سطح الأرض - إلى يومنا هذا - تبلغ مساحتها (١٨ x ١٣) متراً، وفي العهد الأموي أرادوا بناء صرح معماري يضم هذه الصخرة.

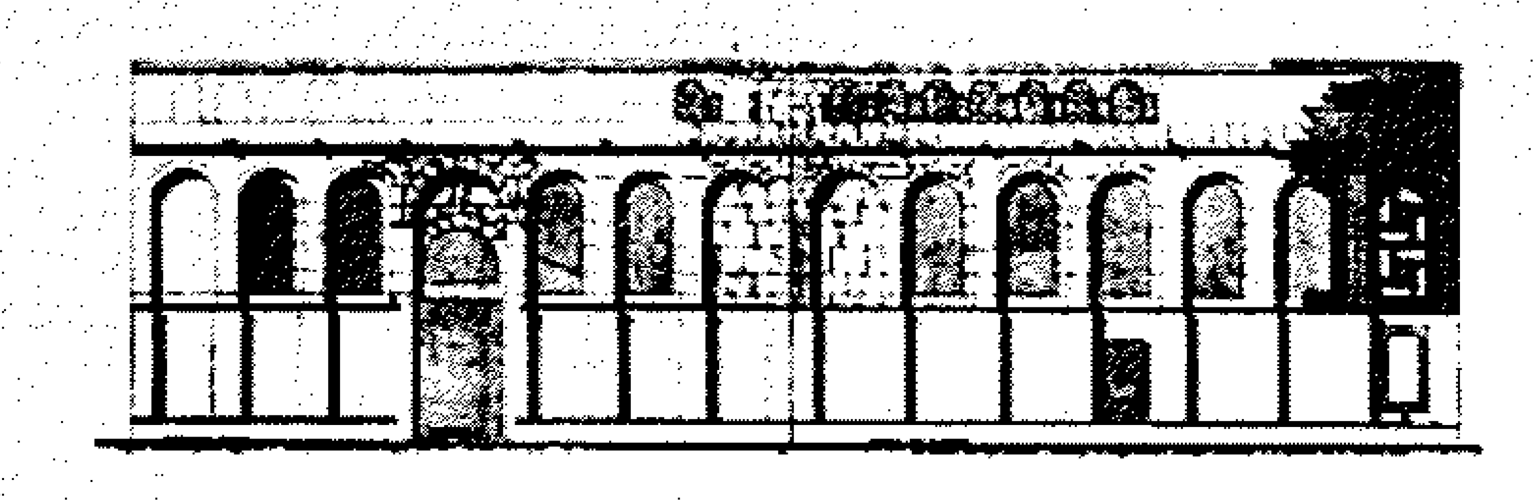
فتم بناء مسجد قبة الصخرة وبشكل مثمن، وفي الداخل نجد القبة المصنوعة من الأخشاب والمغطاة خارجاً بالرصاص، ورفعت هذه القبة على أعمدة وأكتاف دائرية الشكل، أما عن الدراسة الإنشائية للقبة، فقد تمت بشكل



مسجد قبة الصخرة في مدينة القدس.



مقطع جانبي لقبة الصخرة - عن ريشموند.


واجهة ضلع المثمن لقبة الصخرة.


قبة الصخرة من الداخل.

جيد، فربطت تيجان الأعمدة بواسطة الروابط الخشبية لتزيد في متانة المبنى وصلابته، كما كان التصميم ملائماً لعملية الطواف حول الصخرة.

نجد الإبداع في الزخرفة داخل القبة، ومن الخارج أيضاً بالقاشاني التي تمت بأمر من السلطان سليمان عام ١٥٤٥ م، كذلك نلاحظ النوافذ الكثيرة

(١٦ نافذة) والمزخرفة بالزجاج الملون والرخام، وهناك أيضاً ١٦ نافذة في رقبة القبة.

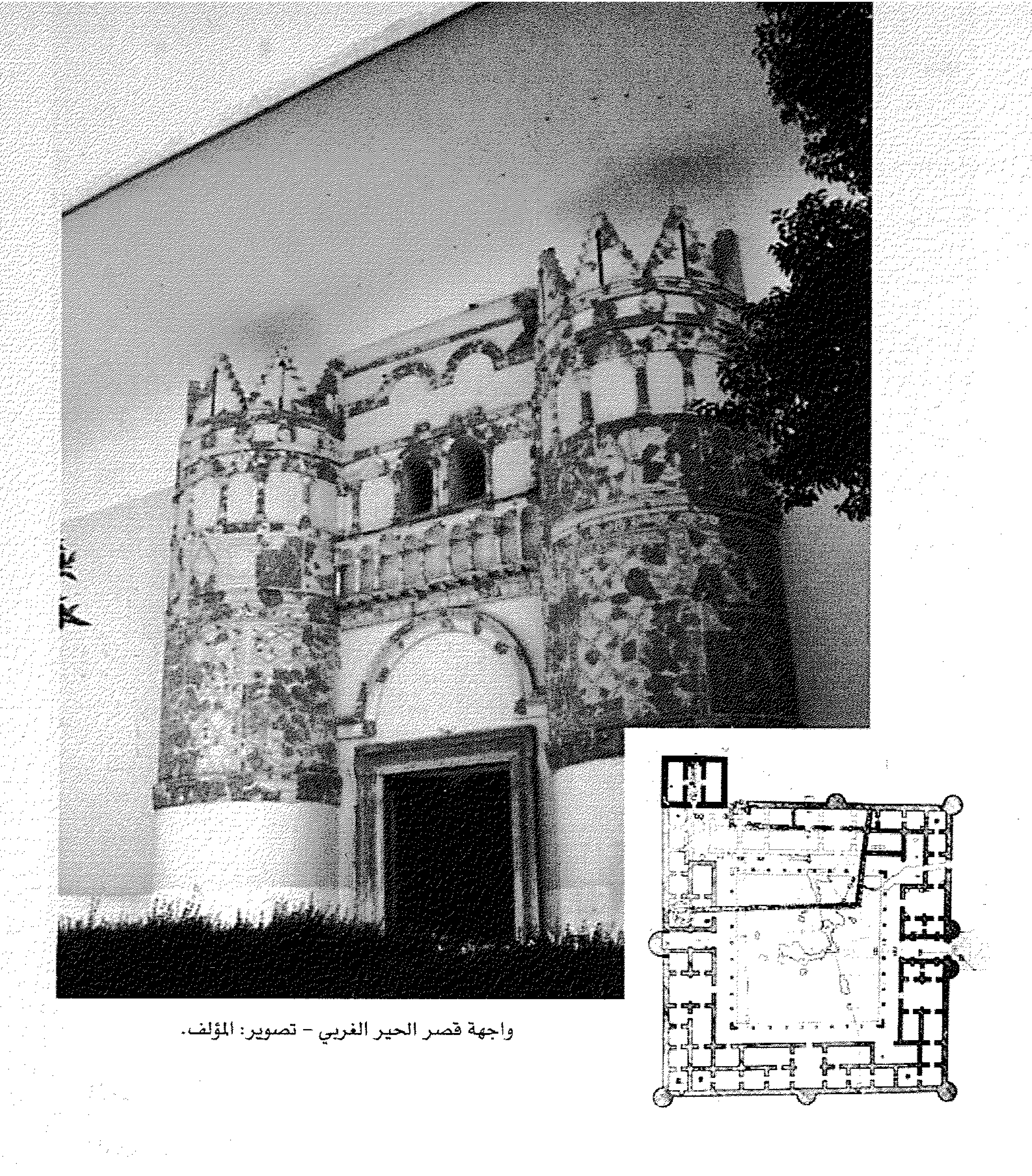
المسجد الأقصى:

إن المسجد الأقصى مستطيل الشكل، وله سبعة أروقة، ولكل رواق أحد عشر عقداً، وتبلغ مساحته (٨٠ x ٥٥ متراً) في عهد الوليد، علماً أن شكله خضع لعدة تغييرات خلال مراحل متباينة، أنشئ أول مرة بتاريخ ١٧هـ ـ ٦٣٨م بأمر من الخليفة عمر، وفي ظل حكم عبد الملك بن مروان أعيد بناؤه بتاريخ ٩٠هـ ـ ٧٠٩م، بعدها قام الخليفة العباسي المنصور بإعادة إنشائه سنة ١٤١هـ ـ ٧٥٨م. وللمسجد قبة رائعة، ويكسو السقف ألواح من الرصاص، أما منبر المسجد الخشبي فمن عمل الصناع الحلبيين، و تم نقله بأمر من صلاح الدين الأيوبي إلى المسجد الأقصى.

القصور الأموية:

قام العباسيون بهدم القصور الأموية التي كانت يقطنها الخلفاء الأمويون في دمشق، محاولين هدم تاريخ حضارة غنية، بعد ما انتقلت الخلافة إلى مدينة بغداد، فعلى سبيل المثال لم يعد أي أثر لقصر الخضراء الذي بنى بجوار الجامع الأموي بأمر من الخليفة معاوية، ولم يبق سوى بعض القصور التي يمكننا دراستها كأمثلة عن العمارة المدنية للدولة الأموية، مثل قصر الحير الغربي، وقصر الحير الشرقي، وقصر عرة في الأردن، وقصر عنجر في لبنان.

مما يلفت انتباهنا أن الأمويين رجحوا بناء قصورهم بمقربة من نهر الفرات، أو في بادية الشام لاهتمامهم بالصيد وللابتعاد عن صخب المدينة وازدحامها. كما اهتموا ببناء القصور مثلما اهتموا ببناء الجوامع، ونلاحظ الطراز المعماري الذي يحمل سمة العظمة والفخامة بالإضافة إلى فن الزخرفة والتزيينات.

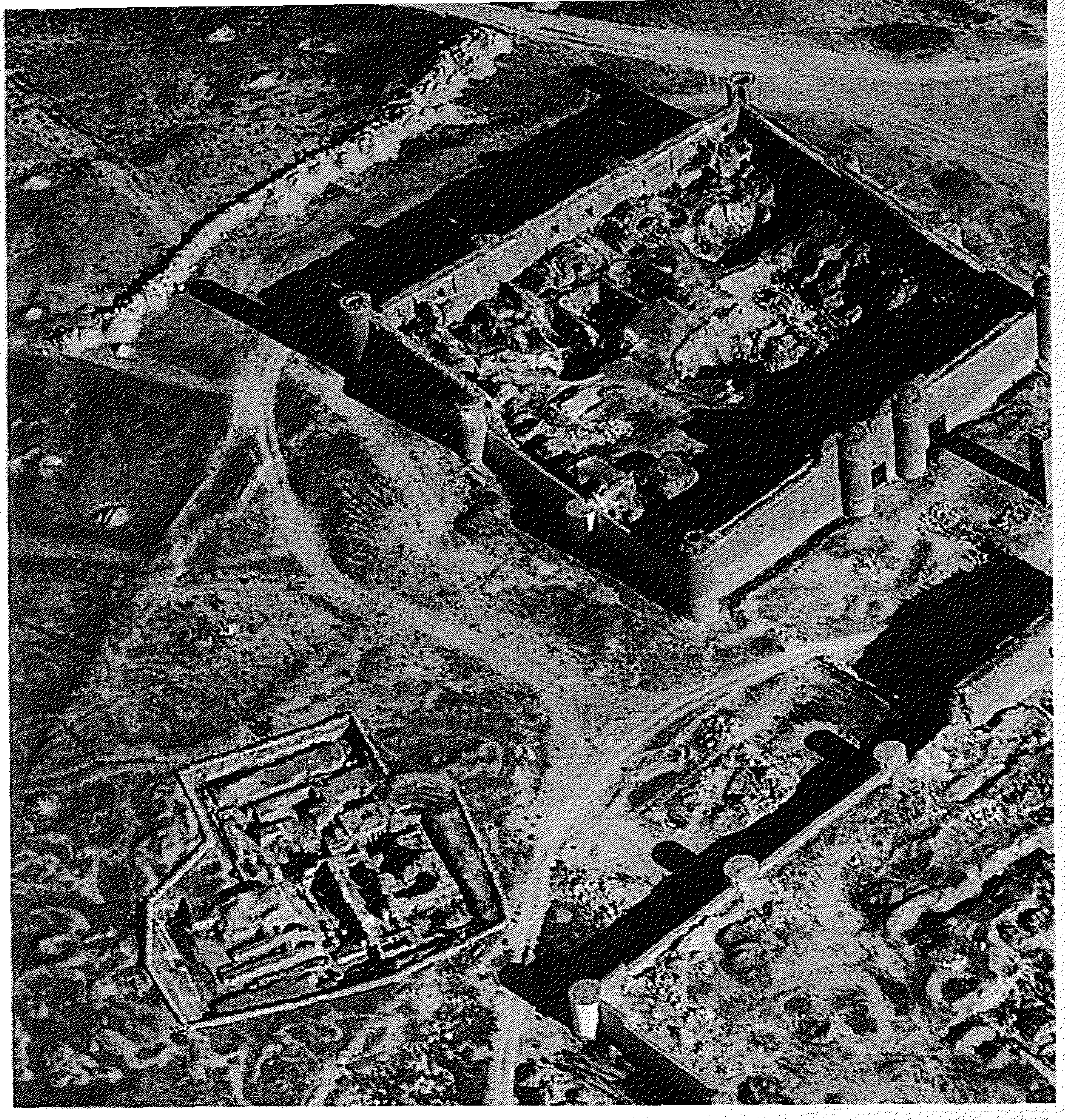


واجهة قصر الحير الغربي - تصوير: المؤلف.

مخطط قصر الحير الغربي - عن شلومبرجيه.

قصر الحير الغربي:

يعدّ هذا القصر من أفضل النماذج المعمارية للدولة الأموية، بتصميمه الداخلي، وبتوزيع الغرف والقاعات المحيطة بباحة القصر. ومن الناحية الإنشائية أيضاً، باستعمال الحجارة والمداميك والقرميد والعوارض الخشبية، إضافة إلى الأبراج المستديرة والأسطوانية. علماً أن هذا القصر بنى بأمر من هشام بن عبد الملك عام ٧٢٨ م.

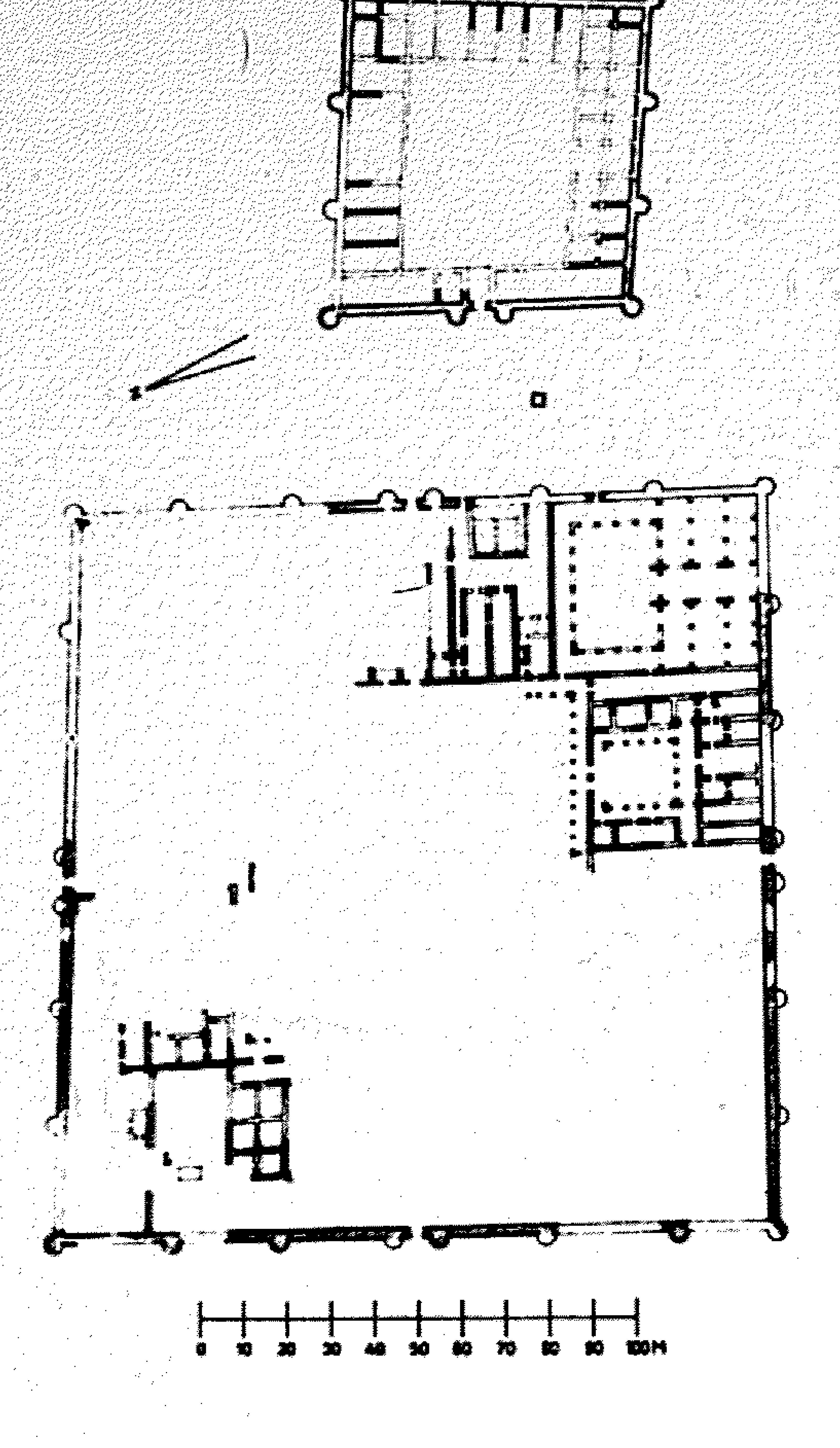


لقطة جوية لقصر الحير الشرقي، الواقع على بعد ١٠٥ كيلو متراً جنوب الرصافة.

خيم عنصر الانفصالية والاستقلالية على قاعات القصر وحجراته، ودرس المعمار طريقة إنارة الغرفة باستخدام الكوات الصغيرة في أعلى السور، وهناك النوافذ الجصية، وقد غلبت سمة التناظر على مخطط القصر، وهو مثال لأشكال القصور في القرن الثامن الميلادي.

قصر الحير الشرقي:

يشبه قصر الحير الغربي كثيراً، بتصميمه وشكله الخارجي لاستعمال الأسوار المرتفعة والجدران المدعمة بأبراج نصف دائرية، وهناك في كل زاوية برج دائري، وله مدخل رئيس مدعم من طرفيه ببرج نصف دائري.


مخطط قصر الحير الشرقي - عن غرابار.

يقع هذا القصر في شمال شرق تدمر، وشيده الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١١٠هـ -٧٢٩م، ويتألف هذا القصر من قسمين: هما القسم الشرقي، والقسم الغربي، بالإضافة إلى المسجد والحي السكني لحاشية الملك وحراسه وخدمه.

قصر أسيس:

قصر آخر بناه الأمويون في بادية سورية سنة ٩٣هـ - ٧١٢م، ويبعد عن دمشق بمسافة ١٠٥ كم في اتجاه الجنوب الشرقي منها، وهو يماثل القصور السابقة بالتصميم والطراز والتناظر. ومؤلف من فناء مركزي تحيط به الغرف، وهو على شكل دورين.



الفسيفساء الأرضية لصالة العرش في قصر خربة المفجر

للقصر سمة أساسية ومهمة بوجود حمام ضمنه، ليكون هذا الحمام أقدم حمام إسلامي، هناك أيضاً في سورية قصور أخرى مثل قصر خربة البيضا، وقصر الرصافة، وقصر حوارين.

القصور الأموية في الأردن و لبنان وفلسطين:


مع أن عاصمة الدولة الأموية هي دمشق، ومع اهتمام بني أمية بهذه المدينة بالذات، إلا أنهم بنوا قصوراً في بلاد أخرى كالأردن ولبنان، ففي الأردن قصر المشتى، وقصر حران، وقصر الطوبة وعمران، وفي لبنان هناك مدينة عنجر وقصرها. أما في فلسطين، فهناك خربة المفجر بالإضافة إلى ثلاث منشآت اكتشفت تحت مدينة البنات، تحمل طابعاً معمارياً واحداً للعمارة المدنية الأموية.

السمات العامة للعمارة الأموية:

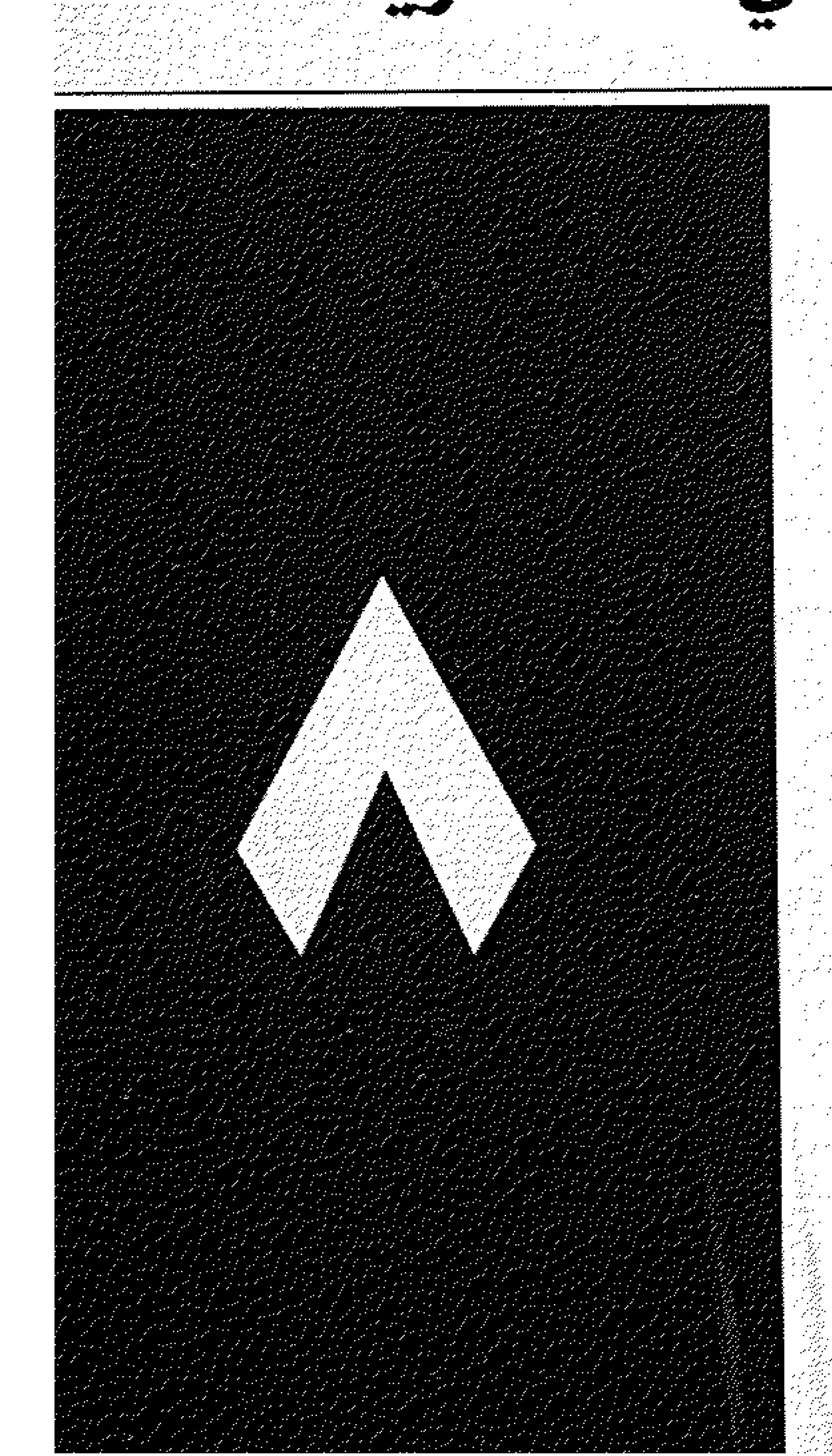
ونحن ندرس الطراز المعماري للعصر الأموي، نلاحظ أنه متأثر بفنون معمارية أخرى سابقة، كالطراز المعماري في وادي النيل وبلاد الشام والرافدين. علماً أن المادة الرئيسة المستخدمة في الإنشاء كانت الحجارة، والمداميك الحجرية ذات الطول من٣٠ إلى ٩٠ سم، ثم دخل القرميد كمادة إنشائية في البناء، واستعمل في بناء الجدران والأقبية، أما الأسقف فكانت جملونية الشكل (مائلة باتجاهين)، وانتشرت العقود المحمولة على الأعمدة الرخامية، وكذلك التزيينات والزخارف ذات الأشكال النباتية، واستعمال الفسيفساء في الصور الجدارية أيضاً.

وعن القصور الأموية كانت أشبه بالحصن الحصين لارتفاع جدرانها ولإنشاء الأبراج في جدرانها الخارجية.

وهكذا ينتهي بنا المطاف في أرجاء الطراز المعماري الأموي الذي انتشر في بلاد الشام، وأثر في الطراز المعماري لشمال افريقية والأندلس حاملاً أسلوباً خاصاً متميزاً به على الرغم من تأثره بأساليب معمارية أخرى، زادته جمالاً وروعة وبهاء.



الحمامات. عودة إلى ماضي الذكريات



الحمامات. . عودة إلى ماضي الذكريات ❖

الحمامات الرومانية:

إهتم الرومان ببناء الحمامات ذات المساحات الكبيرة والأشكال الضخمة، ولم تكن الحمامات للاستحمام فقط، بل كانت على شكل أماكن للمطالعة والرياضة.

يتألف الحمام من قسمين أساسيين، هما:

١- المبنى الأساسي: وهو بهو محيط بالعناصر المعمارية للحمام، يضم العناصر الأساسية، وهي: القسم البارد، والقسم الفاتر، والقسم الساخن.

٢- الفناء الخارجي: وهو السور الذي يضم مبنى الحمام والحدائق والخزان. وتتم عملية التدفئة بواسطة مرور الهواء الساخن بين الجدران المزدوجة و الأرضية المزدوجة أيضاً.

بنيت الحمامات من القرميد المشوي، وزينت الجدران الداخلية بالرسومات واللوحات، إضافة إلى وجود بعض التماثيل، أما الأسقف فهي على شكل قبب نصف كروية، ولها منافذ أسطوانية تساعد على عملية الإنارة وصعود البخار.

الحمامات الأموية:

تختلف الحمامات الأموية عن الحمامات الرومانية من حيث الأقسام الرئيسة الثلاثة: البارد فالفاتر فالساخن. وهذا ما نجده في حمام قصر الحير الغربي في سورية، فهناك قسمان رئيسان فقط هما البارد والحار.

أما في حمام قصر عمر الموجود في الأردن، فهو متأثر بنظام الحمام الروماني لانقسامه إلى ثلاثة أقسام، واستخدام القبب أيضاً في القسم الساخن، وهناك قبة رئيسة، بالإضافة إلى وجود الرسومات الجدارية، وعلى شكل لوحات تزيينية رائعة في غاية الدقة والإتقان.

❖ المجلة العربية العدد ٢٥٨ - رجب ١٤١٩ هـ الموافق نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٩٨م

الحمامات المملوكية:

حافظت الحمامات في العهد المملوكي على أشكالها وعناصرها الأساسية التي أخذتها عن الحمامات الرومانية، فانتشرت القباب ذات الفتحات الزجاجية المستديرة بالإضافة إلى الإيوانات والمصاطب. وخير مثال لحمامات العهد المملوكي هو حمام (يلبغا) الواقع في مدينة حلب وبالقرب من قلعتها الشهيرة.

واجهة مدخل حمام يلبغا المملوكية بمدينة حلب – تصوير: المؤلف.

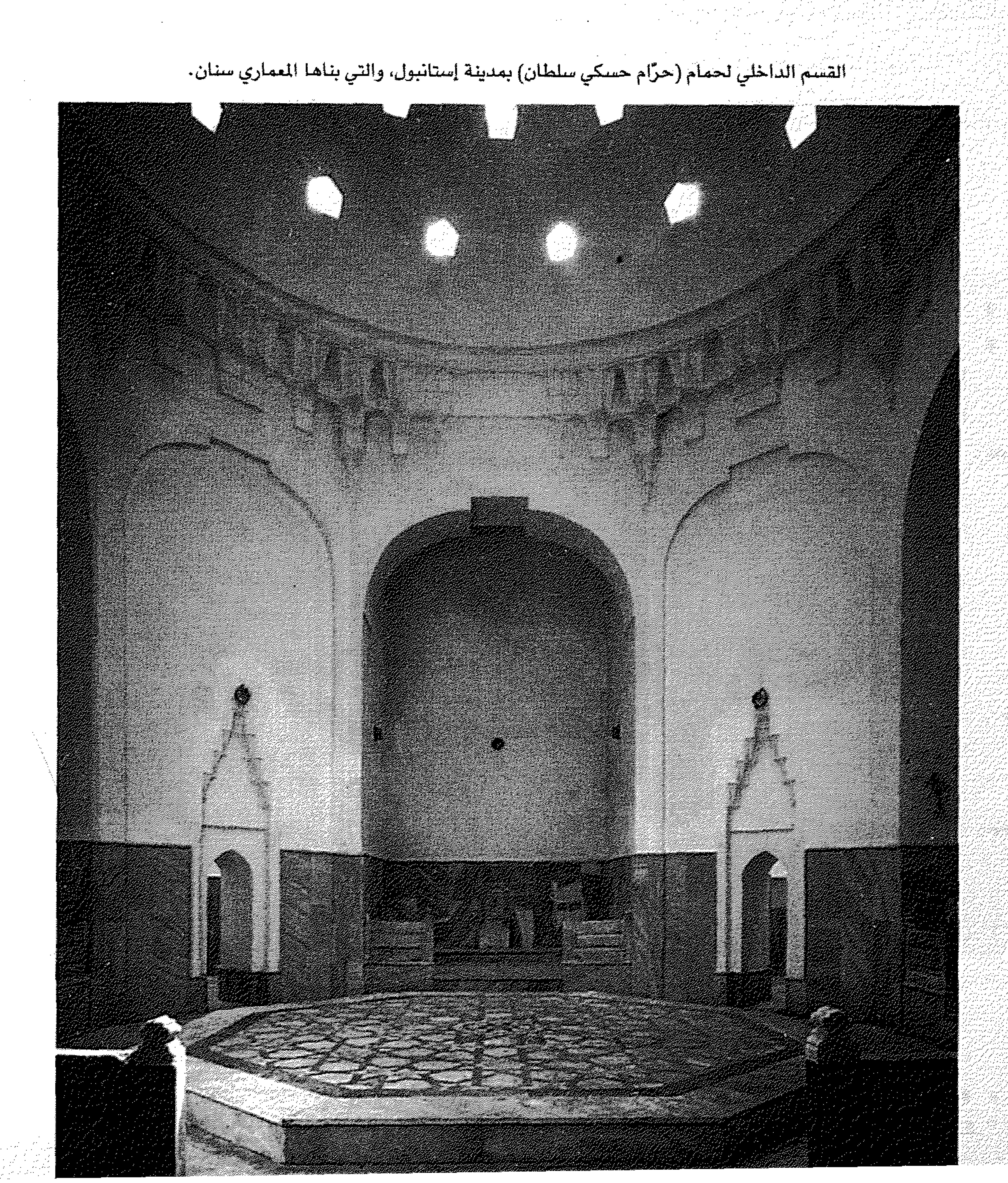


الحمامات العثمانية:

انتشرت الحمامات بكثرة في العهد العثماني، خاصة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، ويعود سبب انتشار الحمامات إلى سببين مهمين هما: توافر المياه المعدنية الطبيعية من جهة، والدين الإسلامي الحنيف الذي يعتمد مبدأ: أن النظافة من الإيمان.

تأثرت أشكال الحمامات بالعمارة البيزنطية، خاصة في أشكال القباب ذات الفتحات الزجاجية للإنارة والتهوية والموجودة في قمة القبة، وتحت

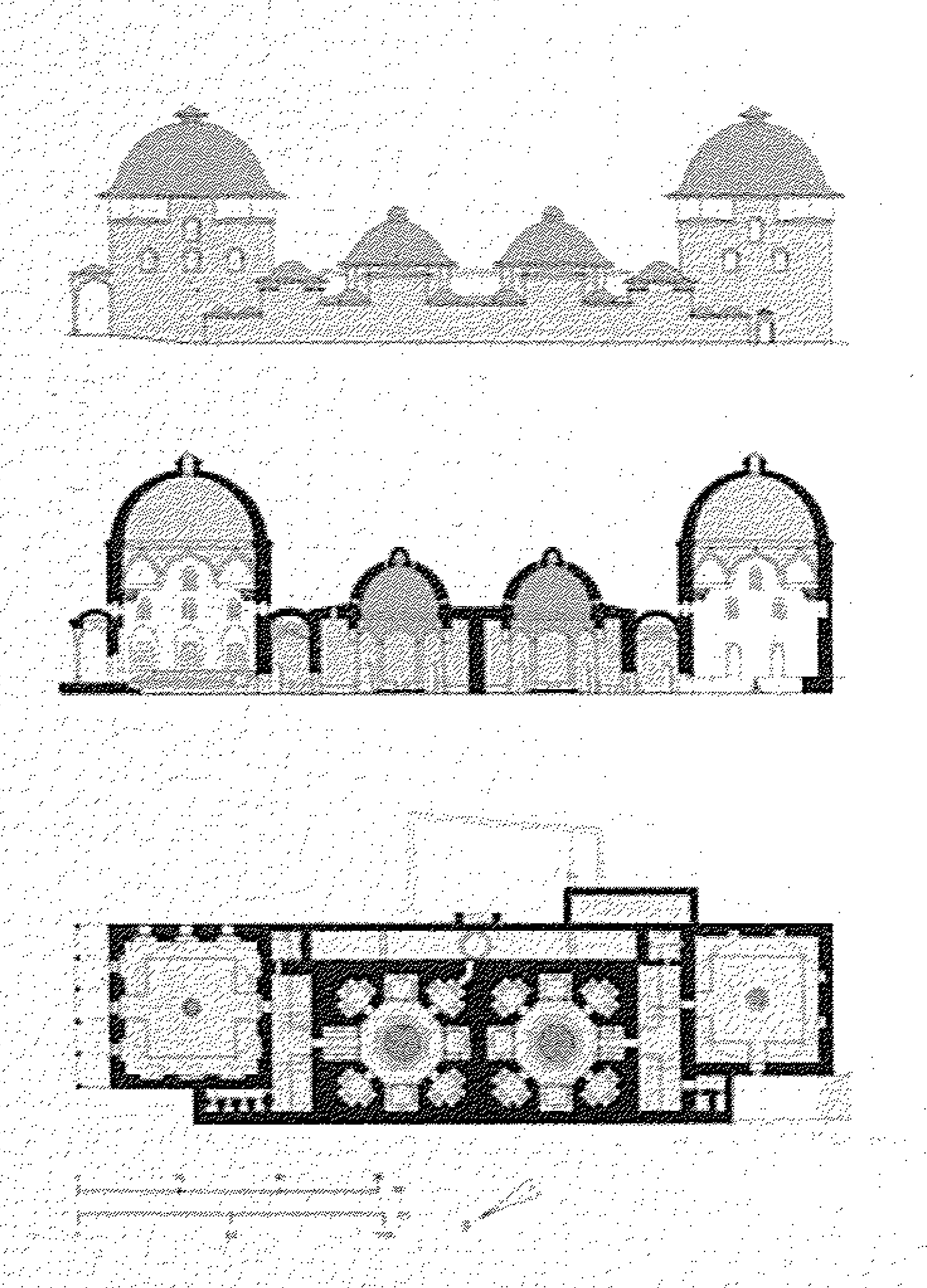
القسم الداخلي لحمام (حرّام حسكي سلطان) بمدينة إستانبول، والتي بناها المعماري سنان.



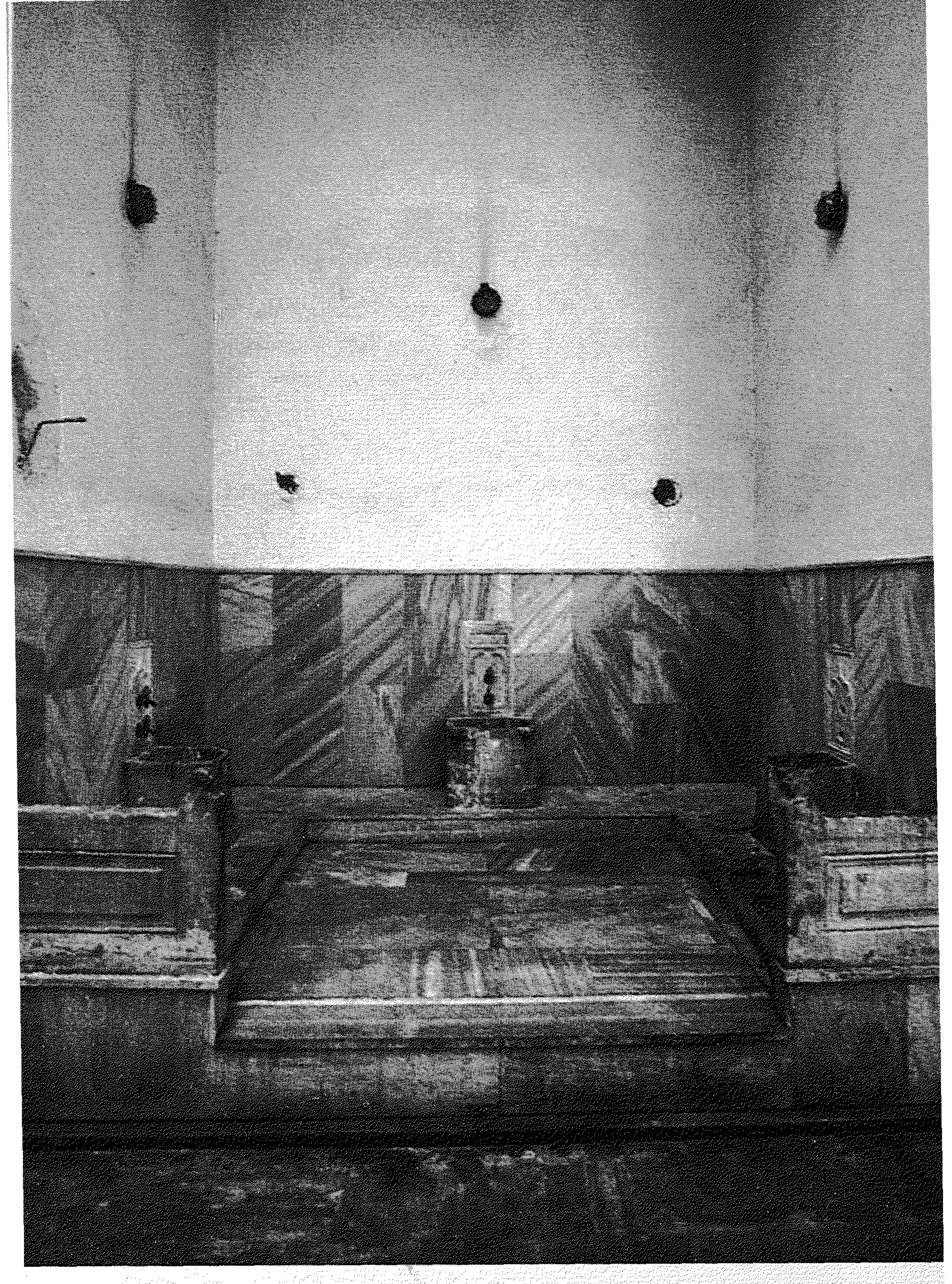
لقطة خارجية لحمام (حرّام حسكي سلطان) بمدينة إستانبول.

القبة مباشرة، هناك حوض ماء للسباحة أو على شكل تزييني، وفي بناء الجدران استعمل القرميد والحجر بشكل متتالٍ.

تتألف الحمامات العثمانية من ثلاثة أقسام أساسية، كما هي الحال في بقية الحمامات، وفي القسم البارد هناك المصطبات الخشبية للجلوس عليها قبل الاستحمام وبعده في القسمين الفاتر والحار. بالإضافة إلى استخدام الرخام الملون في الأرضيات والسيراميك والقاشاني في الجدران.



واجهة ومقطع ومسقط أفقي لحمام (حرّام حسكي سلطان).



مكان الاستحمام في حمام (حرّام حسكي سلطان).


سمة خاصة ومهمة في الحمامات العثمانية، وهي إنشاء حمامين بشكل مزدوج ومتلاصق، الأول للرجال، والثاني للنساء. يشترك بينهما جدار فاصل في القسم الساخن لكلا الحمامين، وعن أكبر الحمامات العثمانية التي بناها المعمار سنان عام ١٥٥٣م هو (حرّام حسكي سلطان)، الواقع في منطقة السلطان أحمد بمدينة إستانبول (القسطنطينية) عاصمة الدولة العثمانية، بالقرب من جامع أيا صوفيا.

عادات وتقاليد:

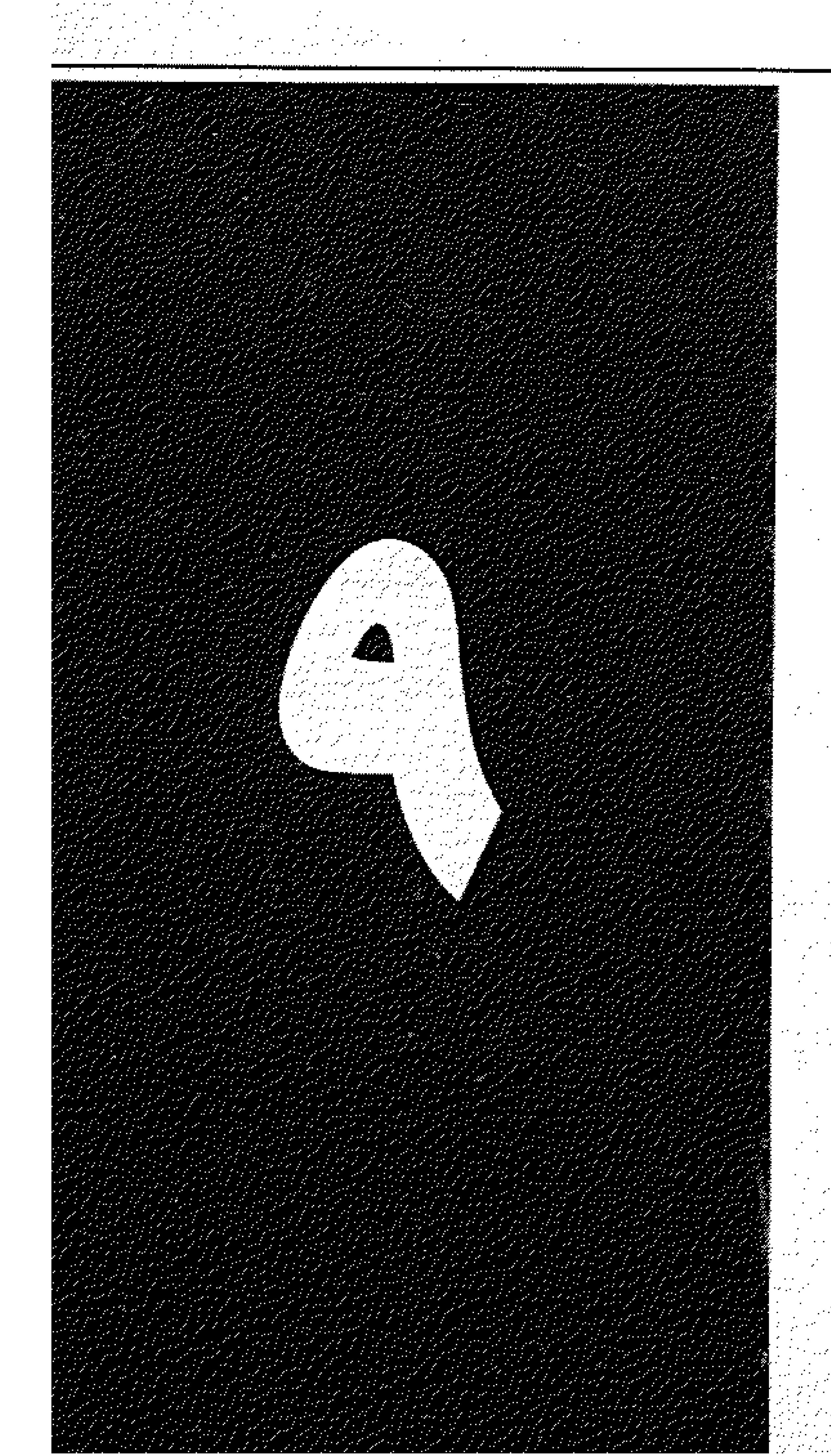
بعد أن عدنا إلى تاريخ الحمامات عبر عصور مختلفة ومتباينة، نصل إلى ذكريات لا تزال محفورة ومنقوشة على جدران الخواطر لتمثل أجمل اللوحات التاريخية لآبائنا وأجدادنا، فكان الحمام يعني المتعة والتسلية والسمر، ولم يقتصر على وظيفته فقط، بل كان مكاناً للقاءات النسوة، وقضاء يوم كامل في الحمام، ويأخذون معهم الصابون المعطر، وأحجار البيلون التي تستعمل لتقوية الشعر، أو الحنة والدريرة المعطرة، بالإضافة إلى الأطعمة والفواكة والحلويات، فيغتسلون ويغنون ويطربون، ثم يتناولون المأكولات.

وهناك مناسبات وأفراح تتم في الحمام، كأخذ العروس قبل زفافها مع الأقارب والأصدقاء ويحجز الحمام يوماً كاملاً لهم، وتعدّ الحمامات مكاناً مناسباً للأمهات في اختيار الزوجة الجميلة لابنها، وللرجال عاداتهم وسهراتهم في الحمام أيضاً.

وهكذا نجد أن الحمامات أخذت حيزاً مهماً من تاريخنا وعاداتنا الاجتماعية، وباتت هذه الأحداث ذكرى حلوة تتجدد بين الحين والآخر، ونحن نزور أحد الحمامات ليتجدد معها ارتباطنا الوثيق بحضارتنا العربية الإسلامية وبتقاليدنا الشرقية، على الرغم من انقراضها واندثارها، ما دامت الحمامات صامدة بصرحها العظيم أمام رياح التقدم والتقنية. . فاتحة أبوابها لكل زائر وباحث مشغوف بتاريخه، ومتمسك بجذوره الأصيلة والمتينة ليقضي فيها بضع ساعات من الأطلال والذكريات. .



مساكن ومساجد تشهد على عراقة العمارة الطينية



مساكن ومساجد تشهد على عراقة العمارة الطينية ❖

خلق الله تعالى الإنسان من مادة الطين: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذ أنتم بشر تنتشرون﴾ (سورة الروم- آية ٢٠). ويؤكد في آية أخرى لكل من أصابه الريب قائلاً: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب﴾ (سورة الحج- آية٥).

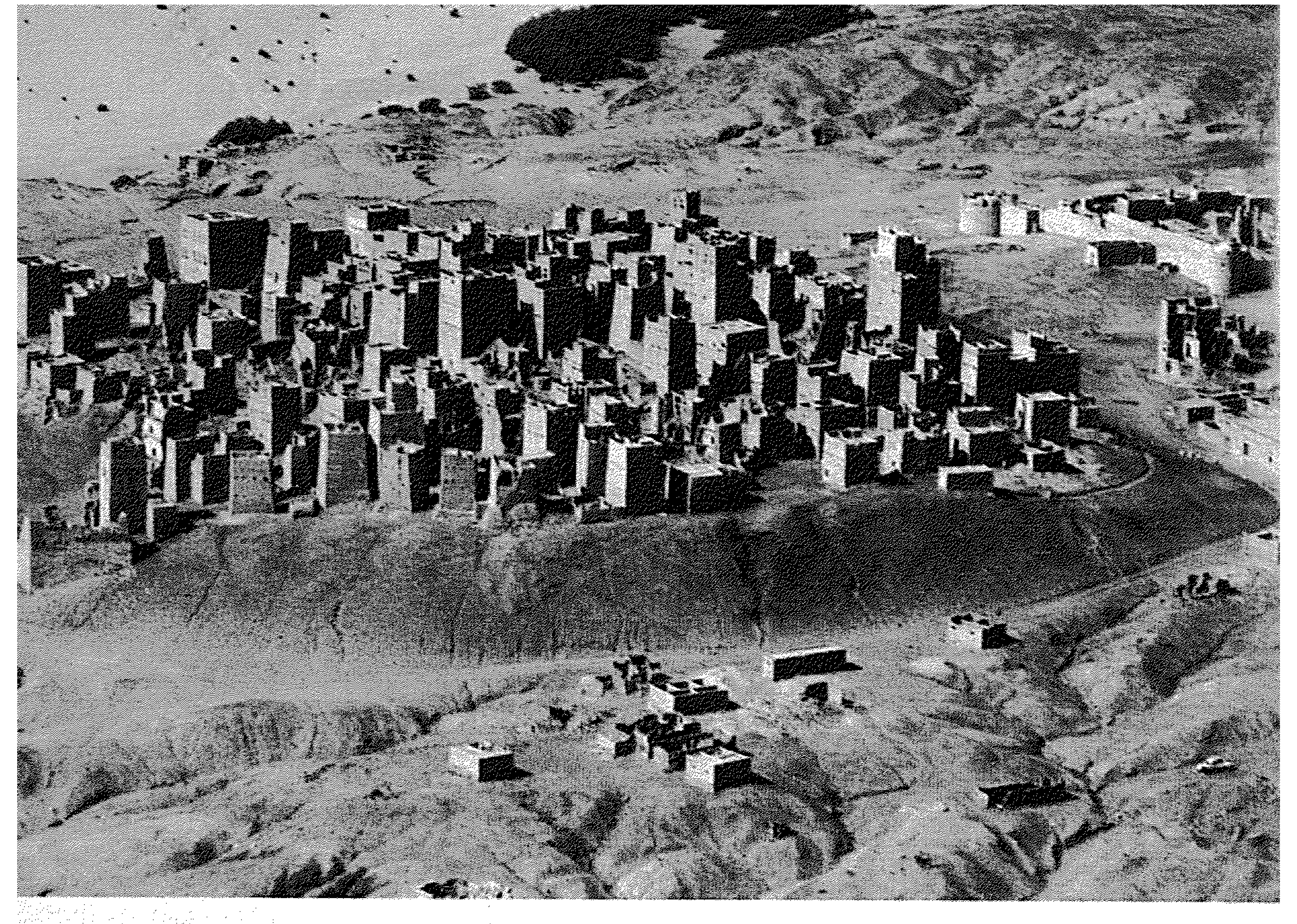
وقد اعتمد الإنسان على هذه المادة في إنشاء مسكنه البدائي قبل الميلاد بعشرة آلاف عام. تلك المادة التي ربطتنا بالحياة لتصبح مادة البيئة، صانعاً بها أجمل الأشكال المعمارية من مساكن ومساجد طينية، انتشرت في أرجاء عالمنا العربي والإسلامي.

الطين ودوره في الحضارة المعمارية:

بدأت العمارة الطينية بالانتشار والتطور لتأخذ مكانها اللائق بين المواد الإنشائية الأخرى، بعدما ساهم بعض المعماريين بتطويرها، والاعتماد عليها كمادة أساسية في إنشاء البيوت والمساجد، ومن ألمع هذه الأسماء، المعماري حسن فتحي، الذي تخصص في مجال العمارة الطينية، ليظهر مواهبه المعمارية فبأشكال هارمونية مع المنحنيات للقبب أو الأسقف.

ولم تقتصر عند هذا الحد، بل نالت العمارة الطينية مكانة مهمة في المسابقات المعمارية التي تعنى بالتراث وبحضارتنا المعمارية الإسلامية، وأهمها جائزة الآغاخان العالمية للعمارة الإسلامية. كما أثبتت العمارة الطينية جدارتها في أرجاء أفريقيا وبأشكال دافئة، مع التشكيل النحتي لها وبسطوحٍ مرنة.

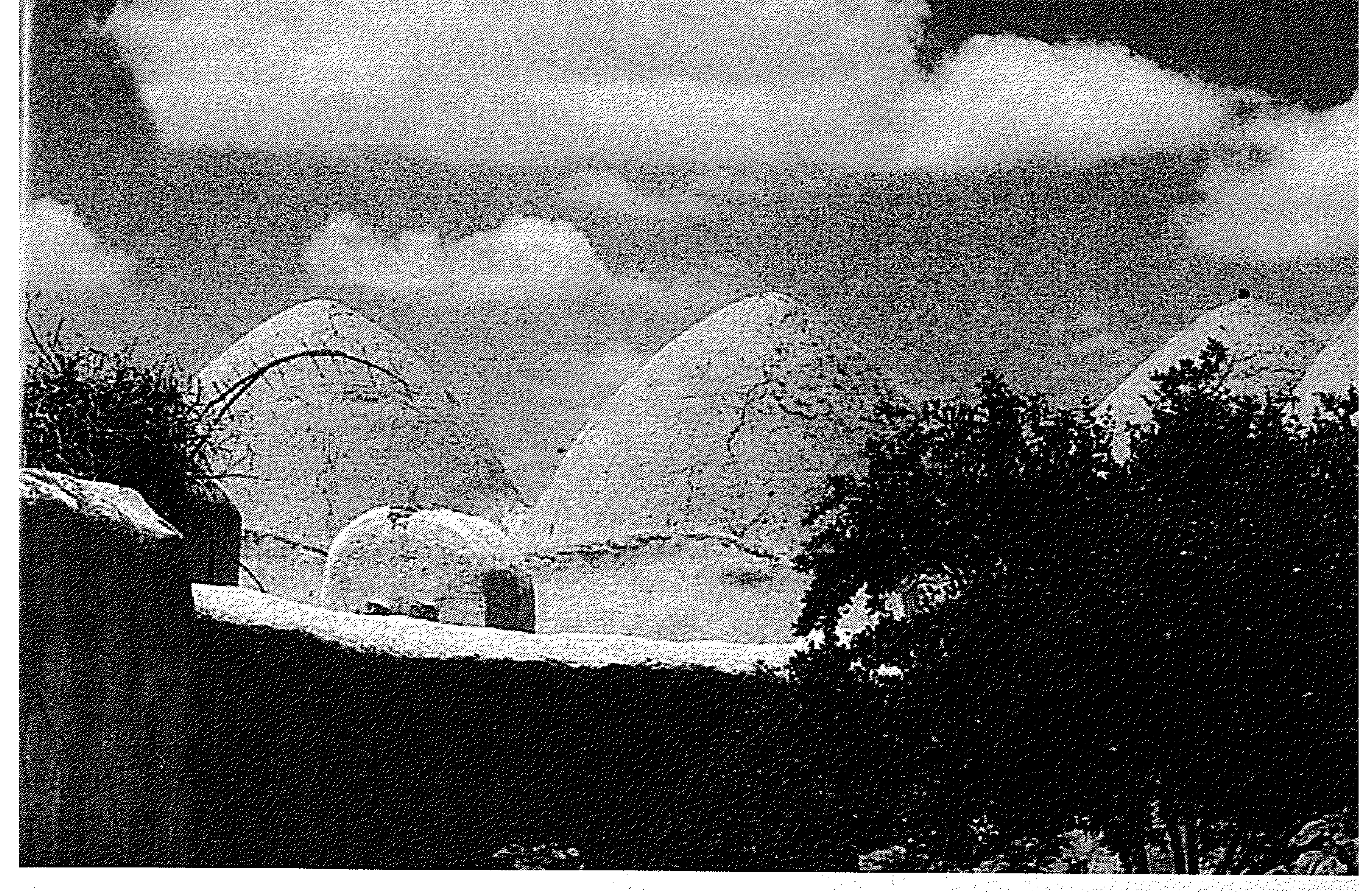
❖ صحيفة الحياة، العدد ١٣٣٢٢ - ١٨ جمادى الأولى ١٤٢٠ هـ، الموافق ٢٩ آب (أغسطس) ١٩٩٩م



الاعتماد على مادة الطين بتشييد بعض المجمعات السكانية في اليمن.

تاريخ مادة الطين:

اعتمد الإنسان على مادة الطين في السابق لتوفرها وسهولة معالجتها، وإذا أردنا العودة تاريخياً إلى هذه المادة، فيذكر الدكتور محي الدين سلقيني في كتابه (العمارة البيئية)، إذ يقول: (وفي أول شكل للتنظيم المدني عرفه كوكبنا، بنيت مدينة أريحا بالطين، وفي القرن السابع قبل الميلاد، بني من هذه المادة برج بابل بارتفاع يصل إلى تسعين متراً، ويعتبر كأول ناطحة سحاب بناها الإنسان، كذلك انتشر استعماله في حضارات ما بين النهرين ومصر الفرعونية، والحضارة الإسلامية، والرومانية، والهندوسية، وحضارة الهنود الحمر والمكسيك وغيرهم. . إذاً لقد استعملت عمارة الطين في نطاق واسع، والسر في ذلك هو ملاءمتها للظروف الاقتصادية والمناخية كما ساعدت عمارة الطين في تجسيد فنون الشعوب المختلفة في أشكال رائعة تعبر أولاً



نظام البيوت الطينية في قرى حلب، والذي يعود إلى العصور القديمة.

عن البدائية والغريزة الصافية، لقد استعملت هذه المادة ليس للسكن فقط، بل وفي الأبنية العامة والمدنية أيضاً، من مستودعات، مجاري، وأيضاً في الأهرامات، والأبنية المختلفة وغيرها ..).

الطين من الناحية الإنشائية:

بالطبع لا تملك مادة الطين صفة المقاومة أو القوة كباقي المواد الإنشائية الأخرى، مثل الصخر أو البيتون وغيره، ولا يمكنها مواجهة المطر أو الرطوبة أو الحت أو التعرية، لأنها مكونة من الرمل مع إضافة بعض الخلائط لتكون أشد متانة وقسوة.

كمادة إنشائية يمكن تصنيفها في نوعين:

- إما على شكل آجر طيني، وذلك بتجفيفه بالهواء والشمس.
- أو على شكل آجر مشوي ومجفف بالنار.

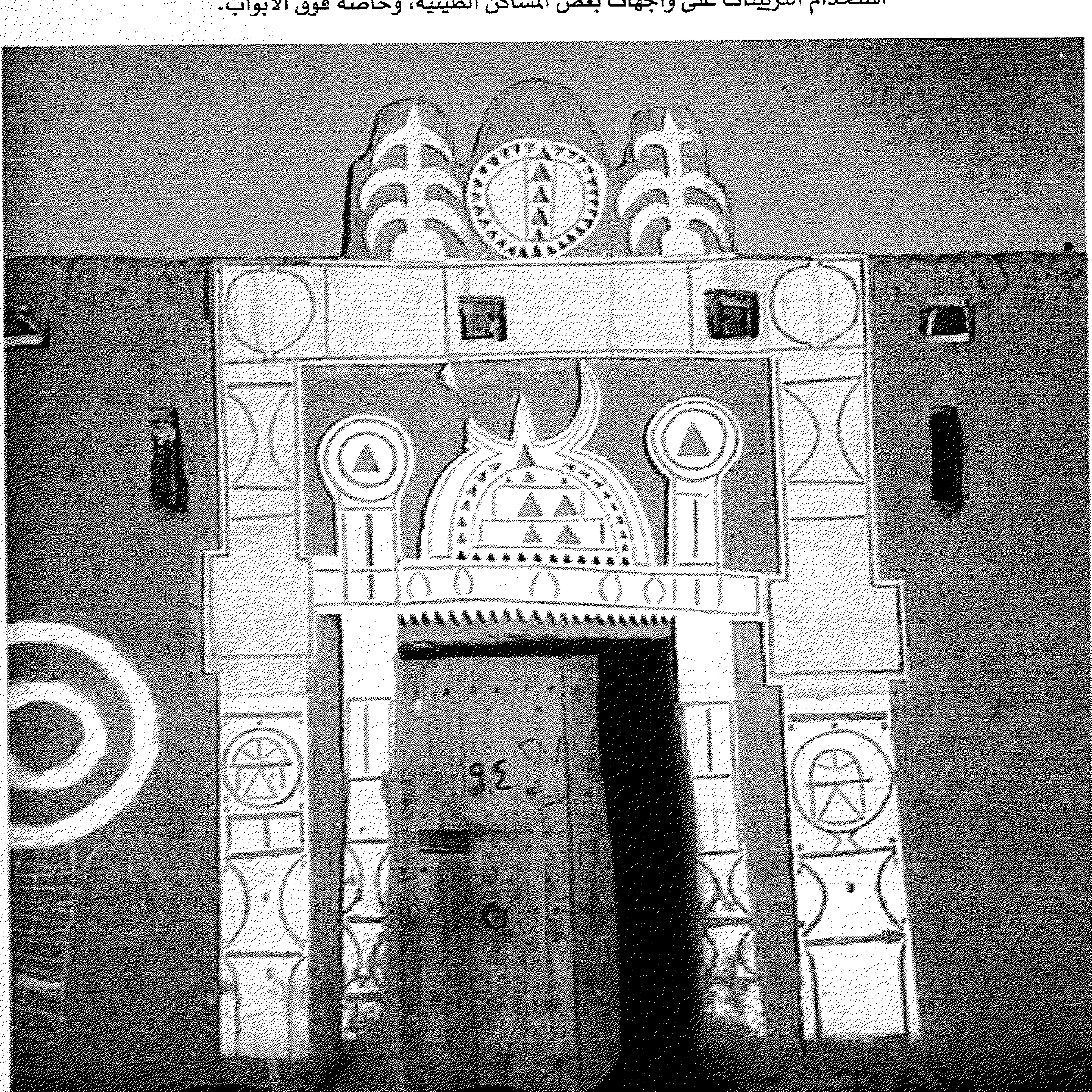
ويتم إضافة البيتون أو الألياف النباتية التي تساعد في عملية مقاومة


الرطوبة والحرارة، وتوضع ضمن قوالب بمقاييس عدة وفق الحاجة للمقاس المطلوب، ويمكن أن يستعمل الطين على شكل آجر في المبنى كناحية تزيينية في الواجهة ضمن هيكل خشبي متماسك، ويتم إملاء هذا الهيكل بالطين.

ولكن يبقى الطين متميزاً بإنتاجه المباشر والسريع، وبرخص سعره ملائماً للظروف الاقتصادية والمناخ لتحصل على شكل معماري فيه الفن واللون والشكل والبساطة.

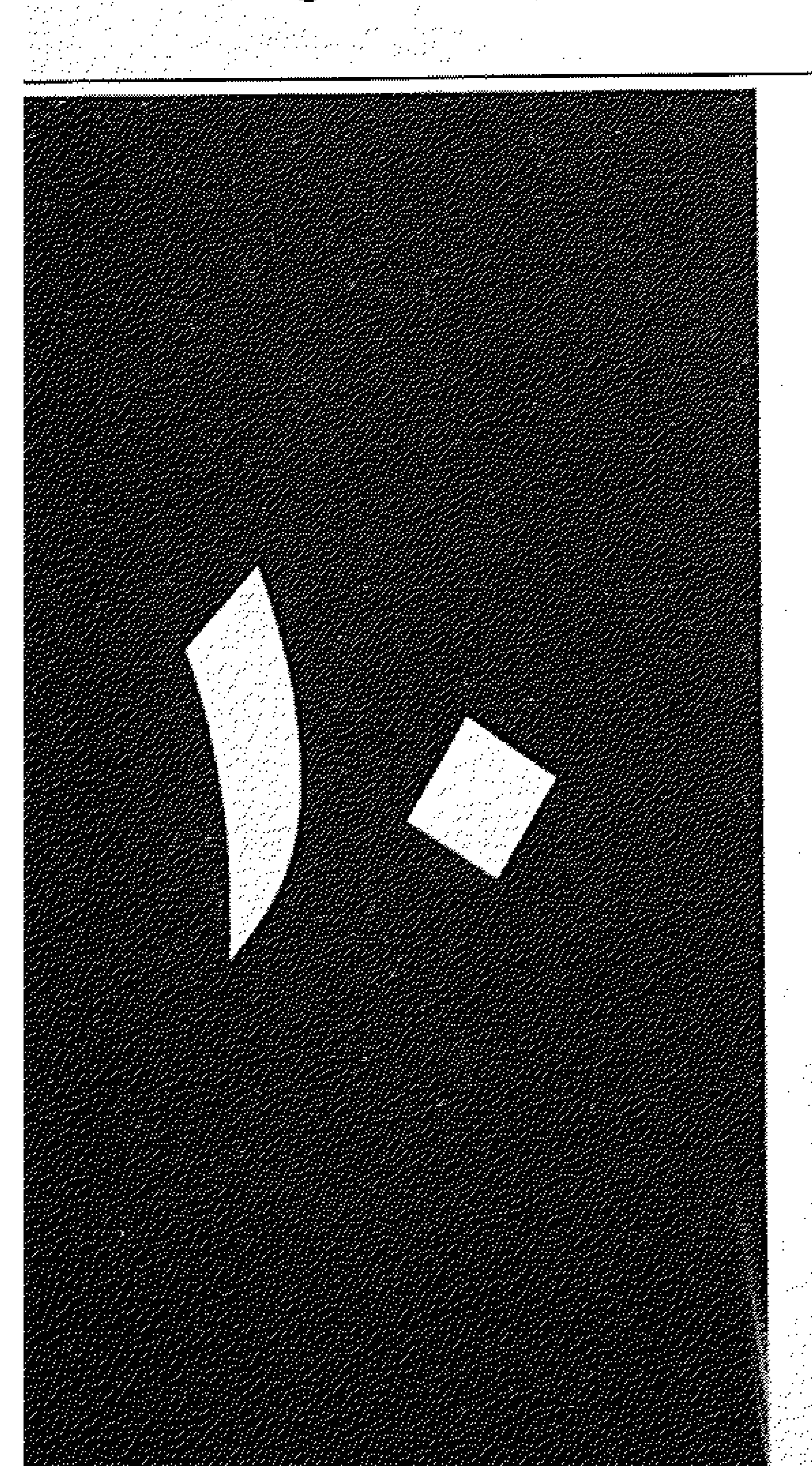
مع العودة إلى جذورنا، لكي نكون أشد تواصلاً بالبيئة، ولتوطيد العلاقة بين الإنسان والعمارة المعتمدة على المقياس الإنساني الذي صرنا نفتقده في الأشكال الأخرى للعمارة العالمية ذات التكنولوجيا والحداثة، فهذه دعوة لإحياء الطابع المعماري الشعبي مع تطويره والمحافظة على ما تبقى من آثاره وشواهده.

استخدام التزيينات على واجهات بعض المساكن الطينية، وخاصة فوق الأبواب.





نظرات في المدارس الإسلامية تاريخاً وعمارة



نظرات في المدارس الإسلامية تاريخاً وعمارة ❖

تحولت المساجد إلى أماكن علم ودراسة، بالإضافة إلى كونها أماكن تعبّد، ثم بدأت الكتاتيب بالانتشار، وهي أشبه بمعاهد لتعليم الصبيان، وهناك دور العلم والحكمة التي قام بإنشائها المسلمون، وتحتوي هذه الدور على مجموعات للكتب العربية أو المترجمة.

من أهم هذه الدور (دار الحكمة) في بغداد، التي بنيت سنة ١٨٥هـ (٨٠١م) بأمر من الرشيد، ثم تابع ولده المأمون سياسة والده في البحث والترجمة ليجعل منها مجمّعاً علمياً، وهناك أيضاً البيمارستانات التي كانت على شكل مستشفيات وأمكنة للقيام بالدراسات الطبية، ويرافقها قاعات لإلقاء المحاضرات ومكتبة تضم مجموعة من الكتب المتعلقة بخصوص الطب والصيدلة، كما أن أول بيمارستان أنشئ في الإسلام سنة ٨٦ هـ (٧٠٥م) بأمر من الوليد بن عبد الملك في مصر.

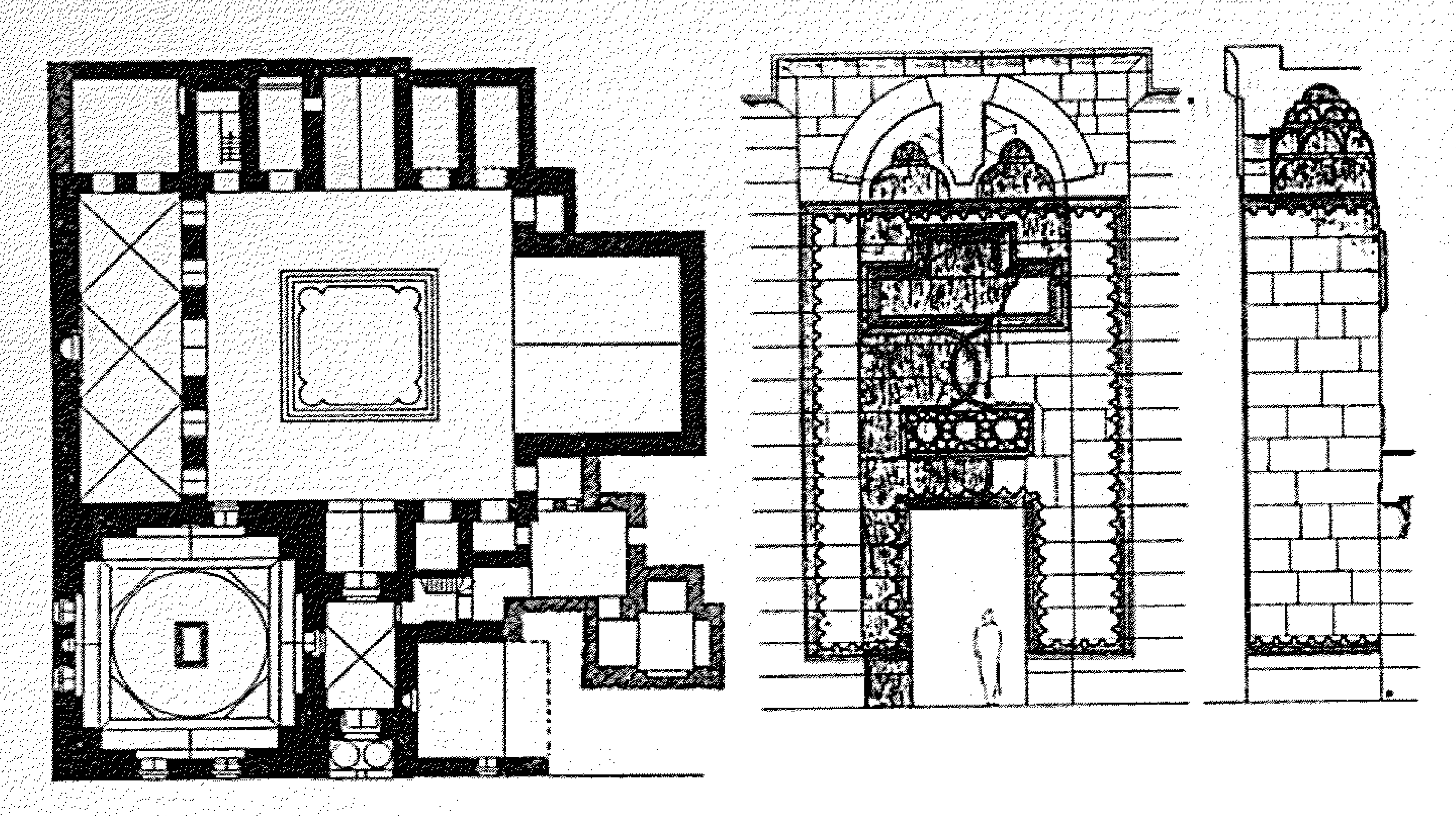
تحولت قصور الخلفاء أيضاً إلى مجالس أدبية وعلمية، تعنى بالشعر والتاريخ والعلوم الأخرى، خاصة في العصر الأموي والعباسي، ثم ظهرت المدارس المستقلة في بغداد مع مطلع القرن الخامس الهجري ليأخذ البناء استقلاليته من الناحية التصميمية والإنشائية.

وكان الوزير السلجوقي نظام الملك أول من أمر بتشييد المدارس في منطقة العراق، تلاه في سورية نور الدين الزنكي الذي أمر ببناء المدرسة النورية في دمشق عام ١١٧٢م.

الطراز المعماري للمدارس الإسلامية:

يذكر الدكتور كامل حيدر في كتابه (العمارة العربية الإسلامية في نشوء المدارس الإسلامية) نقلاً عن أحمد فكري في كتابه (مساجد القاهرة

❖ صحيفة الحياة، العدد ١٣٣٦٢ - ٢٩ جمادى الأخرة ١٤٢٠ هـ، الموافق ٨ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٩٩م.



مخطط واجهة المدرسة العادلية، ومسقطها الأفقي.

ومدارسها) أن للمدرسة المستقلة شروط خاصة من الناحية الإنشائية.

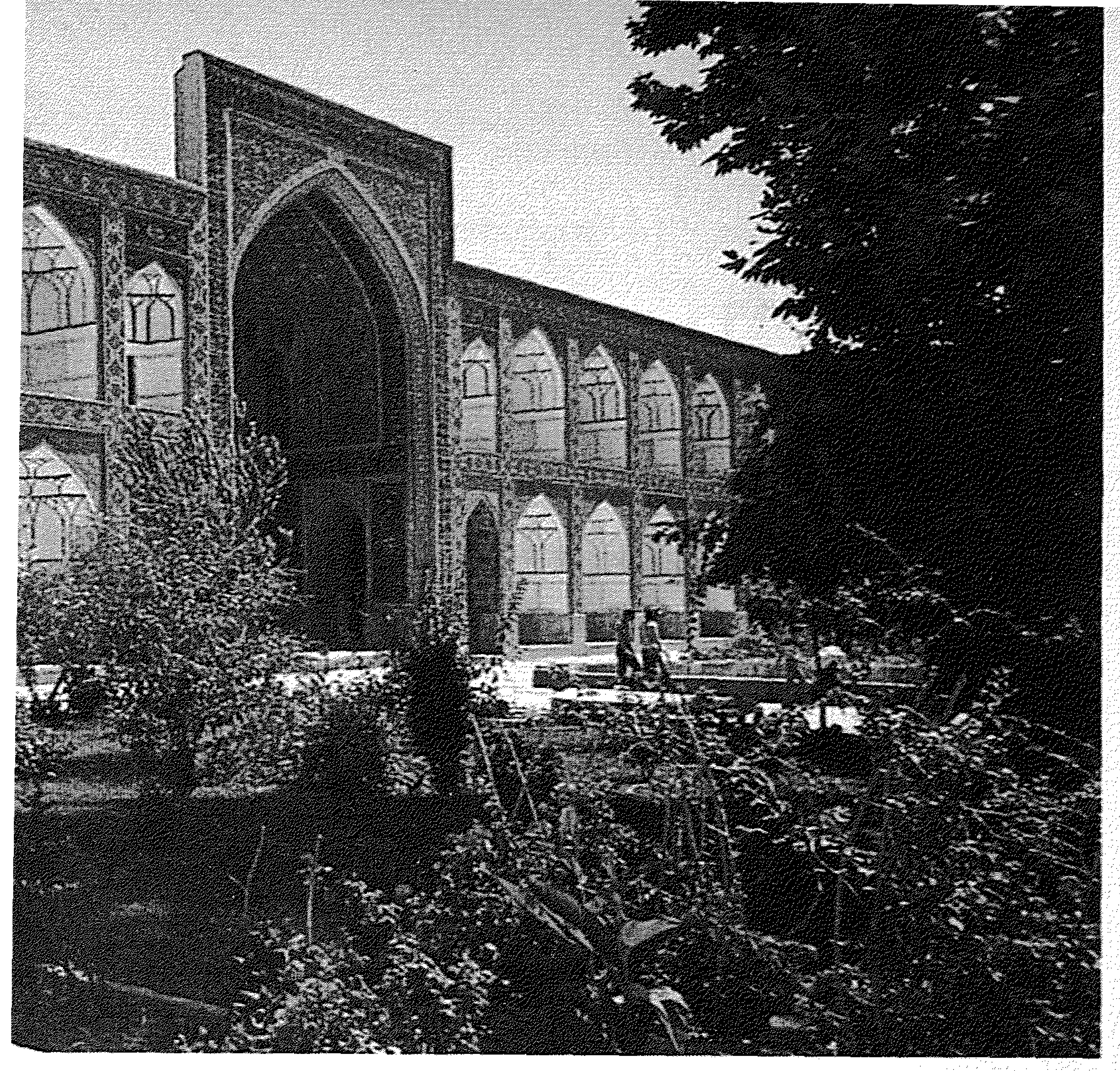
لهذا السبب نجد أن المعماري قد لاحظ تلك المسألة عند قيامه بتخطيط المدارس، وبوجود بيوت للعاملين والدارسين والمدّرسين في هذه المدرسة، بالإضافة إلى قاعات الدراسة وجميع المرافق الأخرى.

قام المعماري المصمم بعملية الربط بين جميع هذه العناصر (الأمكنة) وفق متطلبات المدرسة واحتياجاتها وأهمية كل مكان على حدة، وانفتاحها نحو فناء المدرسة.

يقتبس الدكتور حيدر نقلاً عن أحمد فكري (المرجع السابق نفسه) أن المواصفات التخطيطية للمدارس الإسلامية هي:

أولاً: أن جميع المدارس الإسلامية قد اعتمدت جدار القبلة قاعدة لتخطيط البناء بصفته الكلية، وأن حدودها الداخلية تنتظم في مستطيل أو مربع قائم على خط هذا الجدار.

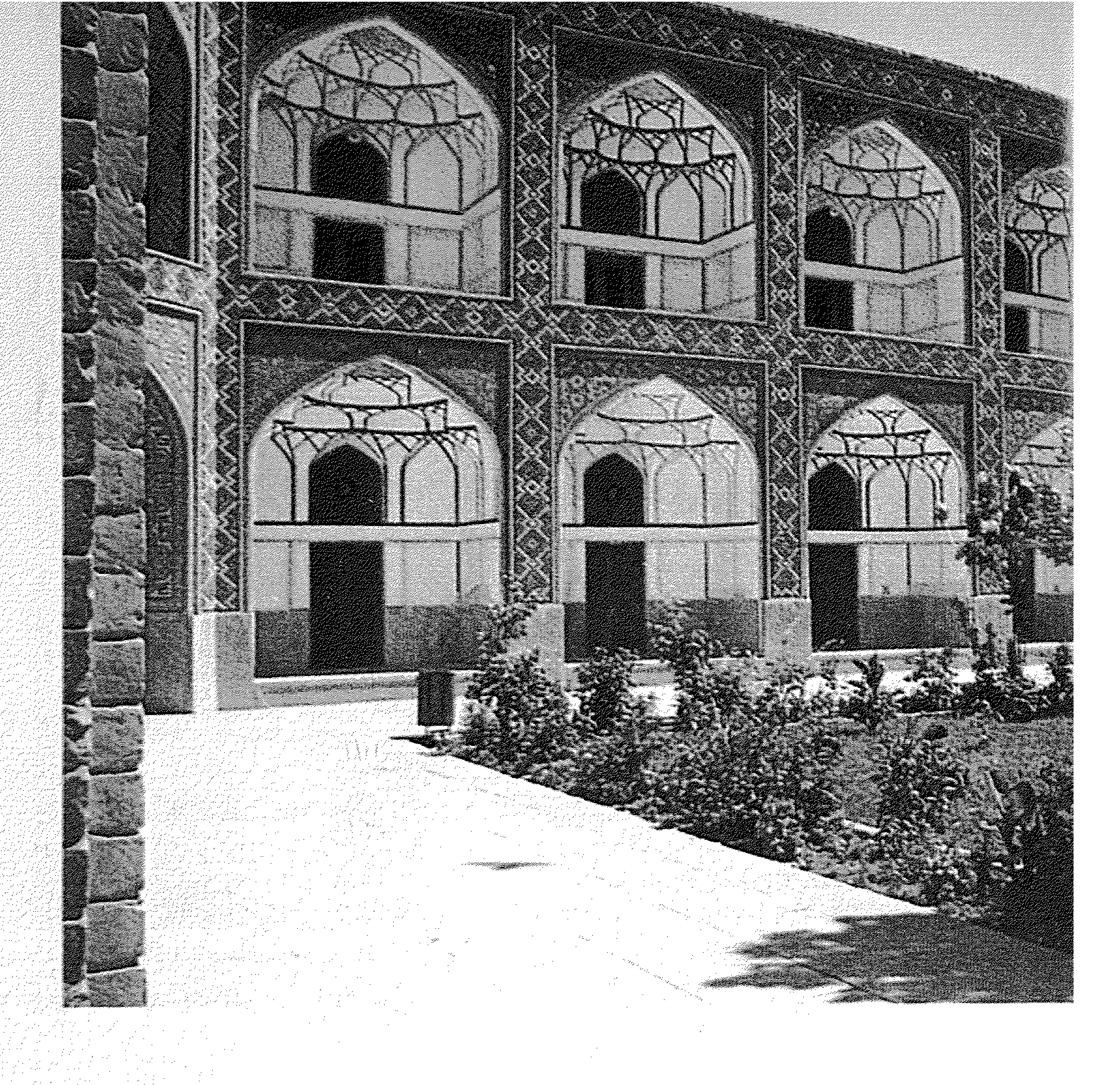
ثانياً: وجود بيت للصلاة في كل مدرسة، ويكون موقعه دائماً في الجهة القبلية من المدرسة، وهو أكبر قاعاتها أهمية واتساعاً، وغالباً ما يكون امتداده بموازاة جدار القبلة أطول من امتداده العمودي عليه.




مدرسة الشاه في أصفهان.

ثالثاً: يتوسط بناء المدرسة فناء مكشوف يسهم في إدخال الضوء والهواء إلى سائر المرافق الأخرى، ويكون شكله عادة مربعاً أو مستطيلاً، وموقعه دائماً خلف بيت الصلاة ليكون مكمّلاً له لكي يستوعب أعداد المصلين إذا دعت الحاجة أن تقام صلاة الجمعة داخل المدرسة، وهذا ما كان يتم في كثير من المدارس الإسلامية.

رابعاً: يحيط بالفناء الأوسط المكشوف أبنية مختلفة الأشكال والأحجام تشتمل على جميع مرافق المدرسة من قاعات وحجرات وغرف صغيرة، وهذه الحجرات والغرف تتوزع في طابق واحد، ومعظمها من طابقين، وقد جعلت



بيوتاً للسكن، ويتفاوت عددها من مدرسة الى أخرى، ولكنه يتناسب مع حجمها ومع سعة بنائها وبيت صلاتها، أما القاعات الفسيحة فقد صممت كي تتناسب مع الغرض الذي أعدت له لكونها قاعات للدرس ومخازن مختلفة وقاعات جلوس المدّرسين والنظار والمشرفين، وتضم كل مدرسة من هذه المدارس مباني داخل حدودها، أو في جانب من جوانبها، أو ركن من أركانها تصلح مطبخاً ومخبزاً وحماماً وغير ذلك من المنافع العامة، وتحتوي معظم المدارس أيضاً على أواوين تراوح من واحد إلى أربعة، وذلك حسب تخطيط المدرسة وسعتها.



المدرسة المستنصرية، أحد أهم المدارس العباسية.

أشكال المدارس الإسلامية:

على الرغم من الاختلاف العام للمدارس الإسلامية المبنية خلال عدة عهود مع تباين الشروط المناخية والبيئية، وفي المواد الأولية، إلا أنها تحمل سمة معمارية مشتركة من حيث المخطط المعماري الذي منحها شكلها الرئيس.

نجد المدارس السورية قد تأثرت بالعمارة الأموية، واستخدام الحجارة كمادة أساسية في الإنشاء، وانتشار الأقواس النصف دائرية أو المدببة، والأقواس التي على شكل حدوة الفرس.

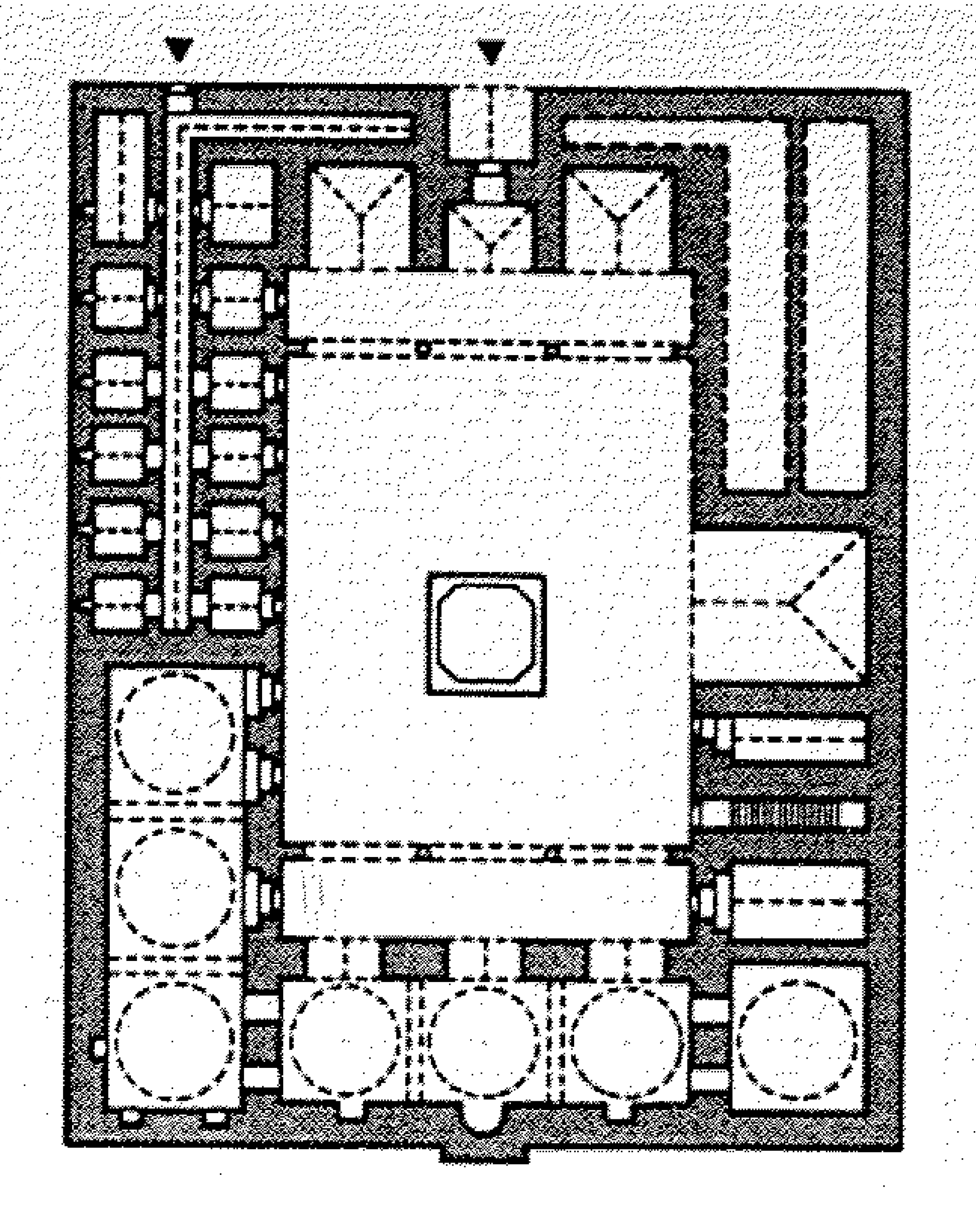
أما عن المدارس العباسية، وأهمها مدرسة المستنصرية التي بناها المستنصر بالله سنة ٦٢٥هـ (١٢٢٧م)، فتميزت باستخدام الآجر الأصفر كمادة أساسية وبأشكال وحجوم متعددة.

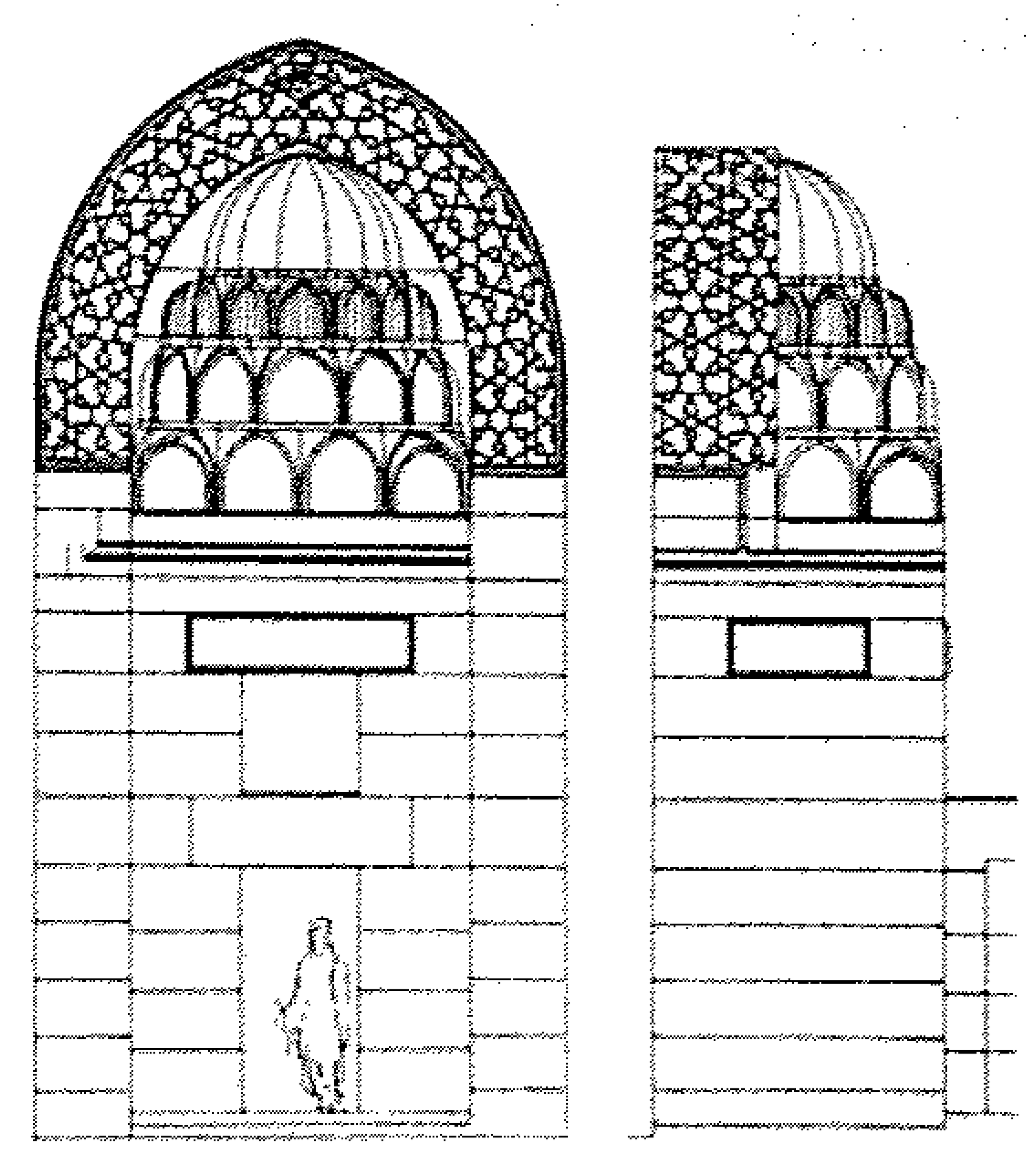
بالنسبة إلى المدارس العثمانية، نلاحظ تأثرها بالعمارة البيزنطية المنتشرة في مدينة إستانبول (القسطنطينية) من الناحية الإنشائية، وخاصة في طريقة بناء القباب الرئيسة الكبيرة، التي تحيط بها أنصاف قباب ومن دون الاعتماد على الأعمدة في حمل القبة أو الأكتاف. ولكن جميع هذه المدارس تحمل عناصر معمارية واحدة، فلكل عنصر وظيفة خاصة به، بالإضافة إلى العلاقة التي تربط بين جميع هذه العناصر وفق أهميتها.

العناصر المعمارية للمدارس الإسلامية:

لجميع المدارس الإسلامية العناصر المعمارية نفسها التي سندرسها كلاً على حدة، ولكنها تختلف في المساحة العامة للمدرسة، أو في الطريقة الإنشائية.

١- المدخل: تتعدد المداخل في المدارس الإسلامية، فتصل أحياناً إلى خمسة مداخل، كما في المدرسة المستنصرية، ولكن هناك مدخل رئيسي ذو بروز ودعامتين على جانبي المدخل، أو أن يكون للمدخل عقود مدببة وزخارف نباتية، تدلنا على درجة الاهتمام بمدخل المدرسة من الخارج.





المسقط الأفقي ومخطط لواجهة المدرسة الظاهرية، وتعرف باسم السلطانية نظراً لأن الملك غازي الذي توفي سنة ٦١٣هـ - ١٢١٥م قد دفن فيها. وهي مدرسة للمذهب الحنفي والشافعي.

٢- الفناء الوسطي: هو ساحة مكشوفة مربعة أو مستطيلة تحيط بها المشتملات الأخرى من كل الجهات، وذلك لإدخال الضوء والهواء إلى جميع المشتملات (باقي العناصر المعمارية للمدرسة الإسلامية).

٣- الأروقة: نجد توزع الأروقة وإحاطتها للفناء من جهاته الثلاث باستثناء الجهة القبلية موزعة في الطابقين، ويستند الرواق على ثمانية أكتاف مع انتشار المقرنصات لأروقة الطابق الأرضي كي تزيده جمالاً وعناية، غير أنه لا تشترط أن تنتشر الأروقة في جميع المدارس الإسلامية المنتشرة في عالمنا الإسلامي الرحب.

٤- الإيوان: وهو مستطيل الشكل، يتوسط المبنى بزخارفه ونقوشه البديعة وسقفه المرتفع وانفتاحه على الفناء، ويمكن أن يكون في المدرسة أكثر من إيوان.

٥- القاعات: تتعدد القاعات في المدارس الإسلامية، ويوجد عادة قاعة رئيسة ذات جدران عالية تصل إلى مستوى ارتفاع طابقي المدرسة، تحمل هذه الجدران قبة نصف كروية، والقاعة هي مكان تدريس، ومع انفتاحها على الفناء، الا أنها تكون بعيدة عن الضوضاء.

٦- الحجرات: للحجرات شكل مستطيل أو مربع، وتتفاوت مساحة الحجرات فيما بينها، مع اختلاف وظائف كل حجرة عن الأخرى، وهي مكان نوم، أو غرف للمشرفين أو المشايخ.


٧- المسجد: لكل مدرسة مسجد موقعه في الجهة القبلية، كما ذكرنا سابقاً، لأداء الصلوات الخمس فيه.

٨- المكتبة: خصصت إحدى القاعات القريبة من قاعات الدراسة والإداريين لحفظ عدد من الكتب القيمة لتكون مرجعاً للطلبة بإشراف الإداريين للاستفادة من هذه المراجع في دراساتهم.

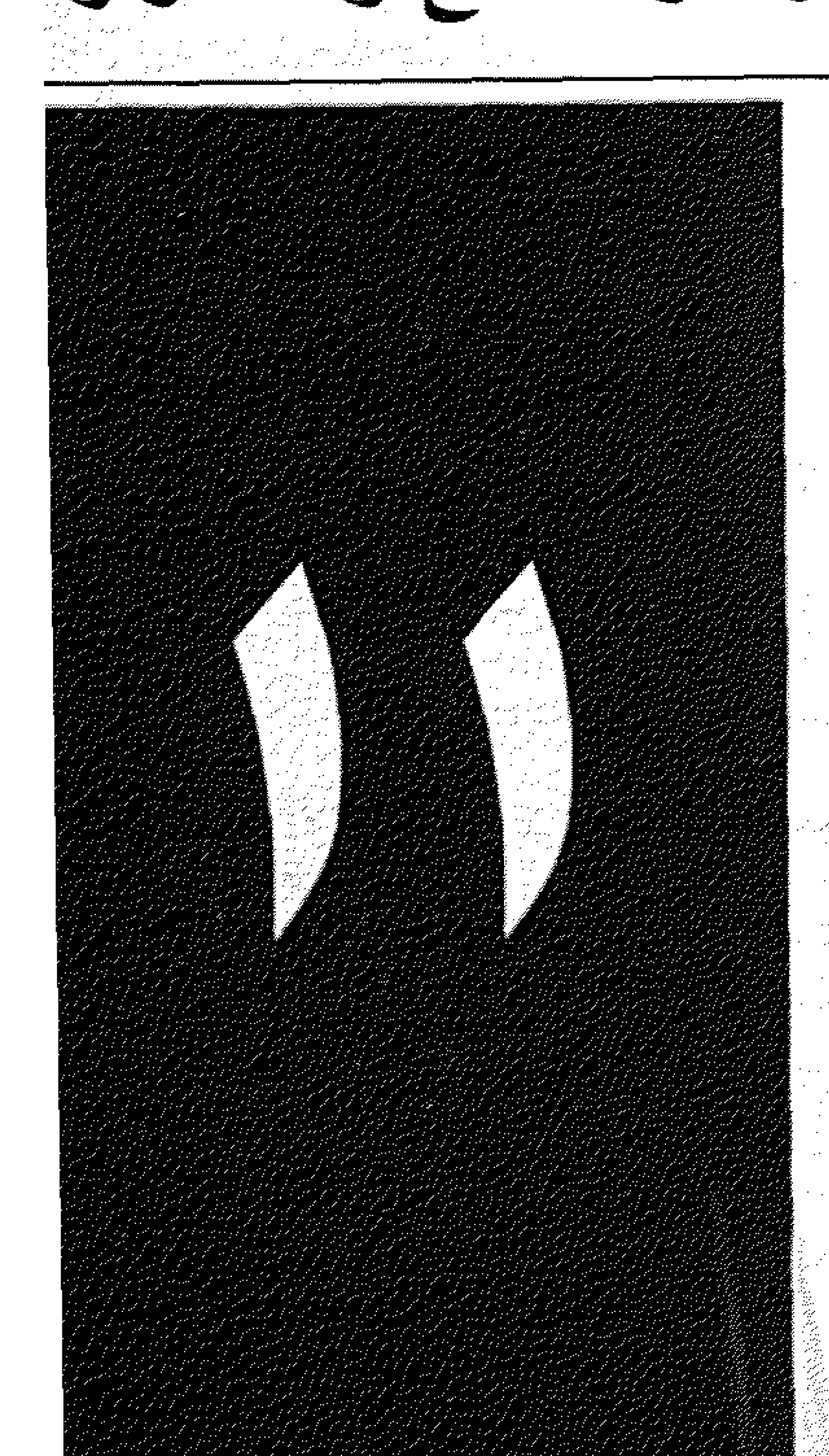
٩- الدهليز: يفصل الدهليز بين القاعات الكبيرة ومجموعة الحجرات.

١٠- المرافق الأخرى: لكل مدرسة مطبخ ومطعم ومخزن لوضع المؤن والأثاث أدوات الأكل، ويجب أن تكون مساحة المخزن كبيرة، وهناك مرافق صحية للحمام والوضوء.

بهذا نصل إلى نتيجة مهمة هي أن العرب قد اهتموا بمكانة العلم، وعملوا على تطويره في جميع فروعه واختصاصاته، وخير دليل على ذلك، بالإضافة لما خلفوه لنا أجدادنا من كتابات وبحوث قيمة تدّرس إلى الآن في الغرب، تلك المدارس العظيمة التي خرجّت أجيالاً مثقفة وعلماء وأطباء ومهندسين وأدباء وشعراء وكتاباً ورجال دين وفقه، بقي معظمها صامداً ومتماسكاً إلى يومنا هذا في أرجاء عالمنا العربي والإسلامي.



تاريخ العمارة العسكرية بين الحصون والقلاع والأسوار



تاريخ العمارة العسكرية بين الحصون والقلاع والأسوار ❖

تعتبر العمارة العسكرية أحد أهم أنواع العمارة الثلاث: (المدنية، والدينية، فالعسكرية). وقد ظهرت مع إنشاء المدن ذات الأسوار الدفاعية، والأبراج المستديرة أو المربعة. خاصة وأن الأمة العربية قد خاضت حروب عدة وخضعت لهجمات دائمة.

فالسمة العامة للعمارة العسكرية مشتركة بين جميع الحصون والقلاع التي شيدت خلال قرون عدة بأسوارها المرتفعة ذات الخنادق العميقة المحيطة بها, إضافة للسقاطات، وهي على شكل فتحات فوق البواب أو في الأبراج لرمي الأعداء ولسكب الزيوت المحرقة.

ظهر مع السقاطات المداخل المنكسرة التي تعيق حركة المهاجمين في تحطيم باب السور، وذلك لضيق المساحة وحصرهم بين المدخل والجدار المقابل له للتمكن منهم والسيطرة عليهم وضربهم بالسهام، لهذا برع المعمار العربي في تصميماته وبتحقيق عملية التناسق بين جميع العناصر المعمارية لقيامها بوظيفتها ضمن قالب إسلامي متناسق ودفاعي مدروس.

أنواع وعناصر القلاع:

للقلاع ثلاث أنواع:

أولها: المتربعة على الهضاب أو المرتفعات.

ثانيها: القلاع ذات الخنادق.

ثالثها: تحمل كلاً من الصفتين بآن واحد.

أما عن عناصر القلاع، فهي الأبراج المرتفعة والمستديرة التي تساعد في عملية المراقبة، إضافة للسقاطات والأسوار، وتتحول القلعة لمدينة صغيرة لاحتوائها على الجامع والحمامات والقاعات والصالات، والسجن المحفور تحت الأرض لرمي الأسرى فيه، ويتم النزول إليه بواسطة درج ضيق ومتعرج.

❖ مجلة الحرس الوطني، العدد ٢٠٩ - شعبان ١٤٢٠ هـ، الموافق نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٩٩م

وهناك السراديب والمتصلة بخارج أسوار القلعة لتأمين الأغذية والمؤون في حالات الحصار، أو للهروب والتسلل، علماً أن معظم القلاع خضعت لتعديلات وإضافات وفق العهود التي مرّت بها.

العمارة العسكرية في ظل الحضارة الإسلامية:

منذ بدايات الدعوة الإسلامية التي قام بها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم خضع ديننا الحنيف لضغوط ومصاعب محاولة أن تقف حائلاً في وجه التيار الإسلامي القوي، مما عزز فكرة الإعداد العسكري لخوض معارك عدة، هدفها نشر الدين الإسلامي العادل، ومحاربة الكفار والمشركين.

بدأ يتطور هذا النظام العسكري أيام عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبى سفيان ثم بدأ العباسيون بإنشاء القلاع والحصون لمواجهة هجمات الروم، وقام الصليبيون بإنشاء القلاع والحصون أيضاً لتقيهم من هجمات الجيوش العربية الإسلامية.

لهذا. كان الموقع الإستراتيجي ذو الإطلالة والإشراف من أهم سمات القلاع بشكل عام، إضافة للمساحات الكبيرة داخل القلعة والتي تضم الزاد والعتاد، وللمواشي والمعدات.

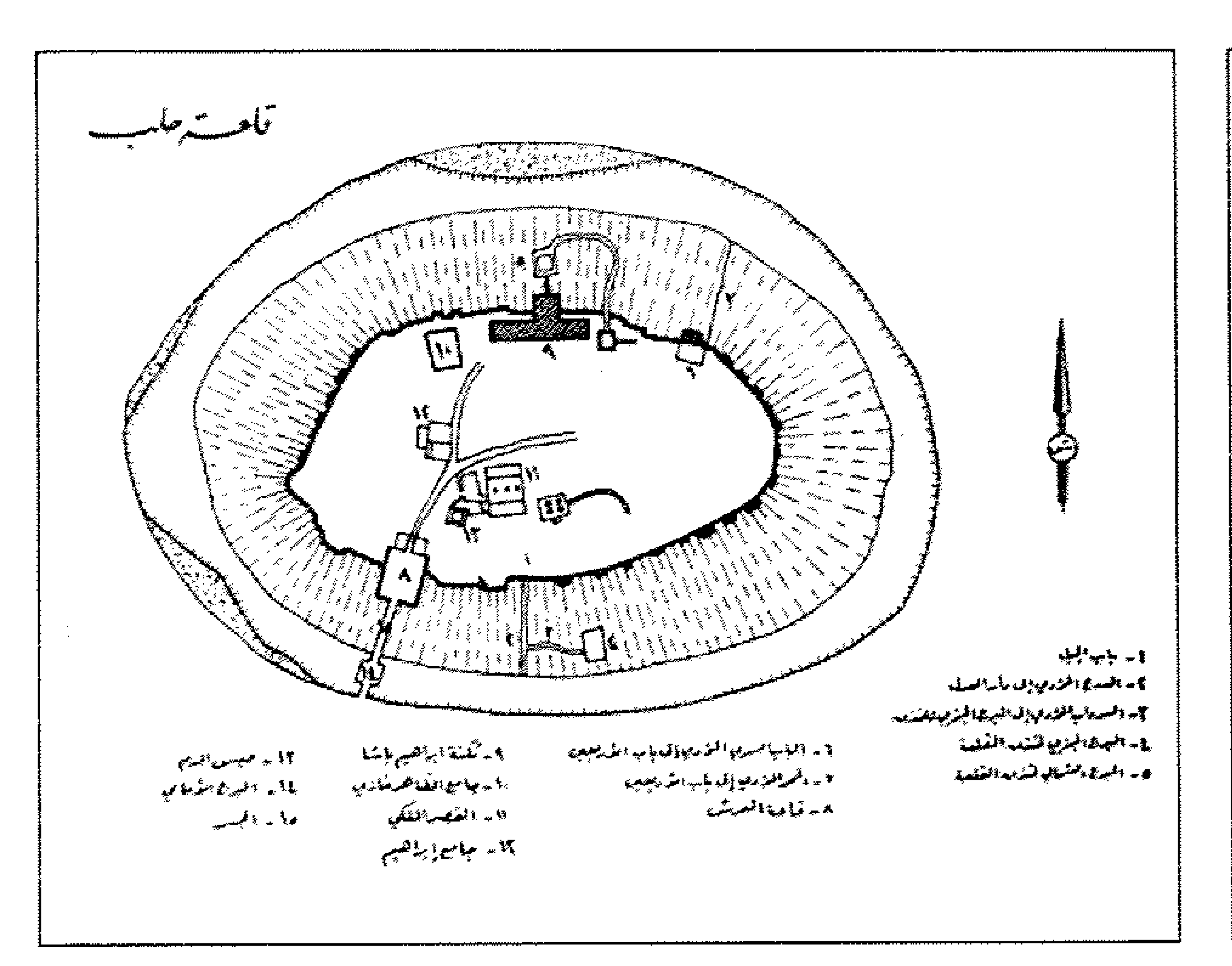
وفي القرن الثالث عشر الميلادي مرّت القلاع بمرحلة تطور، وذلك بإنشاء المرافق داخل القلعة لتتحول إلى مدينة مصغرة كما ذكرنا سابقاً. ولا يزال إلى يومنا هذا العديد من القلاع والحصون التي بناها أجدادنا العرب، أو خضعت لفتوحات الجيوش العربية الإسلامية، ووقعت تحت سيطرتها في منطقتنا العربية من المحيط إلى الخليج، تلك المنطقة التي كانت مسرحاً لأحداث وحضارات عدة، توجت بانتصار القادة العظماء أمثال: الخلفاء الراشدين، وأمثال خالد بن الوليد، وصلاح الدين الأيوبي، وطارق بن زياد، وغيرهم من القادة العرب الذين دخلوا بوابة التاريخ بانتصاراتهم المجيدة ليعززوا حضارتنا العربية الإسلامية.

وسندرس عدة نماذج من القلاع في عالمنا العربي والإسلامي لنتعرف عن كثب على تاريخ أجدادنا وعلى تاريخ قلاعنا وآثارنا.

قلعة حلب:

تتربع قلعة حلب الشهباء على تل طبيعي في مركز المدينة، لتشرف على جميع أنحاء المدينة، وتقوم بدور الحارس اليقظ، إذ ترتفع عن مستوى سطح الأرض بحوالي ثمانية وثلاثين متراً، مما يجعلنا نشاهد القلعة في أي اتجاه نقصده.

أسوار وأبواب حلب.



مسقط أفقي لقلعة حلب.

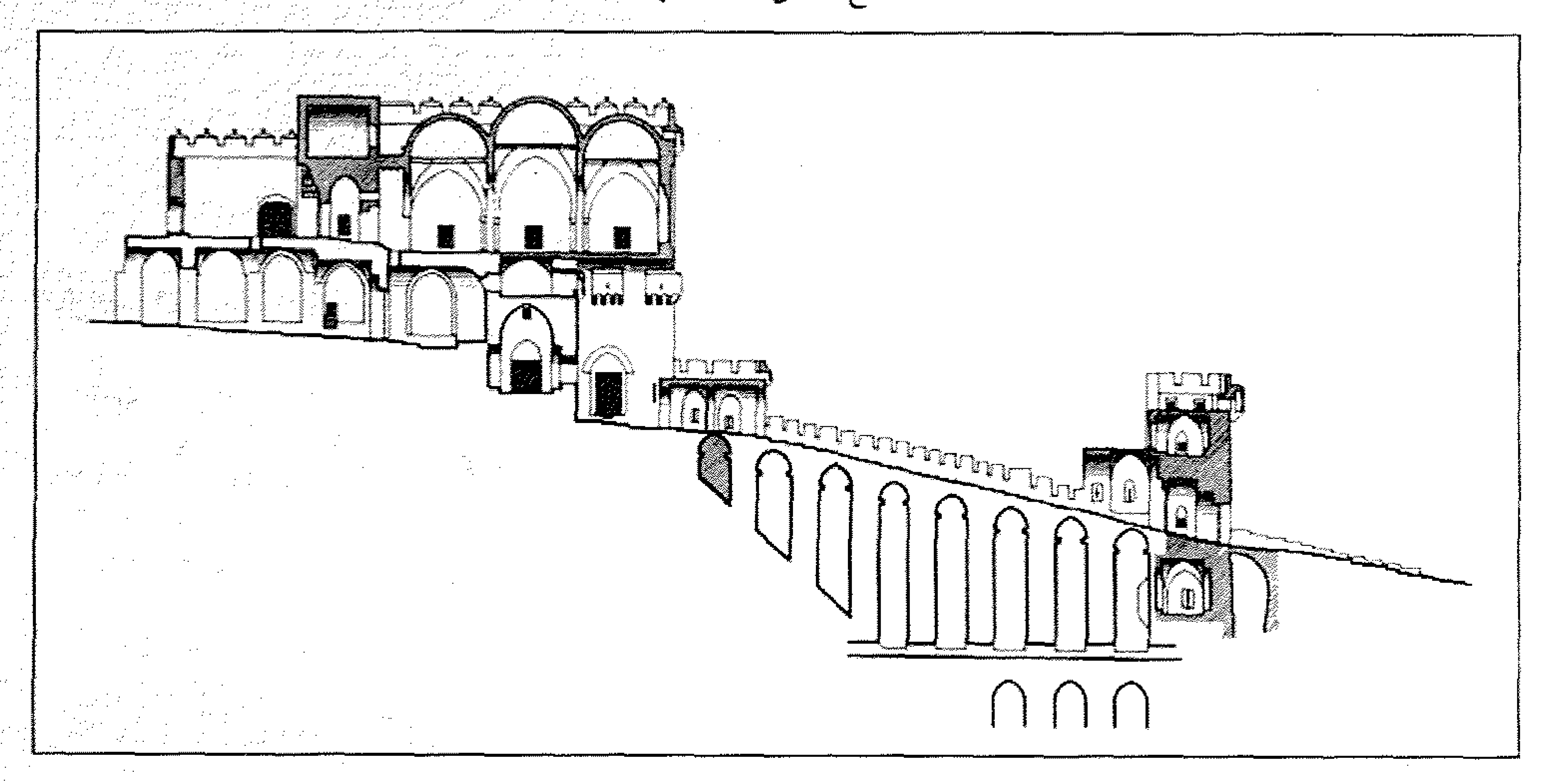
يعود تاريخ بناء قلعة حلب للألف الثاني قبل الميلاد، وهناك آثاراً حثية، إلا أن الآثار التي بقيت إلى يومنا هذا أيوبية ومملوكية وعثمانية رافقها بعض التجديدات والإضافات للأبراج والأبواب.

شكل القلعة إهليلجي، ويحيط بها خندق، كانوا يملئونه بالماء في حالة الحروب والحصار، ويتم الدخول إليها عن طريق مدخل أمامي ذو برج بشرفات دفاعية وكان في السابق أيضاً درج خشبي متحرك يربط بين المدخل الأمامي والخندق، قابل للرفع في حالات الحرب، ثم تحول لدرج حجري ثابت.

عندما نصعد الممر الرئيسي باتجاه القلعة نلاحظ المدخل المنكسر كي يعيق العدو في تحطيم الباب، ولحصر المهاجمين بين المدخل والجدار المقابل له ولسكب السوائل المحرقة عبر السقاطات التي تعتلي المدخل، لرميهم بالسهام.

ندخل البوابة الرئيسة ونحن صاعدون نحو الأعلى عبر البهو المسقوف، علماً أن للسقف فجوات لصب الزيوت الحارقة على العدو في حالة اقتحامه البوابة الرئيسية، وللقلعة ثلاثة مداخل متتابعة وعلى محاور عدة ومختلفة، لتساعد في تأمين الحماية لسكانها.

مقطع لمدخل قلعة حلب.



مشهد عام لقلعة حلب من الجو.



عندما نصل لفناء القلعة نشعر وكأننا في مدينة أخرى لوجود الحمام الملكي وقاعة العرش، إضافة للجامع والصالات والقاعات الأخرى والسجن العميق الذي يرمى في ظلماته السجناء ومن الأعلى، ويمكن النزول إليه بصعوبة عبر درج متعرج. وهناك سراديب متصلة من القلعة لخارجها، ولا يزال البحث والتنقيب مستمر إلى يومنا هذا.

إن السمة الدفاعية متكاملة لأبعد حد، ومدروسة دراسة معمارية رائعة، تثبت لنا براعة المعماري العربي بتصميماته ومخططاته.

أبواب حلب وأسوارها:

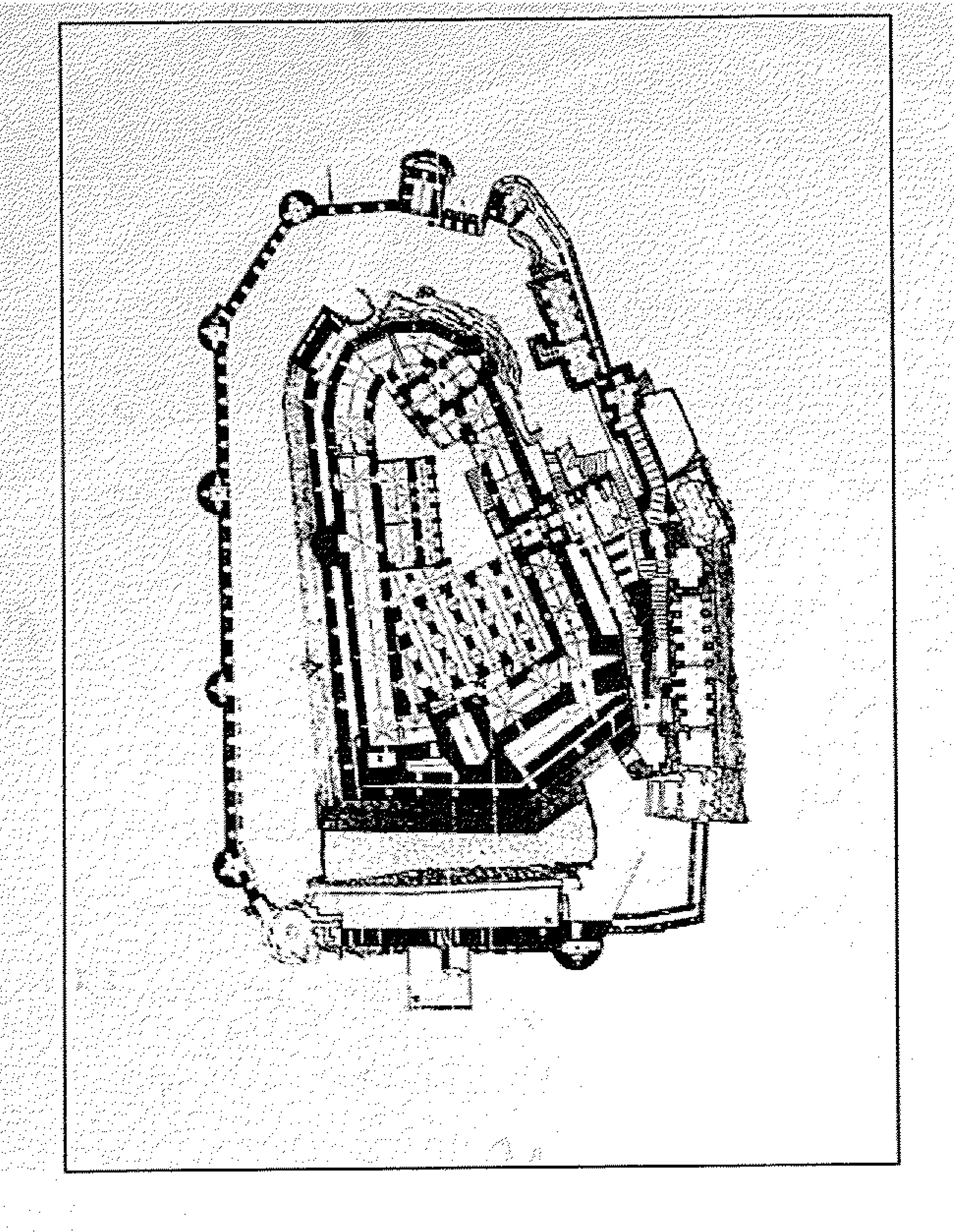
إن الموقع الجغرافي والإستراتيجي لمدينة حلب جعلها مركز اهتمام منذ القدم، فبنيت الأسوار والأبراج ضمن مراحل عدة. خاصة بعد الفتح العربي الإسلامي لها في عهد السلطان نور الدين زنكي، وما تبعه من سلاطين، حيث وصل عدد الأبراج إلى مائة وثمانية وعشرين برجاً خضعت فيما بعد للهدم إثر الهجمات والمعارك التي مرت على مدينة حلب الشهباء.

اشتهرت مدينة حلب أيضاً بأبوابها المحيطة بها، إلا أن معظم هذه الأبواب رافقها الهدم، ولم يبق منها سوى البعض، مثل: باب قنسرين، وباب إنطاكية، وباب الحديد، وباب النصر، ويتألف الباب من طابقين أحياناً، وبغرف للعتاد والذخيرة أو للجنود، إضافة للأبراج الدفاعية والفتحات والسقاطات كما هو عليه الحال في القلاع، لأن الغاية الدفاعية واحدة، والمبدأ التصميمي مشترك بينهما.

قلعة الحصن:

تتميز قلعة الحصن بإطلالتها الواسعة وموقعها المرتفع ذو القاعدة الصخرية البركانية، مما جعلها مركز اهتمام من قبل الصليبين، فاستولوا عليها عام ١١١٠م، إلى أن سقطت بيد الملك الظاهر بيبرس عام١٢٧١م.

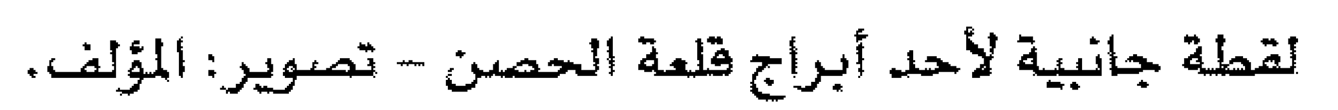
للقلعة سورين، داخلي وخارجي، ولأسوارها أبراج مرتفعة ومتعددة، كما أنها تشبه قلعة حلب في خندقها المحيط بحصنها الخارجي ذو الأبراج



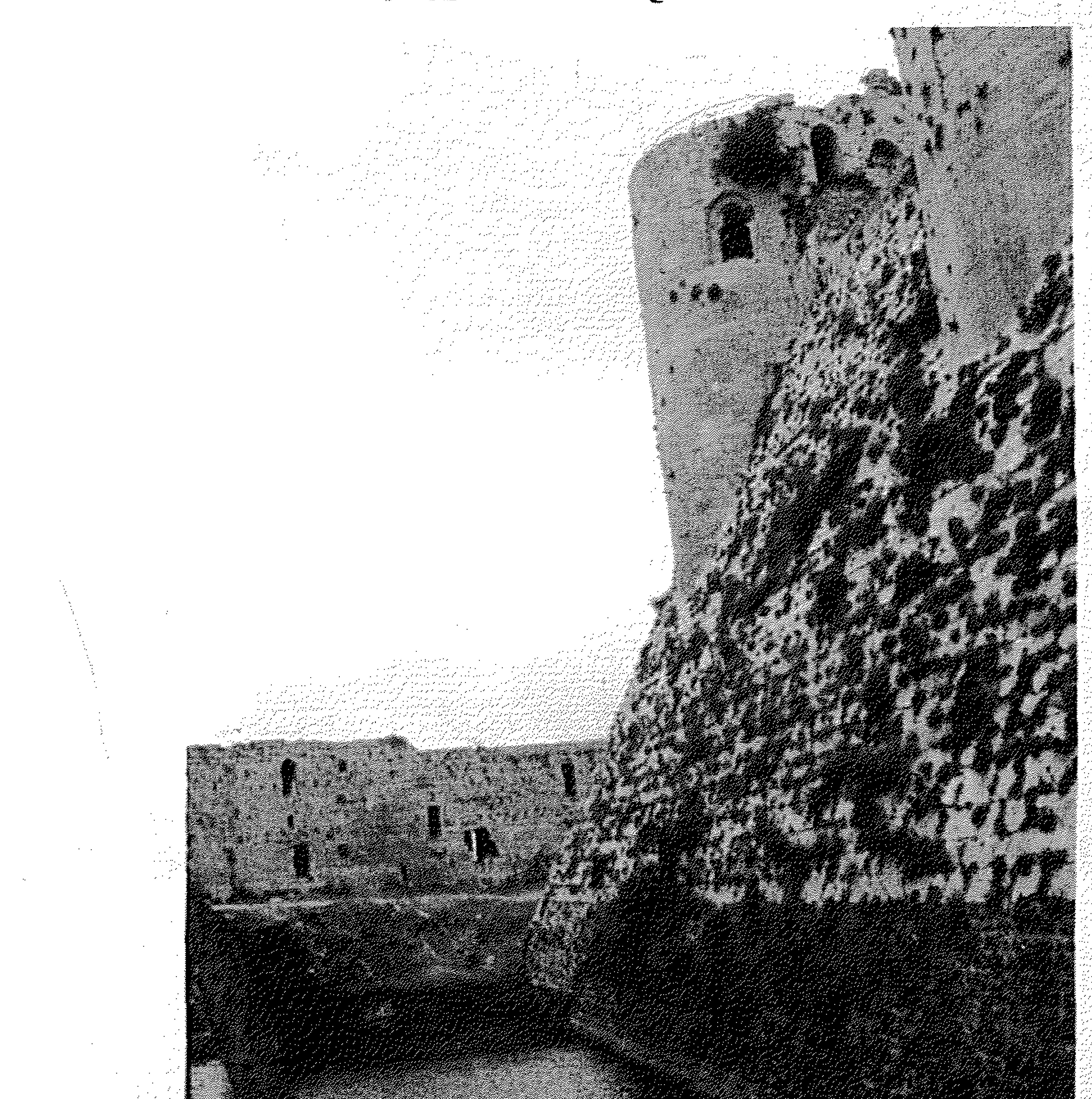
مخطط قلعة الحصن.

مشهد عام لقلعة الحصن من الجو.

استخدام الأشكال الهندسية الدائرية في قلعة الحصن - تصوير: المؤلف.



لقطة جانبية لأحد أبراج قلعة الحصن - تصوير: المؤلف.



الثلاثة عشر، وبابها الرئيسي ذو الجسر المتحرك الذي كان يرفع في حالات الحصار والحرب، إلا أنها تختلف عن قلعة حلب بتعدد أبوابها.

أما عن حصن القلعة الداخلي فهو على شكل طابقين يحتوي على المستودعات والقاعات، إضافة للغرف والصهاريج التي تتجمع فيها مياه الأمطار.

تشغل هذه القلعة مساحة تصل إلى ثلاثة هكتارات، وقد بقيت إلى يومنا هذا محافظة على أصالتها وعظمتها، خاصة أنها مبنية من الحجر الكلسي ذو الأحجام الكبيرة.

القلعة الرومية: (Rumeli Hisari)

تقع القلعة في القارة الأوروبية من مدينة إستانبول، وللقلعة أبراج عدة، البرج الأول ذو الأضلاع الاثنا عشر والمسمى بخليل باشا، قطر هذا البرج (٢٣,٣٠) متراً، وارتفاعه عن سطح الأرض (٣٥,٢٥) متر. وهناك برج أعلى منه يسمى صاروجا باشا، قطره (٢٣,٨٠) متراً، وارتفاعه (٢٨) متراً، على اليسار برج ثالث يدعى بظانوس باشا، قطره (٢٦,٧٠) متر، وارتفاعه (٢١) متر، وبين هذه الأبراج الثلاثة الكبيرة ثلاثة عشر برج صغير.

عندما نبحث عن تاريخ هذه القلعة يتبين لنا أن السلطان محمد الفاتح الذي قام بفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م، أمر بإنشاء هذه القلعة بعد فتحه لهذه المدينة مباشرة، وبالرغم من جمالها وضخامتها وإطلالتها الرائعة، يلفت انتباهنا مدة إنشائها الذي دام أربعة شهور ونصف فقط، ويعتبر رقم قياسي لإنشاء مثل هذه القلاع.

سور مدينة الرياض وبواباتها:

كما هو عليه الحال في جميع المدن العربية الإسلامية، فكان لمدينة الرياض القديمة سوراً منيعاً يحيط بها، ويصل ارتفاعه إلى ٢٥ قدم، ولهذا السور حصون وأبراج أسطوانية لحماية المدينة من الأخطار، إلا أن بنية السور اللبنية لم تساعد في بقاء السور، إضافة لهدم جزء منه من قبل الأهالي.



القلعة الرومية بمدينة إستانبول - تصوير: المؤلف.

أما عن بوابات الرياض، فهي نوعان:

- النوع الأول: على شكل بوابات رئيسة ذات حراسة.
- النوع الثاني: بوابات فرعية خاصة للفلاحين والمزارعين.

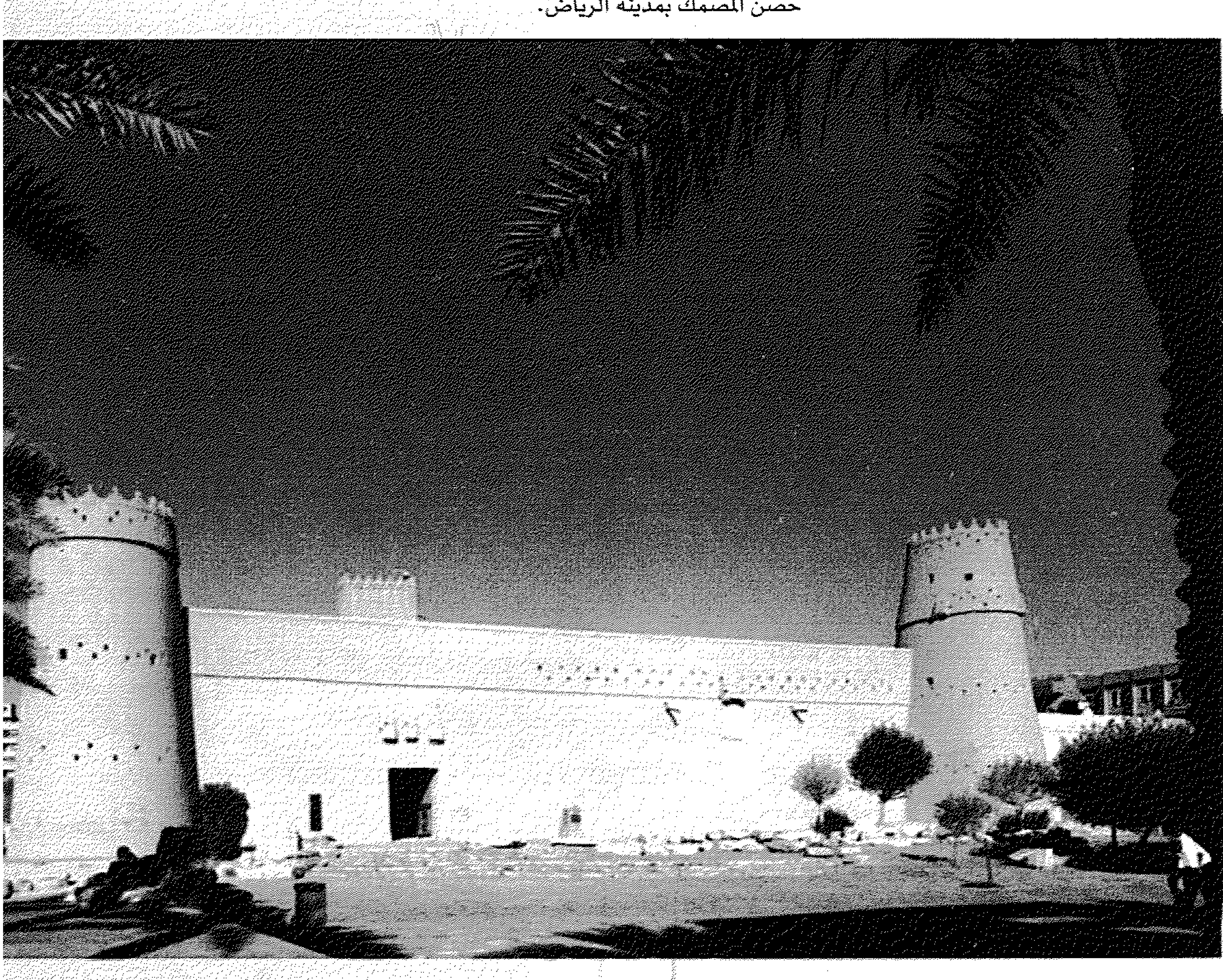
بشكل عام تفتح هذه البوابات بعد صلاة الفجر، وتغلق بعد صلاة العشاء لضمان الأمن ولحماية المدينة من دخول الغرباء أو الأعداء، يرتبط حجم البوابة وشكلها بأهمية موقعها، وتحمل كل بوابة اسماً خاصاً بها، مثل بوابة السويلم، وبوابة الظهيرة، وبوابة الثميري، وغيره من البوابات الأخرى التي يبلغ عددها إحدى عشر بوابة، وفق الجهات الأربع.

من بين الحصون المنيعة في الرياض المصمك، والذي استخدم كمجمع سكني بعد فتح الرياض. وله سور بأربعة أبراج ضخمة، وللحصن مدخلين أساسيين فقط.

بالطبع إن عالمنا العربي والإسلامي غني وحافل بالصروح المعمارية العسكرية، ولم نقم إلا بجولة سريعة بين الحصون والقلاع والأسوار، لندرس العناصر المعمارية مع نبذة تاريخية عنها، ولنسلط الضوء على قدرة المعماري العربي في تصاميمه لتبقى لنا مرجعاً في دراساتنا وبحوثنا المعمارية.

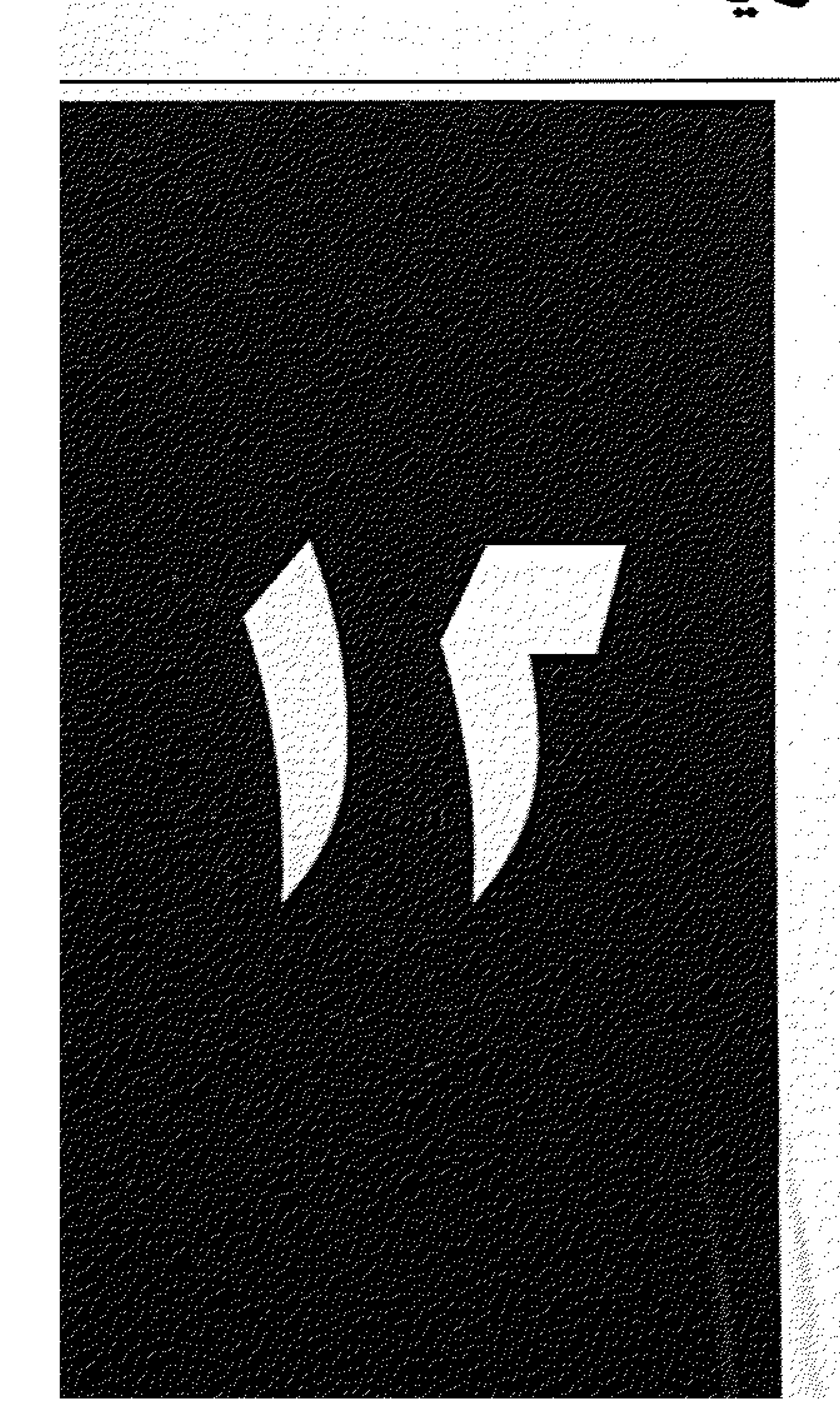
فتظل هذه القلاع والحصون معتلية التلال والقمم، منتصبة بكل شموخ وإباء لتذكرنا بمجد حضارتنا وبانتصارات أجدادنا الذين خاضوا معارك عدة توجت بالنصر، لأن غايتهم نشر الدين الإسلامي بما يحمله من مبادئ وأساسات تحت راية (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

حصن المصمك بمدينة الرياض.





مدننا الإسلامية وتاريخها المعماري



مدننا الإسلامية وتاريخها المعماري ❖

خلق الله الإنسان (أرقى المخلوقات) في أحسن تقويم، وأبدع خلقه دون الكائنات الحية الأخرى، وزرع في نفوسنا الروح الاجتماعية، ودعانا إلى التكتل الديني والفكري والاجتماعي، لقوله تعالى: ﴿جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. .﴾ (الآية ١٣ من سورة الحجرات). كما حثنا رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم على التعاضد والتآزر تحت راية الإسلام، متمسكين بكتاب الله وسنة رسوله، لقوله:(تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنة نبيه). ❖❖

مفهوم العشائر والقبائل قبل الإسلام:

ظهر هذا المفهوم منذ العصور الحجرية، بينما كان الإنسان يعيش في الكهوف على شكل جماعات، لمقاومة هجمات الحيوانات المفترسة الضخمة وردّها، أو الدفاع عن أنفسهم من هجمات القبائل المجاورة لهم، ثم تطورت مواد البناء، وبدأ المسكن يتحول من خيمة بسيطة إلى بيت مبني من اللبن أو الحجارة و القرميد، لتتجمع هذه الوحدات السكنية المستقلة ضمن مساحة معينة، يتم اختيارها ضمن البنية الطبوغرافية والجيولوجية للأرض، فيرجح أن يكون المكان ذا إطلالة على المناطق المجاورة لكشف غزوات العدو وتحركاته، وأن تكون أرضه خصباً معطاء يمكن استغلالها زراعياً، مع ارتباطها الوثيق بعنصر الماء الذي يعدّ من أهم العناصر الحيوية والمعيشية لها.

ثم تطور هذا المفهوم مع تطور العصور والأزمان لتتحول القبيلة إلى قرية، ومن ثم إلى مدينة مستقلة ومنفصلة عن المدن المجاورة لها، كما أثبتت التقنيات وجود عدة مدن ظهرت قبل الميلاد واندثرت ودمرت بسبب المواد الإنشائية التي استخدمت فيها، أو بسبب الحرائق والزلازل، أمثال الآثار اليمنية التي تعود إلى الألف الثالث أو الثاني قبل الميلاد.

❖ صحيفة الرياض العدد ١١٥١١ - ٢٢ رمضان ١٤٢٠ هـ، الموافق ٣٠ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٩٩م.

❖❖ مسند أحمد ٢/٢٦، وابن ماجة: مناسك ٨٤، وابوداود: مناسك ٥٦

ظهور المدن الإسلامية:

مع انتشار الدعوة الإسلامية وانطلاقتها من الجزيرة العربية، بدأت الفتوحات الإسلامية تتوسع في عالمنا العربي والإسلامي، مكللة بالانتصارات المتواصلة لجنود الله، الذين تحلوا بخصال النبي صلى الله عليه وسلم، ولإيمانهم المطلق بدينهم و بعقيدتهم، وصارت الشهادة حلم كل مجاهد في سبيل الله، مما عزز موقفهم وزادهم انتصارات وفتوحات لا تحصى، وعزماً على نشر كلمة الله في أرجاء المعمورة.

ففي ظل خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتحت دول عربية، أهمها العراق، إذ أمر الخليفة ببناء مدينة البصرة التي كانت أشبه بمعسكرات يستوطن بها الجنود العرب وبهذا تصبح البصرة أول مدينة عربية تبنى في عصرنا الإسلامي، ثم تلاها مدينة الكوفة، علماً أنه كان اختيارها وفق شروط صحية (غرب الفرات)، لتفشي بعض الأمراض التي أصابت الجنود المسلمين بسبب رطوبة وجفاف المدائن التي دخلوها.

الفناء الداخلي في بيت ديوان رسمي بمدينة حلب – تصوير: المؤلف.



ظهر في المغرب العربي أيضاً عدة مدن، مثل: القيروان، إذ كانت مركزاً عسكرياً مهماً للقائد عقبة بن نافع، وذلك في عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه.

هناك أيضاً مدينة فارس، التي بناها إدريس الثاني عام (١٩٢هـ/٨٠٧م) لتصبح من أكبر المدن العربية انتشاراً للمباني والجوامع والحمامات، وبنى لها سوراً حجرياً مرتفعاً ليحميها من هجمات الأعداء.

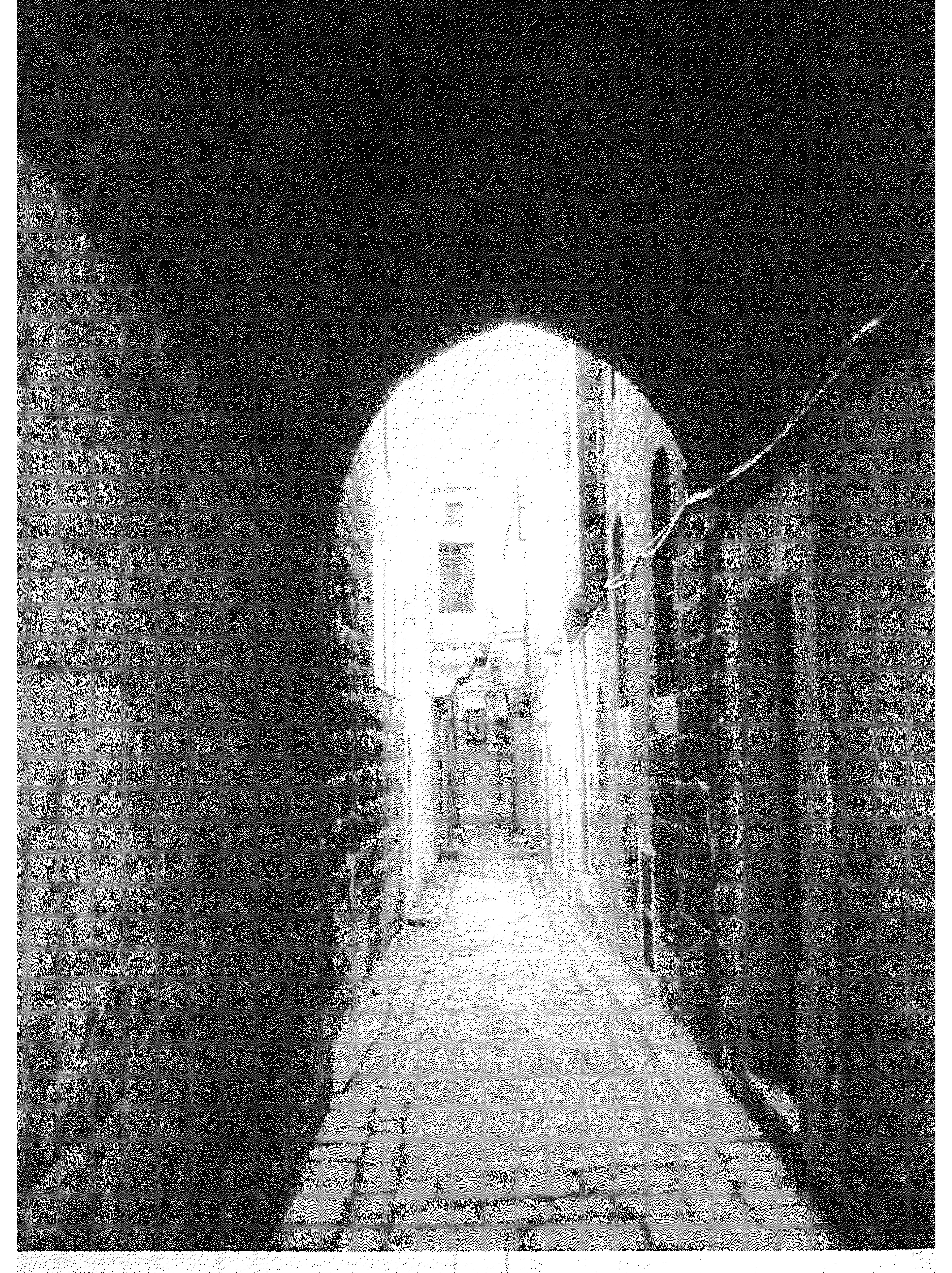
إضافة إلى مصر وتونس وغيرها من الدول العربية الأخرى، وكانت المدينة تقسم إلى أحياء خاصة، وغالباً ما يطغى على المدن الإسلامية من الخارج الطابع العسكري، بسبب أسوارها ذات الأبراج والسقاطات والشرفات، لتبقى في حالة دفاعية دائمة.

الحي الإسلامي وعناصره:

يتألف الحي من مجموعة منازل ملتصقة فيما بينها، وموزعة بشكل غير منتظم، والبيت العربي هو وحدة سكنية متكاملة بعناصره المعمارية، وبإنطوائيته نحو بيئته الداخلية (الفناء - صحن البيت) وفق تعاليم ديننا الإسلامي الذي أمرنا بالتستر والمحرمة، إلا أن البيئة الداخلية للبيت جعلت منه متحفاً غنياً بالزخارف والنقوش، إضافة إلى النافورة التي تتوسط الفناء المكشوف، وعناصر الخضرة من أشجار ونباتات. كما تطل المشربيات الخشبية (الروشان) بزخرفتها الرائعة على الأزقة لتتماشى مع النسيج العمراني للحي.

وفق مبدأ الخصوصية بين الجيران، نلاحظ مراعاة عدم فتح باب البيت مباشرة إلى الخارج، كذا الأمر بالنسبة إلى النوافذ الخارجية، فتكون مرتفعة وصغيرة، ولا تتقابل نافذتين لبيتين مختلفين، وهذه سمة أخرى من سمات عمارتنا الإسلامية المحلية ذات القيم الاجتماعية الراقية التي راعت حقوق الجار على جميع الأصعدة.

وإذا ما خرجنا إلى الأزقة الضيقة والمتعرجة، نجد السقيفة أو الساباطات المغطية للطرق، كي تقوم بعملية التظليل، مثلما تقوم الجدران المرتفعة بالمهمة



إرتفاع الجدران وضيق الأزقة وانتشار السقيفة في أحياء مدينة حلب القديمة - تصوير: المؤلف.



واجهة الإيوان في قصر جنبلاط بمدينة حلب - تصوير المؤلف.

نفسها مع اختزان الهواء الرطب في الليل، ليكون مصدر تلطيف في ساعات النهار. . نلاحظ ارتباط هذه الأزقة بمركز الحي حيث يتواجد المسجد والسوق وساحة للجلوس أو الاستراحة.

هناك أيضاً السبيل الذي يعدّ نوعاً من أنواع العمارة الإسلامية، وقد حظي بعناية خاصة وفائقة بزخارفه الهندسية وكتاباته القرآنية، وكان السبيل ملحقاً بالمسجد في أول أمره، ثم انفصل عنه وبات وحدة معمارية مستقلة بشكلها الفني الأخاذ. .

يبنى السبيل عادة بأمر من السلاطين أو الأغنياء المقتدرين لحبهم للصدقة، فيقدم المارة على شرب الماء العذب، خاصة في أيام الحر والجفاف، وهم يقرؤون الآية الكريمة المخطوطة على جداره ﴿وسقاهم ربهم شرابا طهوراً...﴾ (الآية ٢١ من سورة الإنسان)، وغيرها من الآيات الكريمة. .

ولم يكن المسجد مكان تعبد وتفكر فحسب، بل مكان لقاء أهل الحي لحل مشكلاتهم ومساعدة المحتاجين منهم وفق بيئة إسلامية يغلب عليها الطابع الروحي السامي. .

مركز المدينة:

كلما اقتربنا من مركز المدينة أكثر فأكثر، ازدادت الطرق توسعاً وانتظاماً مع ازدياد الازدحام والصخب، بسبب التيار الاقتصادي القوى بين الأسواق والخانات الكثيرة، والخان أشبه بمجمع تجارى - إذا جاز التعبير- وهو مؤلف من دورين، يستخدم الدور العلوي فندقاً، فيأتي التجار بقوافلهم ليمكثوا عدة أيام فيه يبيعون تجارتهم ويشترون سلعا أخرى.

أما الدور الأرضي فهو دكاكين تعرض فيها المنتجات، أو ضمن فناء الخان الواسع والمكشوف، وهناك تخصصية في الخانات، إذ إن لكل خان صنفاً تجارياً معيناً، يباع ويشترى فيه. كالنسيج والبهارات والصابون. . وغيرها، علماً أن الخان يحمل اسم الصنف المتواجد فيه، أو اسم من أمر ببنائه.

في مركز المدينة نجد أيضاً قصر الحاكم، وبجانبه قصور الوزراء والأغنياء، وهناك أيضاً المسجد الجامع الذي يعدّ اكبر مسجد في المدينة، ويحظى بعناية



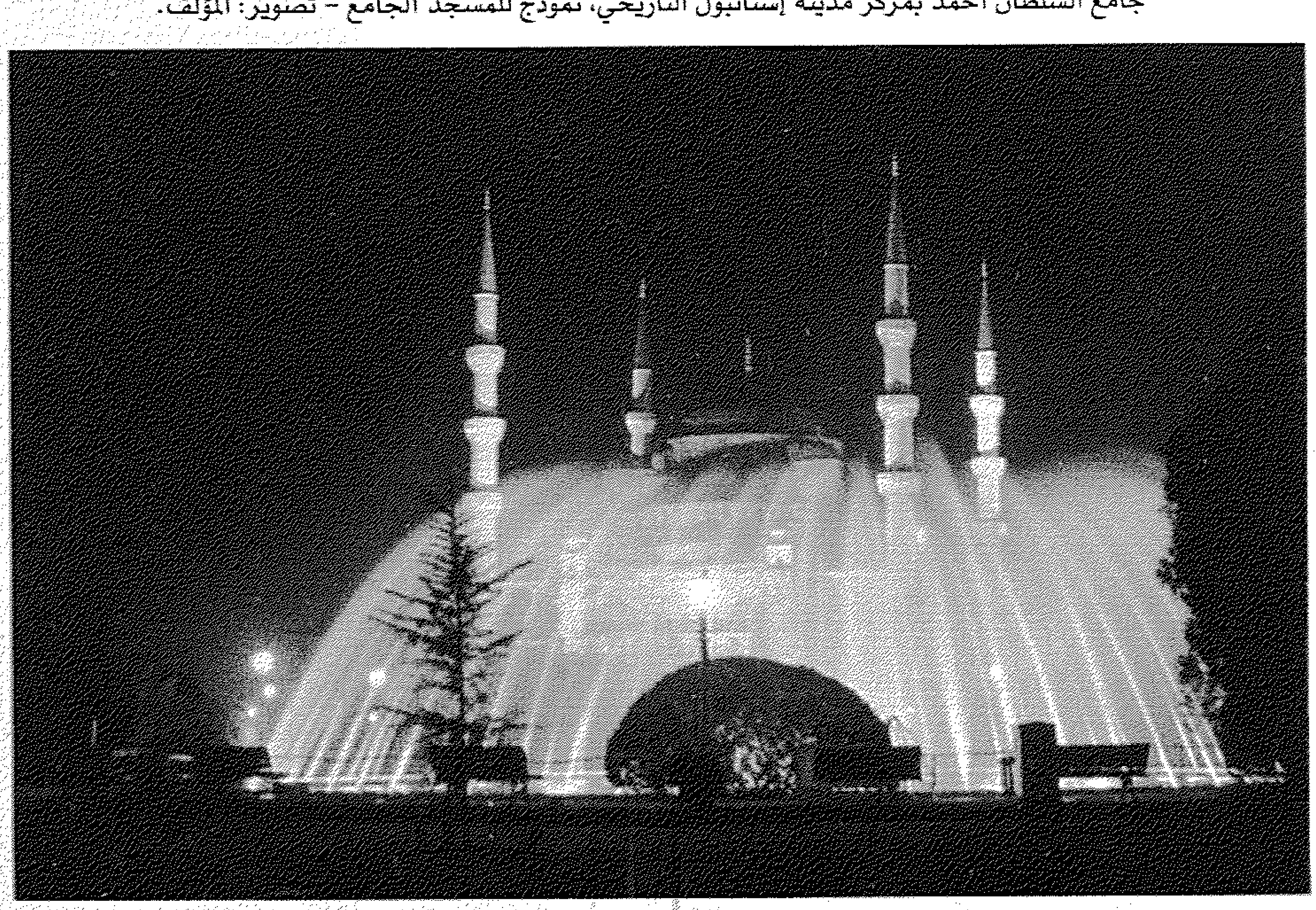
انتشار نباتات الزينة في أفنية البيوت العربية التقليدية بمدينة حلب - تصوير: المؤلف.

معمارية خاصة، من حيث الشكل والضخامة وارتفاع المآذن والقباب، وبالنقوش والمنمنمات والكتابات القرآنية المذهبة. إلى جانب ذلك هناك المدارس الإسلامية المتصلة بالمسجد، والحمامات أيضاً، والساحات الواسعة بحدائقها المنتظمة.

يحيط بالمدينة سورها الواقي والمرتفع للمحافظة على أمن المدينة وقاطنيها، وتحصينها دفاعياً من أي هجمة عدوانية، فتفتح الأبواب الموزعة في سور المدينة صباحاً بإشراف من العساكر والحراس، وتغلق في المساء.

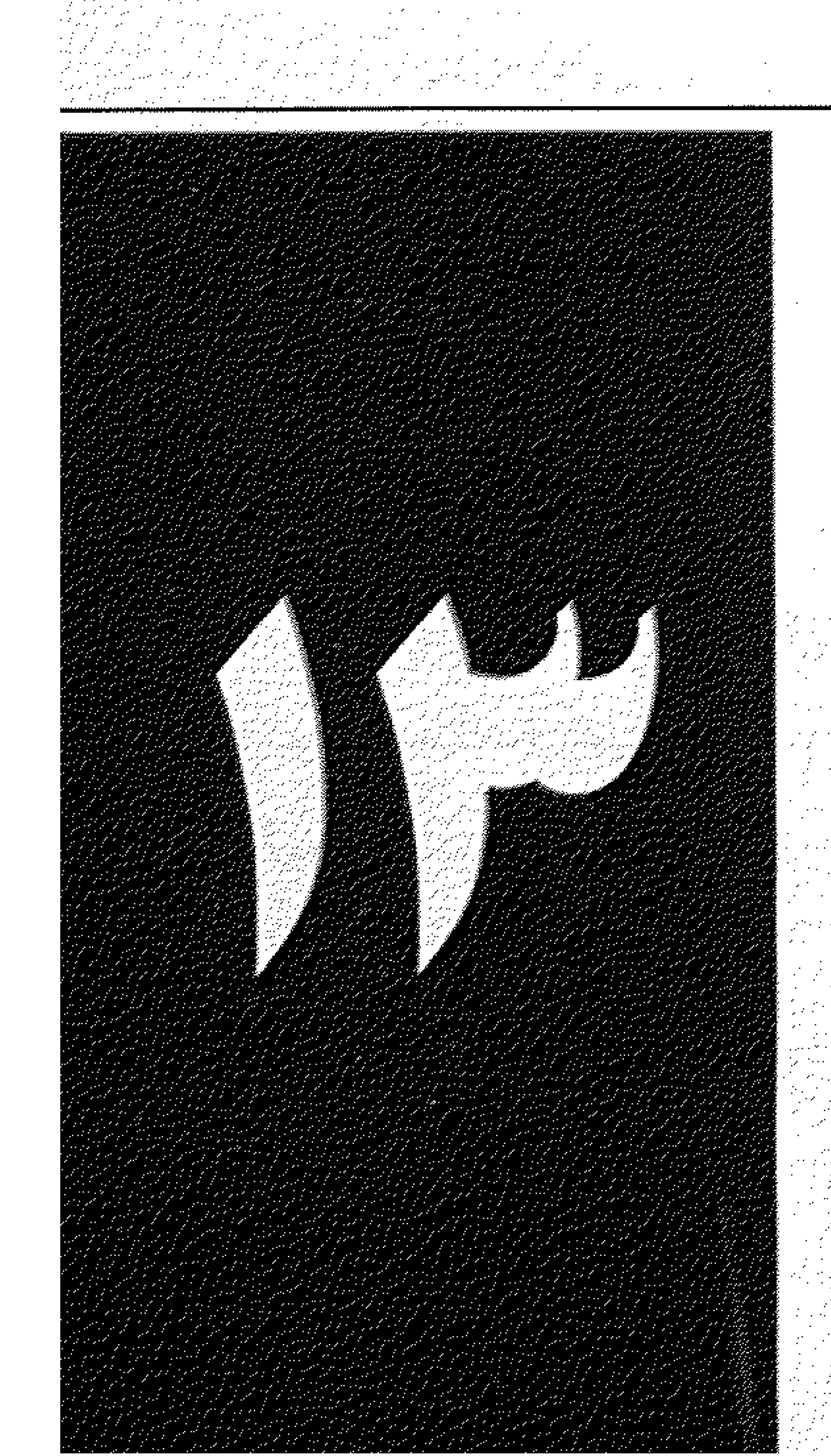
هذه هي مدينتنا العربية، الحافلة والثرية بأجمل الأنواع وأبدعها لعمارتنا الإسلامية، ذات الانسجامية والتوافق، لتبقى هذه الآثار والعمران دليلاً مبرهناً للعالم أجمع بأن لنا حضارتنا الإسلامية وتراثنا القيم الذي حافظنا عليه ونفتخر به ونعتمد عليه في تصاميمنا الحديثة؛ لأن حضارتنا خير مرجع ودليل - ليس لنا فحسب - بل للعالم أجمع.

جامع السلطان أحمد بمركز مدينة إستانبول التاريخي، نموذج للمسجد الجامع - تصوير: المؤلف.





المدينة الإسلامية



المدينة الإسلامية ❖

المدينة الإسلامية أشبه ما تكون بنقطة يلتقي فيها الزمان والمكان.. مادام أن اختيار المكان قد نتج من مواصفات واحتياجات معينة. . ومما لاشك فيه أن عمارتنا العربية الإسلامية قد تأثرت بالظروف البيئية التي لها خضعت، إضافة إلى الطبيعة الحياة البدوية التي منحتنا أفكاراً تصميمية وحلولاً معمارية مناسبة. وخير مثال على ذلك تصميم البيت العربي ذي الفناء الواسع والمفتوح ليحول الفناء إلى بيئة يتنفس منها سكان البيت. معتمدين على عناصر ملطفة لهذه البيئة الجافة، أهمها النافورة المتوسطة صحن البيت ليتدفق منها الماء، مع الاعتماد على البادكير (الملاقف) التي هي مجار (قنوات) يمر من خلالها الهواء القادم من السطح ليصل إلى أخفض مستوى للبيت، وهو هواء القبو أو السرداب، منطلقاً هذا الهواء الملطف لصحن الدار.

كما كان للمعايير الحضارية الإسلامية دور أساسي في نشأة المدن الإسلامية، ويعود تاريخ أول مدينة إسلامية إلى مدينة يثرب التي هاجر إليها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ليحولها إلى مدينة إسلامية (المدينة المنورة فيما بعد) صاهراً من خلالها جميع النزعات القبلية، المزروعة في نفوس قاطنيها ضمن نظام اجتماعي يدعو إلى الترابط والتواصل. وقد كان لاختيار الموقع المناسب للمدينة عوامل مرتبطة بالنواحي السياسية والحربية لتحصين المدينة، وظهرت معها السمة الدفاعية، حيث نجد أن لكل مدينة إسلامية أسوار مرتفعة محيطة بها وذات أبراج مستديرة، وبوابات كانت تفتح في أوقات معينة ويقف على كل بوابة حراس يقومون بمراقبة كل قادم أو مغادر لهذه المدينة ومعرفته.

ترتبط جميع مداخل المدينة بمركزها الذي هو مكان المسجد الجامع، وهو نواة مهمة في تخطيط المدينة الإسلامية وتحيط به الساحات الواسعة لسهولة حركة المصلين، خصوصاً أن المسجد الجامع هو مكان لقاء وتواصل

❖ مجلة المهندس، العدد الرابع / المجلد الخامس عشر - ذو القعدة ١٤٢٢ هـ، الموافق يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٢م



الفناء الداخلي لقصر العظم بمدينة دمشق - تصوير: المؤلف.

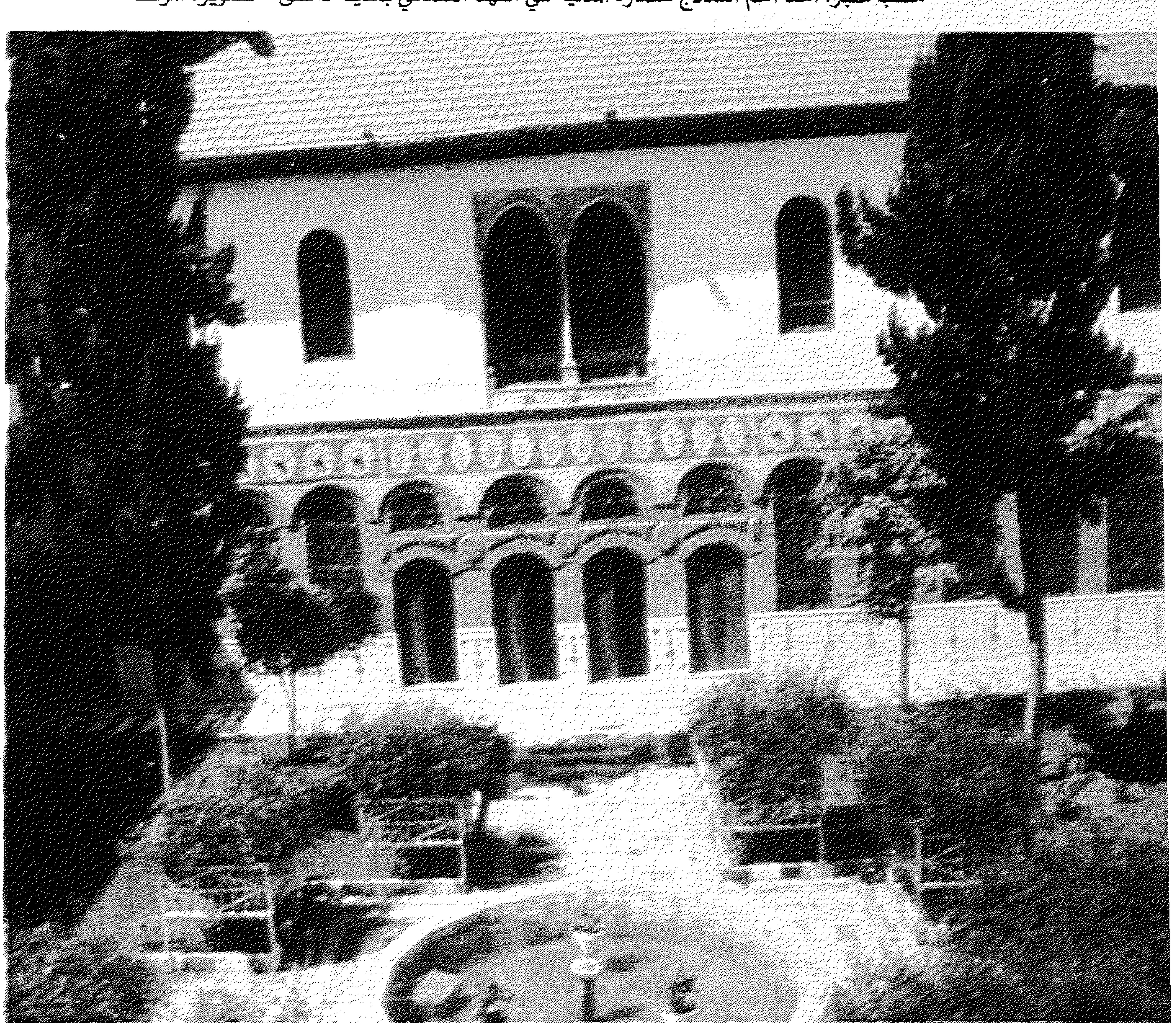
بين المصلين. إضافة إلى دوره الديني كمكان للصلاة والعبادة، وتكون الإمارة قريبة منه لتحقيق التكامل الوظيفي.

من ضمن المرافق العمرانية الأخرى إنشاء الأسواق المحيطة بالمسجد الجامع، وهى على شكل خانات أو وكالات مؤلفة من دورين، وذات فناء واسع يباع فيها حاجات وأصناف مختلفة، ويعود تاريخ عمارة الأسواق إلى بداية العهد الأموي. وهناك أيضاً الحمامات والبيمارستانات التي كانت أشبه بالمستشفيات حالياً لمعالجة المرضى والمحتاجين.

كما قسمت المدينة الإسلامية لمحلات سكنية، ولكل محلة مسجد خاص بها. ولسهولة الحركة في أرجاء المدينة الإسلامية ظهر معيار أساسي لمقاييس الشوارع مرتبط بأهمية كل شارع على حدة وفق كثافة المرور. فنجد الشوارع الرئيسة العريضة التى تربط بين مداخل المدينة ومركزها (المسجد الجامع) وهنالك شوارع فرعية وثانوية، لتتحول جميع هذه الشوارع والطرقات إلى شرايين اتصال حية تربط بين مركز المدينة وأطرافها.

ولهذا نشعر بالمسؤولية الكبيرة حيال ميراثنا الغنى الذي ترك لنا أجدادنا


مكتب عنبر، أحد أهم النماذج للعمارة المدنية في العهد العثماني بمدينة دمشق - تصوير: المؤلف



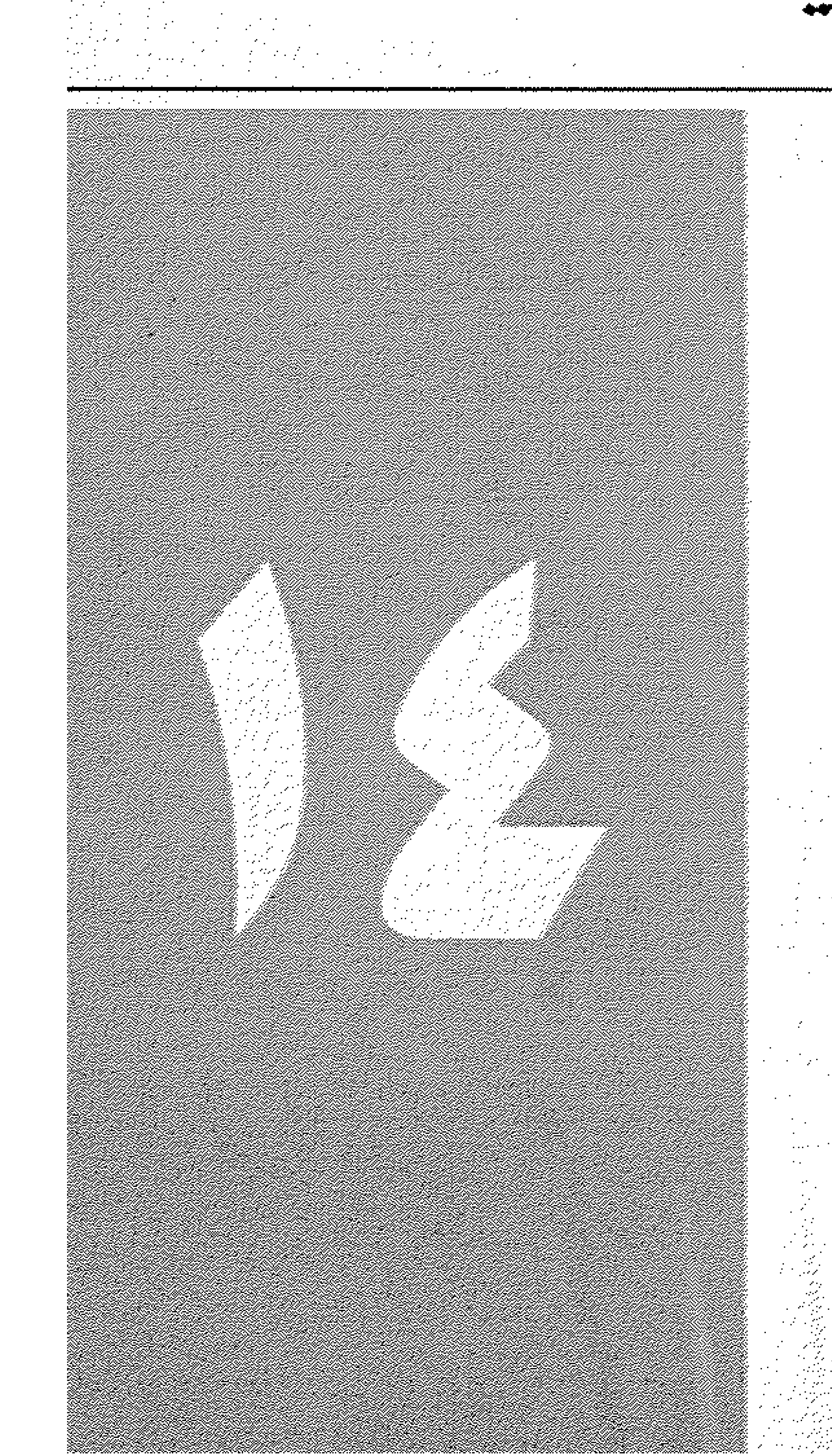
العظماء، مما يدفعنا إلى التعمق بمفهوم التراث والمشتق لغوياً من كلمة ارث أي ما يرث الخلف (الحاضر) من السلف (الماضي) وألا تكون نظرتنا إليه مجرد نظرة متحفية لآثار قديمة، بل هو الأساس الذي يجب أن نعتمد عليه في تأصيل كل ما هو جديد، خصوصاً ونحن نسعى لتطوير حاضرنا ضمن انسجامية البيئة بالمجتمع معتمدين على كل ما تبقى من آثار لا تزال صامدة إلى يومنا هذا. ولتظل هذه الآثار والأوابد المعمارية مصدر اعتزاز وافتخار لنا جميعاً بتاريخنا العربي الإسلامي.

بركة الماء تتوسط فناء بيت ديوان رسمي بمدينة حلب - تصوير: المؤلف.





الخانات. شكل للعمارة التجارية



الخانات . شكل للعمارة التجارية ❖

إن التجارة عنصر مهم وأساسي اعتمد عليه الإنسان منذ القدم في معيشته الحياتية، وذلك بتبادل السلع بين الدول التي اشتهرت بمنتجاتها الخاصة والغير متوافرة في الدول الأخرى، لتحقيق عملية التبادل التجاري (الاستيراد والتصدير).

كما انتشرت القوافل التجارية المحملة بالمواد الاستهلاكية والبضائع، كالشريان الحي المتدفق لتنعش أرجاء المعمورة، فللعامل الاقتصادي دور رئيس في ازدهار الدولة ورقيها، وفي تطور حضارتها ونموها.

مع تطور التجارة وتوسعها وانتشارها في عالمنا العربي والإسلامي ظهرت الخانات لتكون المكان الأنسب للتجار في عرض سلعهم وبضائعهم، ولأخذ قسط من الراحة بعد عناء رحلة طويلة وشاقة عبر الصحاري والأودية.

تاريخ الخانات:

ظهر هذا النوع من العمارة التجارية خلال الإمبراطورية الرومانية، وعلى طول طريق نهر الفرات المتجه إلى الشرق، ثم تطور في العصور الوسطى ليأخذ حيزاً من العمارة الإسلامية في عهد المماليك، وفي خراسان الإيرانية والأناضول التي ترجع إلى عصر السلاجقة، ومن ثم العثمانيون الذين قاموا بإنشاء عدد من الخانات في العواصم التجارية المهمة لوطننا العربي.

هناك عدة أسماء للخانات، ففي المغرب العربي سمي الخان بالفندق أو الوكالة، وفي مصر سمي الخان بالقيسارية أو الوكالة أيضاً، أما في إيران فسميت خانات القوافل باسم (الرباط)، وفي العهد السلجوقي العثماني حافظ الخان على اسمه مثلما حافظ على طرازه المعماري الإسلامي.

❖ المجلة العربية العدد ٣٠٢ - ربيع الآخر ١٤٢٣ هـ، الموافق يوليه (تموز) ٢٠٠٢م

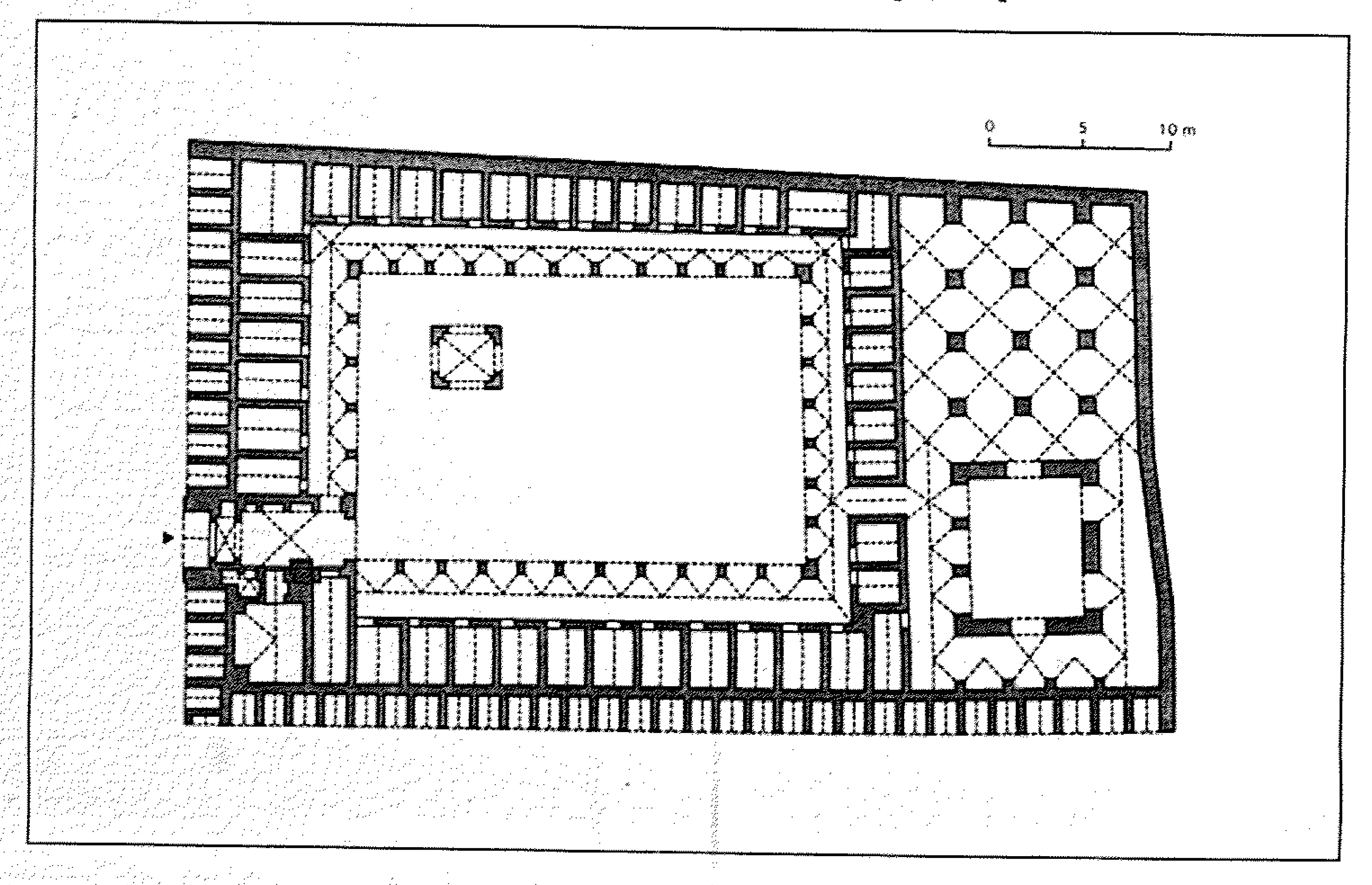
أنواع الخانـات:

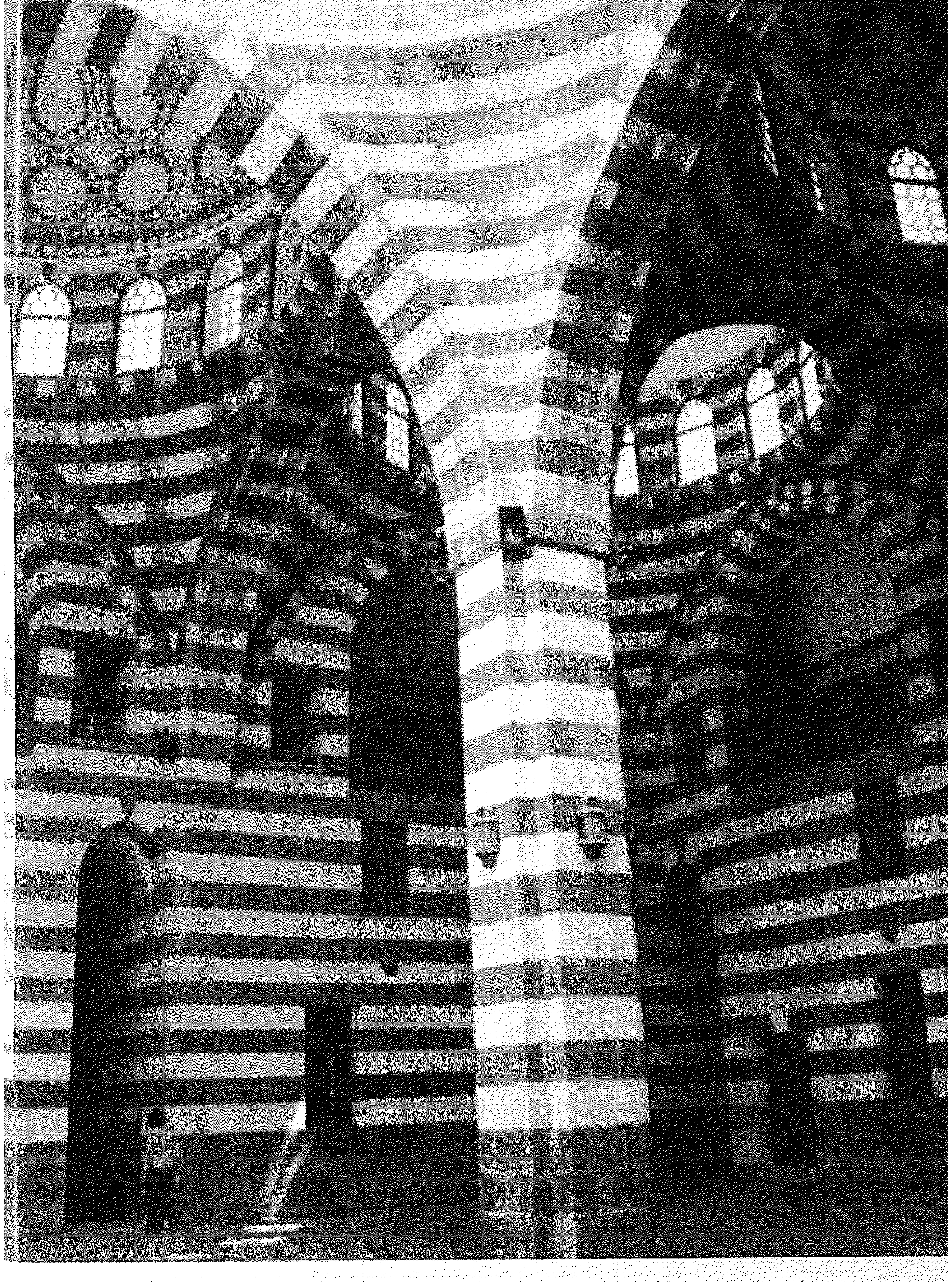
تنقسم الخانات إلى ثلاثة أنواع مختلفة فيما بينها، من حيث الوظيفة والموقع:

١- الخانات المبنية في وسط المدينة:

وهي أرقى نوع من أنواع الخـانات لإنشـائهـا في مـركـز الحـركـة التـجـارية، فـالنشـاط الاقتصـادي ينتظم في حلقـات متتالية تزداد اتسـاعاً حول المركز طبقاً للأهمية، وفي المركز تزداد التخصصية للفعاليات الاقتصادية، وتنتشر في هذه الخانات التجارة الدولية كالتوابل والبن، والأقمشة الفاخرة، والصابون والعطورات وبسبب الخاصية نجد بعض الخانات التي تحمل اسم المادة المتوافرة والمختصة بها، مثل خان الصابون، وخان القطن، وخان العطارين، أو أن يحمل الخان اسم السلطان الذي أمر ببنائه، مثل خان خاير بيك، وهو آخر أمراء المماليك في حلب، وخان شاه سلطان حسين بأصفهان، وغيره من الخانات الأخرى.

مخطط خان خاير بيك ٩٢٢ هـ / ١٥١٥م، وهو مؤلف من ثلاثة خانات متصلة، تحيط به زخارف هندسية، وخاير بيك هو والي حلب الذي أسهم في تسليم المدينة للسلطان العثماني سليم ٩٢٣هـ / ١٥١٦م.





استخدام الأحجار المتشابكة بلوني الأبيض والأسود، وبشكل متناوب في خان أسعد باشا بمدينة دمشق - تصوير: المؤلف.

٢- الخانات المبنية على أطراف المدينة:

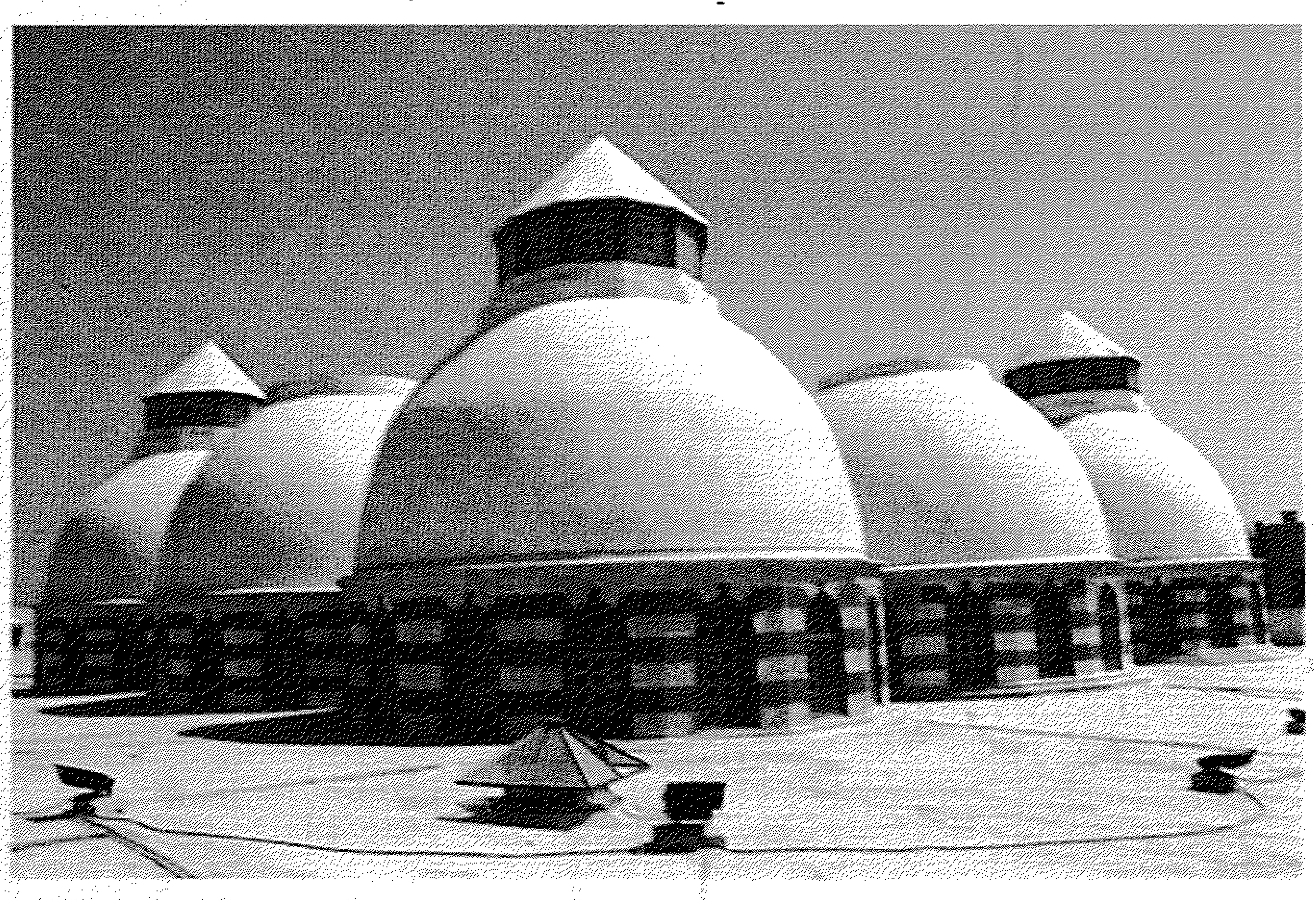
ارتبط هذا النوع من الخانات بنوعية الفعاليات الاقتصادية التي تتم في الخان، فغالباً ما تكون نوعية هذه الفعاليات بحاجة إلى قربها من القرى والأرياف؛ لأن معظمها يحضر من القرى، كالخضار والفواكه والحبوب والأغنام.

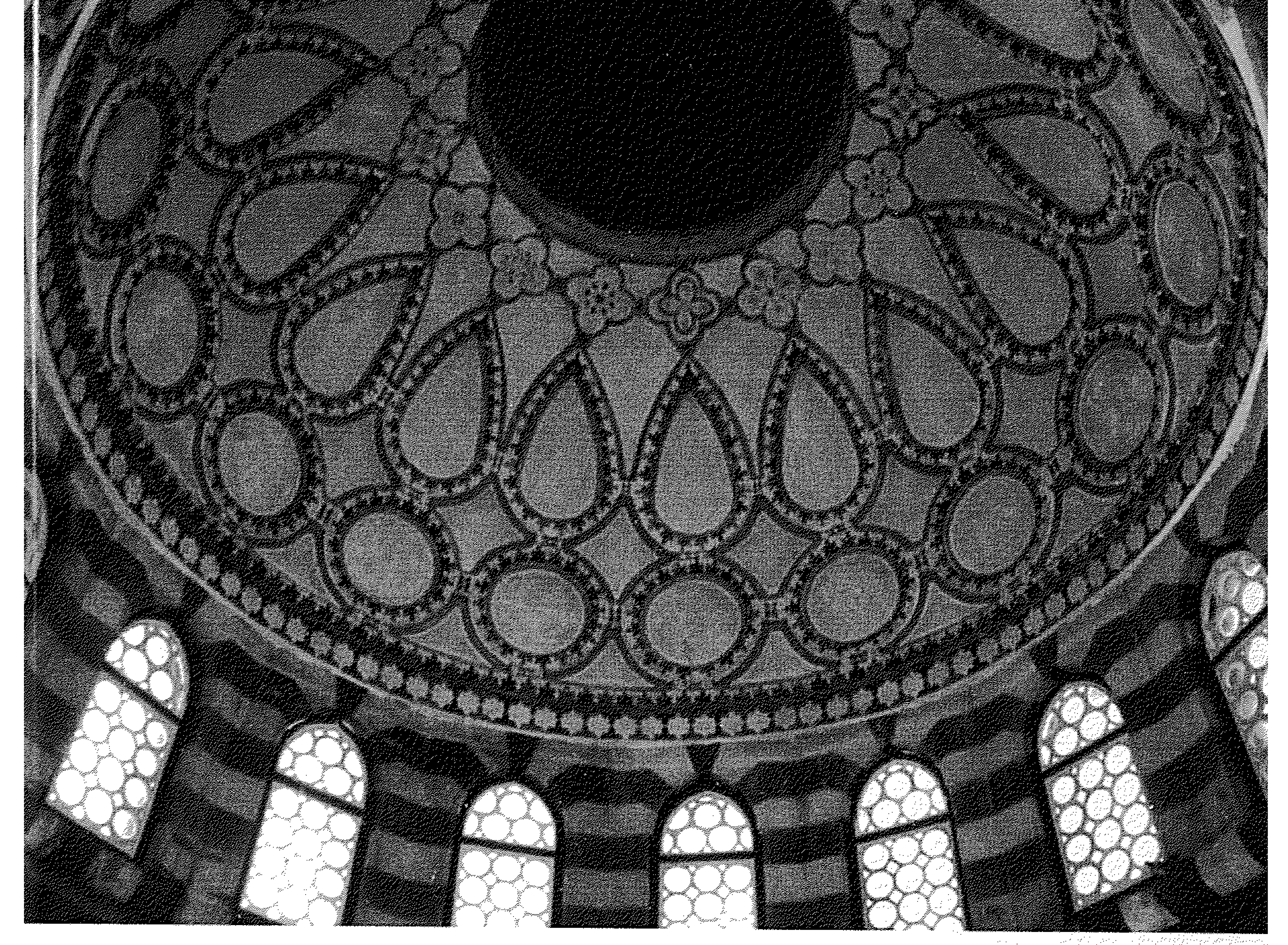
وسبب آخر أبعد هذه الخانات عن مركز المدينة، وهو الضوضاء المزعجة التي يسببها الباعة للجوار، وهم ينادون ويصرخون ويدعون المارة لشراء بضائعهم المتنوعة والمختلفة.

٣- الخانات المبنية خارج المدينة:

كانت الغاية من بناء هذا النوع من الخانات على طريق الصحراء القاحلة، إيواء التجار المسافرين والمنهكين من طول رحلتهم، خاصة عندما يحل المساء فيضطر التجار إلى المبيت في هذه الخانات المنتشرة على الطريق الممتدة بين المدن، وليحافظوا على بضائعهم وحمولتهم من اللصوص وقطاع الطرق.

قباب خان أسعد باشا في مدينة دمشق - تصوير: المؤلف.





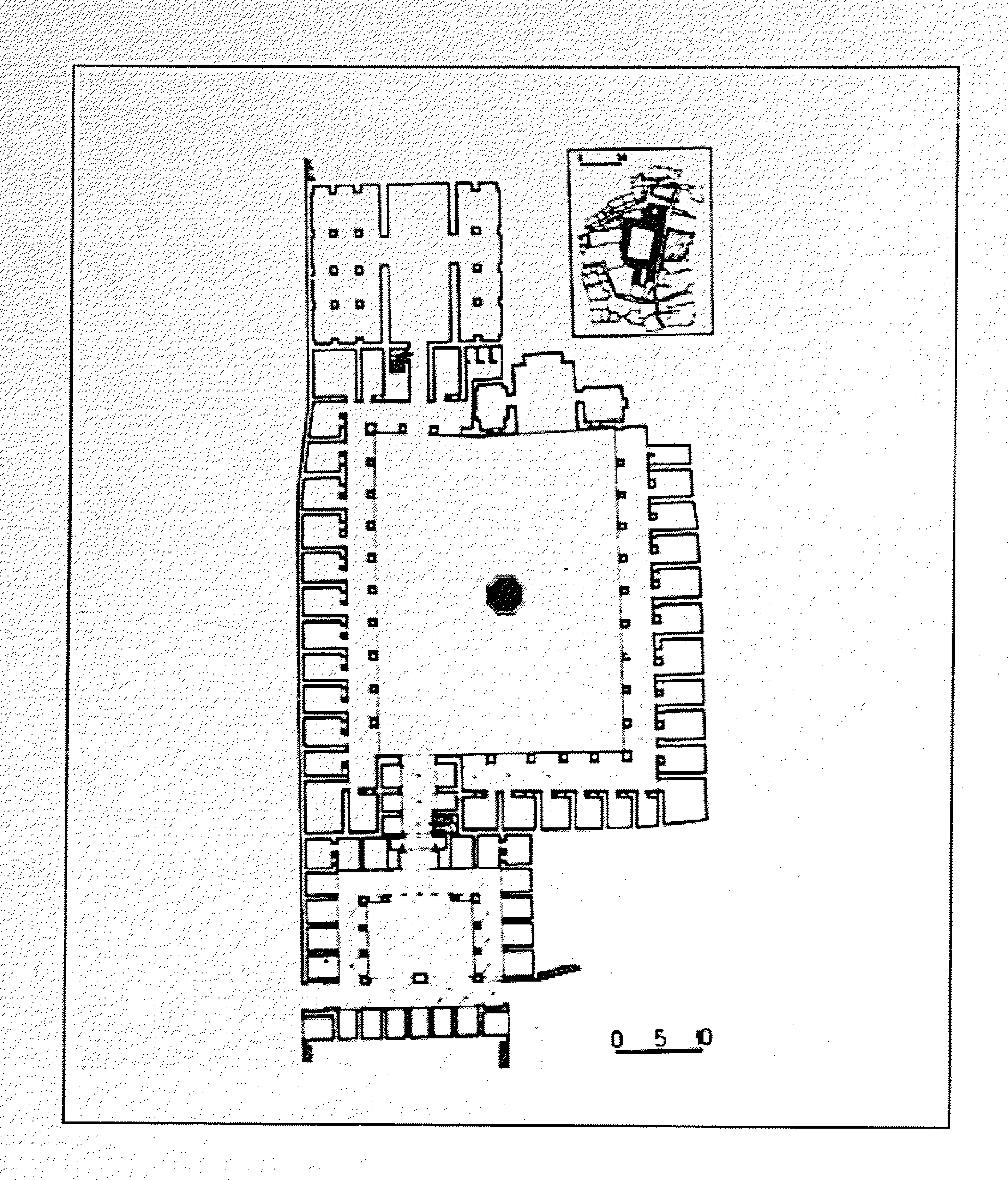
لقطة داخلية للقبة في خان أسعد باشا بمدينة دمشق - تصوير: المؤلف.

الشكل المعماري للخان:

الشكل المعماري والنموذجي للخان، هو بناء مؤلف من دورين، في وسط هذا البناء فناء واسع ومكشوف تلتف حوله جميع الغرف، جعل فناء الخان واسعاً بسبب الحركة التجارية النشيطة طوال ساعات النهار، ولهذا قسم الخان قسمين أساسين:

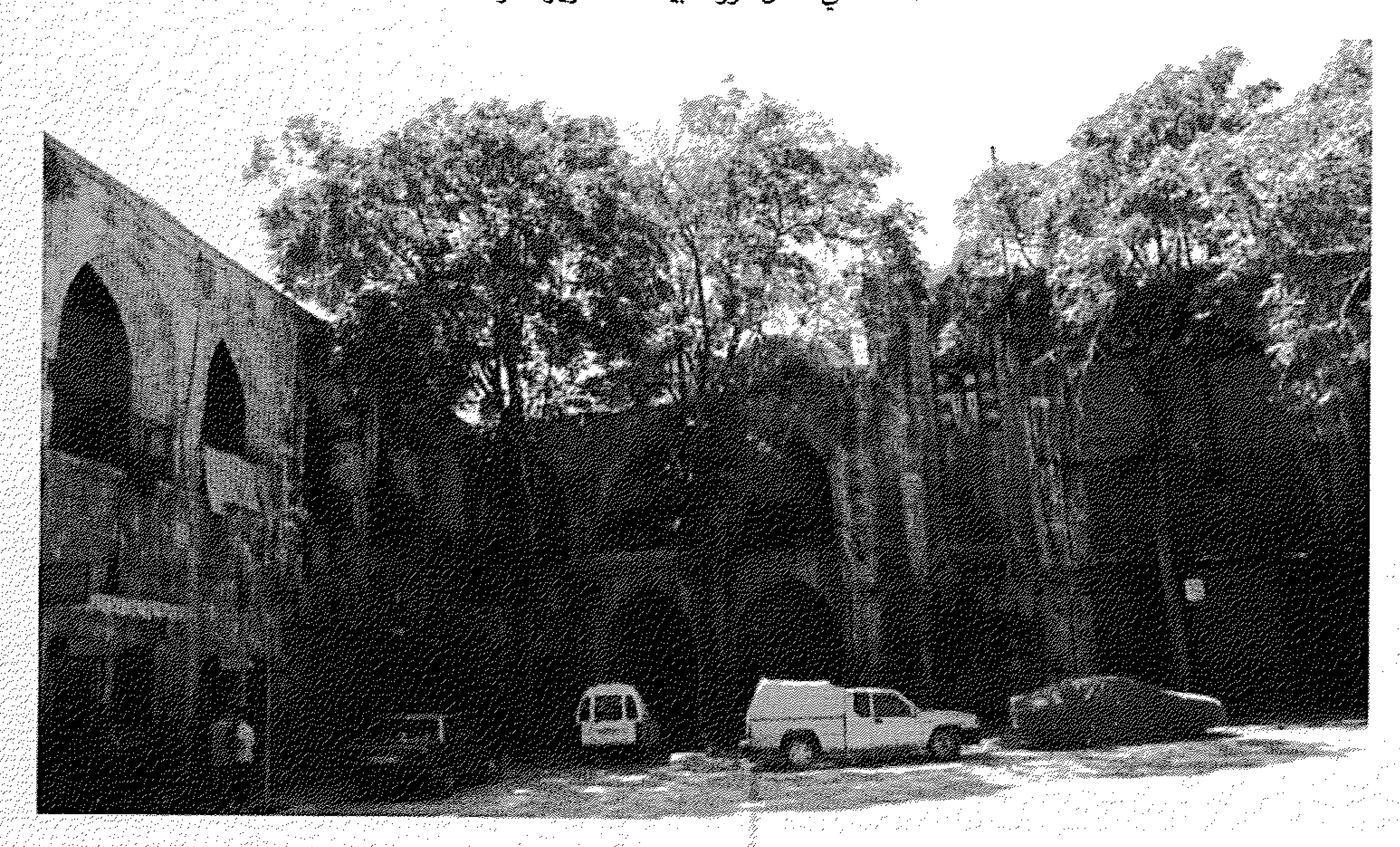
- الدور الأرضي استخدم على شكل مستودعات للبضائع ومحلات تجارية، إضافة إلى الخدمات الأخرى من مسجد وحمامات ودورات مياه، كذلك هناك حظائر للدواب.

- أما القسم الثاني فهو الدور العلوي الذي يشتمل على غرف نوم واستراحة للتجار، إضافة إلى المكاتب، ويتم الصعود إلى الدور العلوي بواسطة درجين قريبين من المدخل الرئيس، وعزل الدور العلوي عن الدور الأرضي لضمان الاستقلالية والراحة للتجار النزلاء في الخان.



المسقط الأفقي لخان قورت بيك بمدينة حلب، والذي يعـــود إلى العهد العثماني.

الفناء الداخلي لخان قورت بيك – تصوير: المؤلف.





الطابق العلوي لخان قورت بيك - تصوير: المؤلف.

حظي هذا النوع من العمارة الإسلامية بالعناية الخاصة من حيث التزيينات لواجهة الخان الأساسية ذات الباب الخشبي الكبير الذي تفتح درفتاه على مصراعيهما في حال قدوم قافلة محملة بالبضائع والعتاد، وهناك درفة صغيرة - خوخة- ضمن الدرفة الكبيرة للخان لدخول الأفراد؛ لأن الدرفة الكبيرة غالباً ما تبقى موصدة لضمان الأمان والحماية لنزلاء الخان.


يلي المدخل الرئيس رواق محمول على أعمدة وأكتاف، فيأخذ الرواق شكل ردهة تقوم بتوزيع أقسام الخان، وهناك أيضاً الإيوان في بعض الخانات، كما اعتنى المعمار بالواجهات الداخلية بواسطة النقوش والزخارف الإسلامية أو بالكتابات المحفورة على الجدران، واستخدمت العناصر المعمارية الإسلامية في إنشاء الخانات، كالأقواس والقناطر والمقرنصات والقبب وغيرها.

هناك نقاط تشابه كبيرة بين عمارة الخان والعمارات الأخرى، من حيث المبدأ والالتفاف نحو داخل الفناء، فيذكرنا هذا التصميم بتصميم البيت العربي، أو البيمارستانات وغيره من العمارات الأخرى.

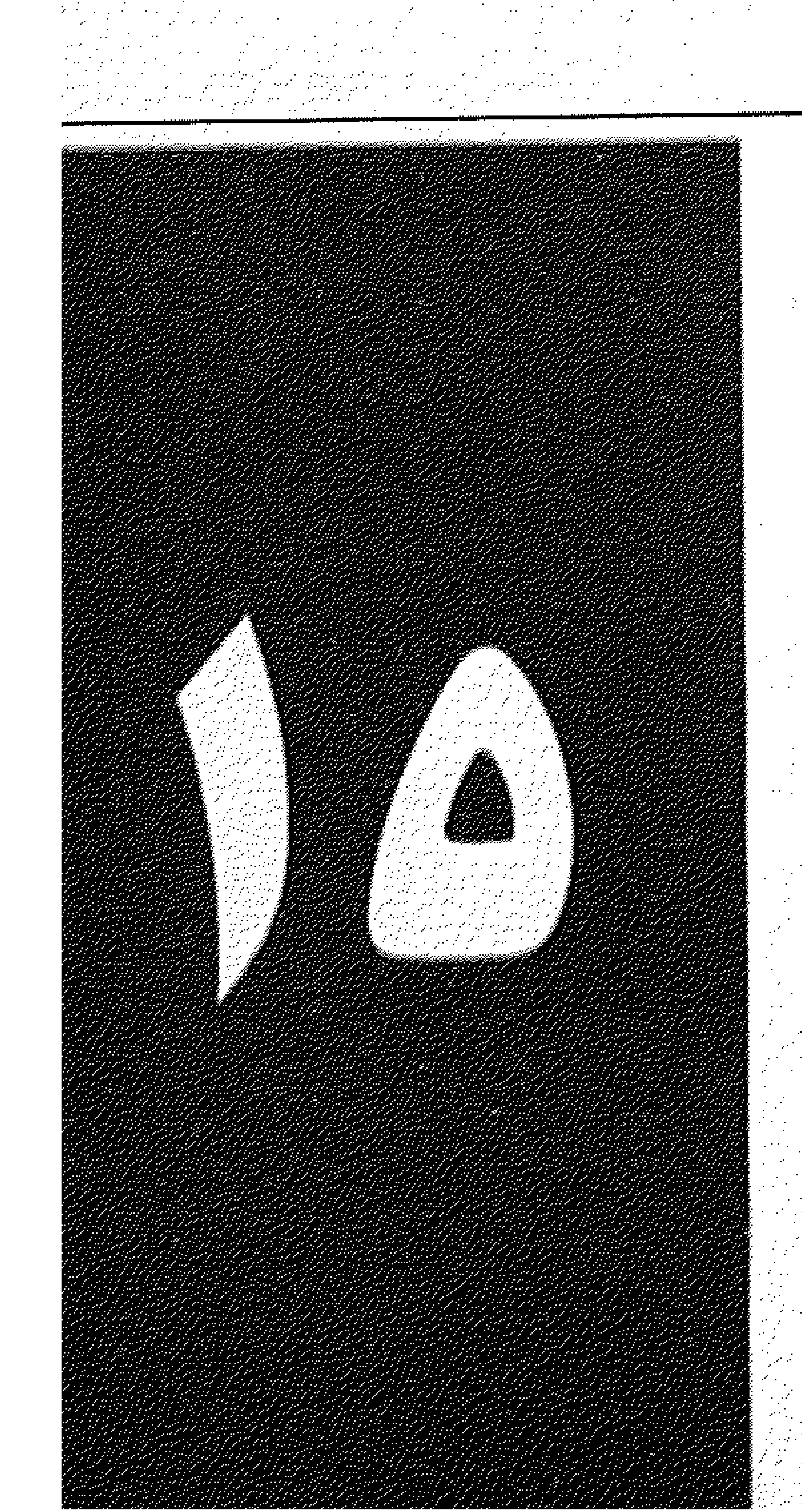
أما عن مادة البناء الأساسية، فهي حجرية، لتوفر الحجارة من جهة، ولمتانة هذه المادة الإنشائية وصلابتها، مما يجعل الخان أشبه بالحصن الحصين لارتفاع جدرانه، ولعازليته عن البيئة المحيطة، فالمعمار صنع بيئة داخلية خاصة بالخان، وقام بعزلها عن البيئة الخارجية؛ فلهذا السبب نجد أن جدران الخان صماء، ونوافذه شبه معدومة. .

تبقى الحركة التجارية مستمرة في جريانها وتدفقها بين الدول والمدن، رغم التطور العام الذي رافقها لعدة عصور.

وتبقى الخانات رمزاً للعمارة التجارية، ولاسيما الخانات المتصلة بالأسواق الشعبية في مراكز المدن. ولكن يعترينا الحزن والأسى كلما زرنا خاناً خضع لتشويه ما، أو أهمل وتهدمت بعض أقسامه، وكأن الإنسان يجهل معنى المحافظة على التراث العريق الذي هو مصدر اعتزاز والهام لنا جميعاً، ومن دون المحافظة على تراثنا لا يمكننا تحقيق أي تقدم أو تطور نحلم أو نسعى إلى الوصول إليه. .



القسطنطينية. . تاريخ وحضارة



القسطنطينية. . تاريخ وحضارة ❖

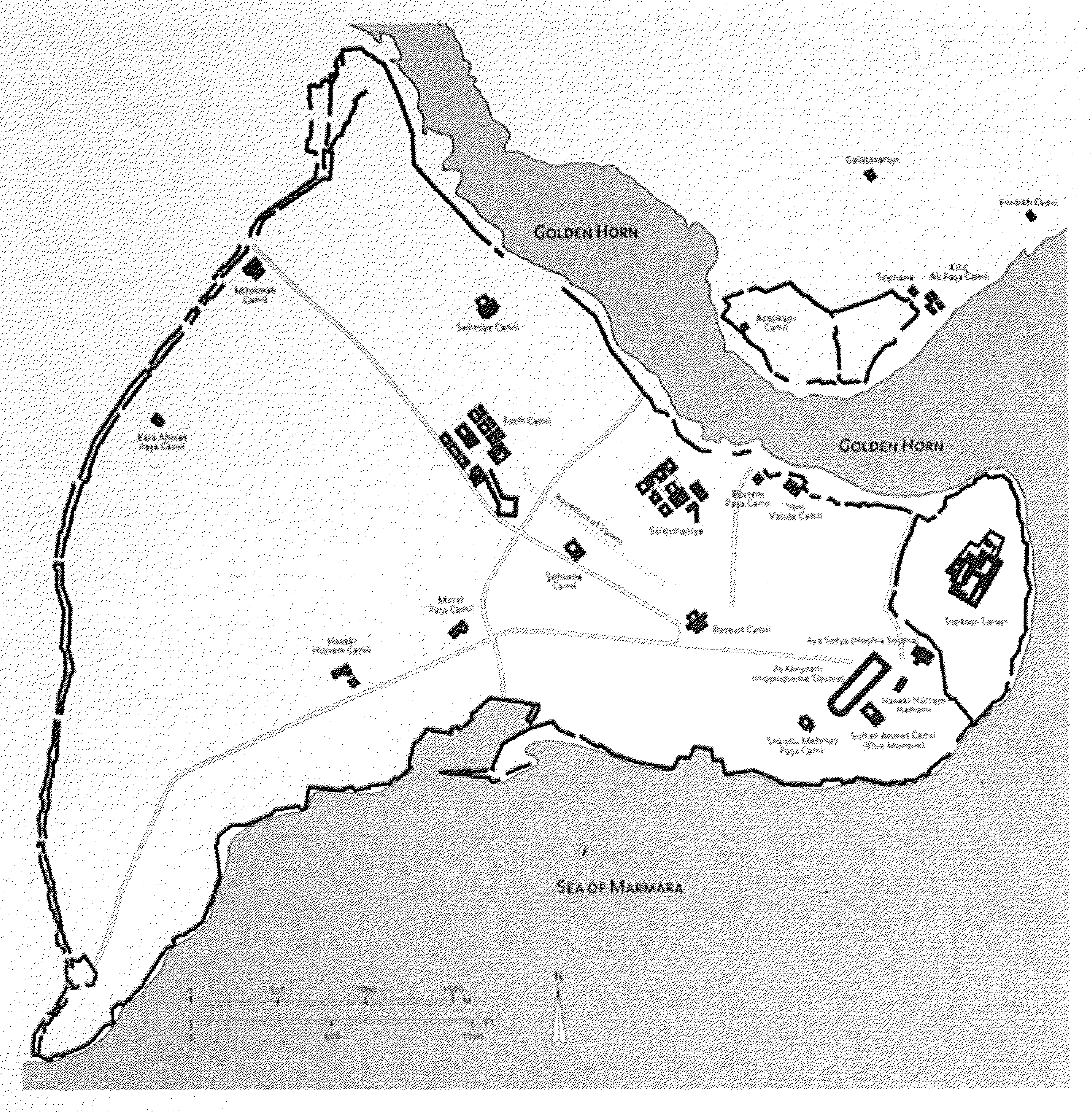
بعد طول ترحال الأتراك وتنقّلهم وهجرتهم من أواسط آسيا نحو الأناضول، مع خوضهم عدداً من الغزوات والمعارك، منذ أن عيّن عثمان أميراً على تلك القبيلة الصغيرة عام ١٢٨١م، تحقق حلمه وهو على فراش الموت بفتح مدينة بورصة عام ١٣٢٦م، على يد ولده أورخان. جاعلاً منها عاصمة ونواة أساسية لانطلاقة إمبراطوريته العثمانية.

ومع توسع هذه الإمبراطورية، انتقلت العاصمة إلى مدينة أدرنة. ليبقى الحلم الحقيقي الذي ظلّ يؤرّق جميع المسلمين من عرب وأتراك، هو فتح القسطنطينية. تلك المدينة المنيعة بأسوارها المرتفعة والمحصّنة على الرغم من جميع المحاولات المكللّة بالخسارة أو الانسحاب. وليكون صاحب هذا النصر العظيم السلطان الشاب محمد الثاني، الملقب بالفاتح، لفتحه القسطنطينية عام ١٤٥٣م. محققاً البشرى التي زفها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، بقوله: "لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش"(١)

محولاً هذه المدينة العريقة ذات الموقع الإستراتيجي الفريد الذي يربط بين قارتّي آسيا وأوروبا من عاصمة رومانية إلى عاصمة للإمبراطورية العثمانية، حافلة بالأوابد المعمارية العثمانية، كالمساجد والقصور والحمامات والمدارس، وقد ظلت محافظة على شكلها المتين حتى يومنا هذا، بعدما كانت مسرحاً لأحداث سياسية ودينية وعلمية وأدبية واجتماعية دامت ستة قرون كاملة. وتتحول مدينة إستانبول إلى متحف مفتوح وغني يحار الباحث أو السائح فيه، من أين يبدأ في قراءة تاريخ هذه المدينة العريق ودراسته.

❖ مجلة الحرس الوطني، العدد ٢٤٢ - جمادى الآخر ١٤٢٣ هـ، الموافق اغسطس (آب) ٢٠٠٢م

١- مسند أحمد ٤/٣٣٥



خريطة لمركز مدينة إستانبول التاريخي.

القسطنطينية..عاصمة رومانية:

تعود أهمية هذه المدينة لموقعها الإستراتيجي المهم، ولكونها مركزاً مهماً للنصرانية. . ففي عام ٣٧٥م، قام الإمبراطور تيودور بتقسيم إمبراطوريته الرومانية إلى إمبراطوريتين: إحداهما الغربية، وعاصمتها روما، والأخرى الإمبراطورية الشرقية، وعاصمتها القسطنطينية.

شهدت هذه المدينة عدّة أحداث، مع مرورها بفترات ازدهار وتدهور دامت

عشرة قرون على الرغم من كل ما خضعت له من حروب ضد الفرس في آسيا، وضد البرابرة في أوروبا، بالإضافة إلى فتوحات شمال إفريقية. .

من أهم تلك المراحل فترة عهد هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) الذي منحها نهضة جديدة عند استعادته بلاد الشام ومصر وآسيا الصغرى.

ظلت العلاقة بين الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية على خلاف دائم وتوتر مستمر، بسبب التباين في وجهات النظر بين بطريرك القسطنطينية وبابا روما حول تولّي الرئاسة فيما بينهما. فأصدر كل طرف قراراً ضد الآخر بحرمانه من الرئاسة، مما ولّد نزعة بين البيزنطيين والغربيين. وخير دليل على ذلك عندما دخل الصليبيون القسطنطينية مع بداية القرن الثالث عشر، وفي حملتهم الرابعة، قاموا بإحراق المدينة وبنهب خيراتها وقتل الأبرياء منهم. ثم قام الروم على يد ميخائيل الثامن عام ١٢٦١م باسترداد القسطنطينية.

بدأ الخوف والهلع يدّبان في قلب الإمبراطور يوحنا الخامس حيال توسّع الإمبراطورية العثمانية بانتصاراتها المتلاحقة، وخاصة على البيزنطيين عام

انتشار الأبنية المشرفة على الممر البحري لمدينة إستانبول - تصوير: المؤلف.





البيئة الخضراء المحيطة على جانبي الممر البحري لمدينة إستانبول - تصوير: المؤلف.

١٣٦٣م، فقام بدفع الجزية للسلطان مراد كي يضمن له الاستمرارية بالتربع على العرش محاولاً إرضاء العثمانيين، ومتفادياً أي اصطدام معهم.

وفي عام ١٣٢٩م، وعلى غير العادة، توجه إلى روما ليعلن للبابا ولاءه المطلق طالباً منه العفو والسماح بعد أن اعتنق المذهب اللاتيني مقابل أن يسانده ويدعمه ضد العثمانيين. وكان هناك محاولة أخرى عام ١٣٩٩م، عندما توجه الإمبراطور مانويل إلى أوروبا طالباً الدعم والحماية، ولكن محاولاته باءت بالإخفاق.

القسطنطينية في العهد الأموي والعباسي:

مع بزوغ فجر الإسلام وانطلاقته من الجزيرة العربية نحو بلاد الشام كان للعرب عدة محاولات لطرق أبواب القسطنطينية.



جسر غلطة الواقع في مدينة إستانبول.

ففي عام ٦٦٨/٦٧٢م أرسل معاوية بن أبي سفيان أسطولاً بقيادة سفيان بن عوف لمحاصرة المدينة دام عدة أعوام، غير أن هذه المحاولة لم تنجح لسببين رئيسين: أولاهما مناعة أسوار المدينة، والثاني يعود إلى استخدام السلاح الناري من قبل الروم ضد العرب، مما دفعهم إلى الانسحاب دون إحراز أي نصر.

ومن بين الذين شاركوا في هذا الحصار الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري، حامل راية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد وافته المنية عند أسوارها. وبعد فتح القسطنطينية قام الشيخ (أك شمس الدين) عالم السلطان محمد الفاتح بتثبيت مكان ضريحه. كما أمر بتشييد مسجد يحمل اسم هذا الصحابي الجليل ويضم ضريحه. وسميت المنطقة بأكملها باسم أيوب. (علماً أن سكان هذه المنطقة يتميزون بالتزامهم مبادئ الشريعة الإسلامية إلى يومنا هذا).

في عام ٧١٣- ٧١٤م، أرسل الخليفة الوليد بن عبد الملك أخاه مسلمة على رأس جيش بري وبحري في محاولة أخرى، لكن سوء حالة الطقس التي واجهتهم من عواصف وهبوب الرياح واشتعال النيران التي سددها الروم نحو الأسطول البحري أدى إلى انسحاب جيش مسلمة من جديد.

وفي عهد الخليفة العباسي المهدي أرسل ابنه هارون الرشيد عام ٧٨١م محاولاً فتح القسطنطينية، ولشدة خوف الجيش البيزنطي وافقوا حينها على شروط الصلح؛ وذلك بدفع جزية سنوية ومقدارها ٧٠,٠٠٠ دينار ذهبي.

ظلت المعارك ونقض العهود التي قام بها البيزنطيون مستمرة، مما دفع هارون الرشيد إلى الزحف على رأس جيشه نحو الأراضي البيزنطية، فوافقوا من جديد على دفع الجزية. وعاد ولم يكتب له شرف الفتح.

القسطنطينية في العهد العثماني:

تأسست الدولة العثمانية وتوسّعت بسرعة خلال القرن الرابع عشر، وكانت طلائع جيوشها في مرحلة تطور وتزايد مستمرين يوماً بعد يوم.

وصلت إلى أسوار القسطنطينية عام ١٣٧٥م في أول محاولة لها على يد السلطان مراد الأول، ثم تلاها محاولات أخرى خلال حكم السلطان بايزيد الملقب



مشهد جوي لمدينة إستانبول، ويظهر فيه القرن الذهبي (الخليج).

(يلدريم) أي: العاصفة، لقوته ولصلابة جأشه، والذي دام حكمه من عام ١٣٨٩م حتى عام ١٤٠٢م، بعد أن سقط أسيراً في أيدي تيمورلنك زعيم التتر.

مرّت بعدها الدولة العثمانية بفترة ركود وتدهور دامت عشرين عاماً. إلى أن استعادت قوتها متجاوزة تلك المحنة العصيبة لتعاود محاولاتها، ففي عام ١٤٢٢م كانت هناك محاولة جادة من قبل السلطان مراد الثاني بحصار القسطنطينية مستخدماً المدفعية التي كان لها دور في تهديم بعض أجزاء أسوار المدينة. لكن هذا الحصار لم يستمر طويلاً لانسحاب السلطان مراد الثاني وهو مضطر لإخماد الفتن الداخلية التي واجهته، وقبل وفاته عام ١٤٥١م، أوصى بتنصيب ولده محمد الثاني سلطاناً على الدولة العثمانية، واضعاً فيه كل آماله وطموحه وأحلامه في فتح القسطنطينية، بعد أن زرع في قلب ولده مخافة الله وبعد أن ربّاه تربيته الصالحة، وعلّمه على أيدي أعظم علماء الدولة العلوم الدينية والأدبية منذ نعومة أظافره، وتعلّم اللغة العربية والفارسية، إلى جانب اللاتينية واليونانية والأرمنية، وأحب الشعر وفنونه.

دخل السلطان محمد الحياة السياسية عن عمر يناهز الثالثة عشرة بعدما تنحى له والده السلطان مراد الثاني عن الحكم على صغر سنه، وقد كان حينها السلطان مراد الثاني واثقاً بقيادة ولده الصغير خاصة وأن الحالة السياسية التي دخلتها الدولة العثمانية بعد معاهدة الصلح مع المجر عام ١٤٤٤م كانت مستقرة، بيد أنهم نقضوا العهد، وهاجموا الدولة العثمانية بحملة عتيدة.

كان هذا الموقف أول امتحان سياسي وعسكري يقف أمامه السلطان محمد الثاني، وبكل ذكاء وحنكة أرسل خطاباً إلى والده الذي آثر التفرّغ للدين كتب له فيه: (إذا كنتم أنت السلطان فعد، وتولّ قيادة جيشك. وإذا كنا نحن السلطان، فإني أذكّرك يا والدي بما أوجبه الله على المسلمين من حق الطاعة لولي أمرهم، وإني آمركم بإطاعة الأمر. لتعد إلى أدرنة وتتولّ أمر جيوشنا وقيادتها . .)

وما إن اطلع الأب على رسالة ولده حتى اغرورقت عيناه، مدركاً أنه قد أحسن تربية ولده، وعاد ليعتلي العرش من جديد، ولتكلل عودته بنصر عظيم سمّي بانتصار (وارنة) الذي كان بتاريخ التاسع من نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٤٤٤م. وبقي السلطان مراد الثاني ممسكاً بزمام الحكم، بعدما عاد محمد الثاني والياً لمدينة (مانيسا).

تلك هي البيئة العظيمة التي صنعت وصقلت شخصية محمد الفاتح، ليكون بالإضافة إلى عبقريته العسكرية الفذة محباً للعلم والأدب، وحافظاً لكتاب الله. . وقد أغدق على رجال الدين والعلم الجوائز الثمينة، وكان يشارك في المناظرات العلمية. وقد رفع من مكانة العلماء وقرّبهم منه خلال فترة حكمه، وانعكست هذه الثقافة على النهضة العلمية، وذلك بإنشاء المعاهد العلمية والمدارس، فقد حقق التوازن التام بين حبه للعلم والأدب، والفن، وبين السياسة والقيادة العسكرية الحكيمة التي صنعت منه قائداً وفاتحاً للقسطنطينية.

القسطنطينية قبيل الفتح العثماني:

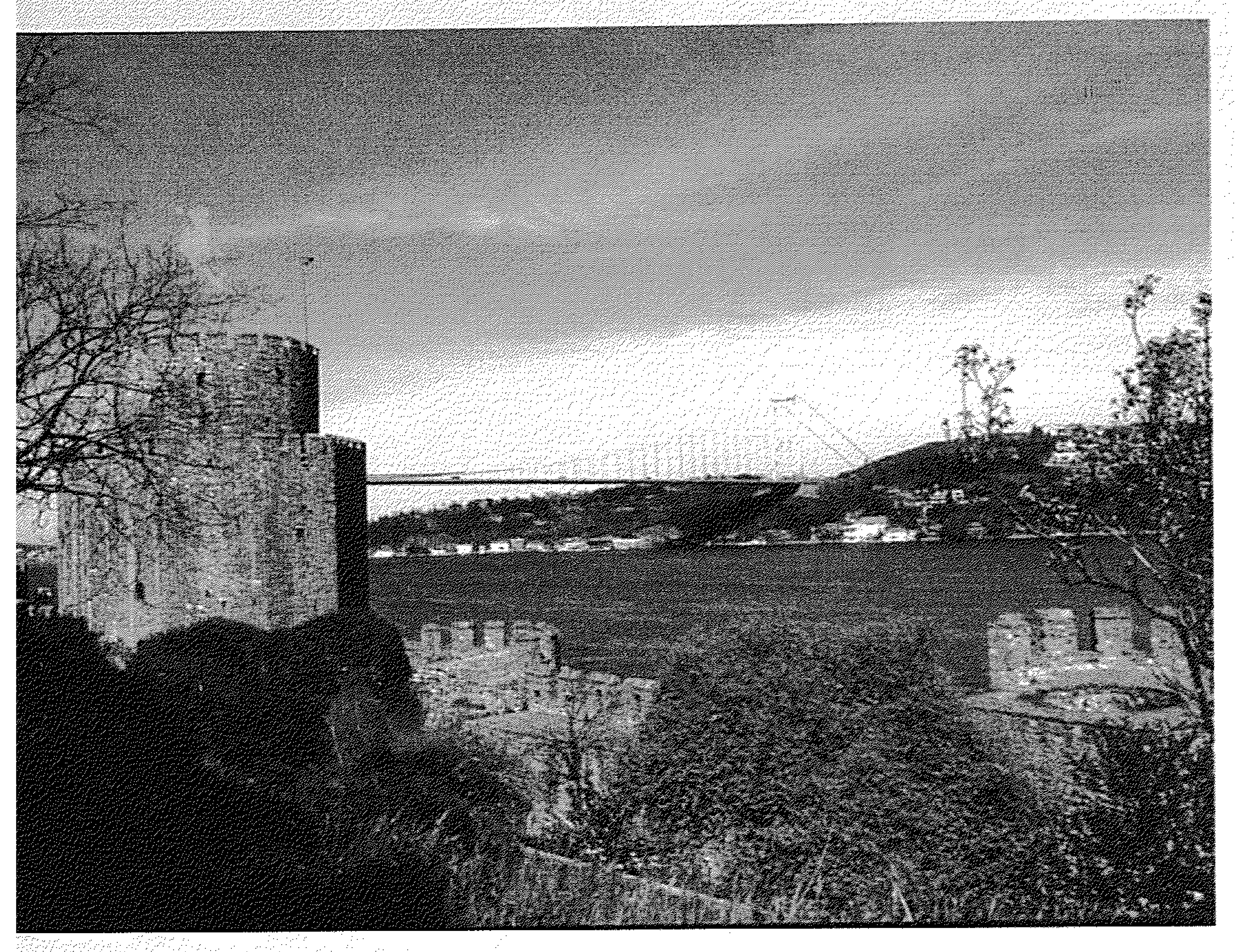
توفي الإمبراطور البيزنطي عام ١٤٤٨م، ليتربّع ولده قسطنطين الحادي عشر العرش في مرحلة يائسة شهدتها الإمبراطورية البيزنطية، بعدما اشتد ساعد

الدولة العثمانية، وأصبحت محيطة بالقسطنطينية من كل جانب. وكان السلطان محمد الثاني على دراية تامة بصعوبة المهمة التي كانت تنتظره، لكن إيمانه الكبير بالمولى عز وجل، وإصراره وتحدّيه مع دراسته العسكرية لموقع القسطنطينية، ولجميع الجهات المحيطة، كل ذلك ساعده على تحقيق هدفه. فكان دائم التنقل حول أطراف أسوار هذه المدينة المحصّنة مفكراً باحثاً عن سبل إحداث ثغرات لدخول جيوشه.

أول قرار اتخذه بخصوص الفتح، الأمر بتشييد قلعة روملي حصاري (قلعة الروم) عند أضيق نقطة من الممر الذي يفصل بين القارة الأوروبية والقارة الآسيوية، ومن الجهة الأوروبية التي تقع فيها مدينة القسطنطينية، وتبعد عنها سبعة كيلومترات فقط. وللقلعة شكل مثلثي، وأبراج ثلاثة موّزعة على كل زاوية منها، وبارتفاعات متباينة، يصل ارتفاع البرج الأول عن سطح الأرض إلى ٣٥,٢٥

انتشار البيوت الخشبية على الممر البحري من القارة الآسيوية لمدينة إستانبول - تصوير: المؤلف.



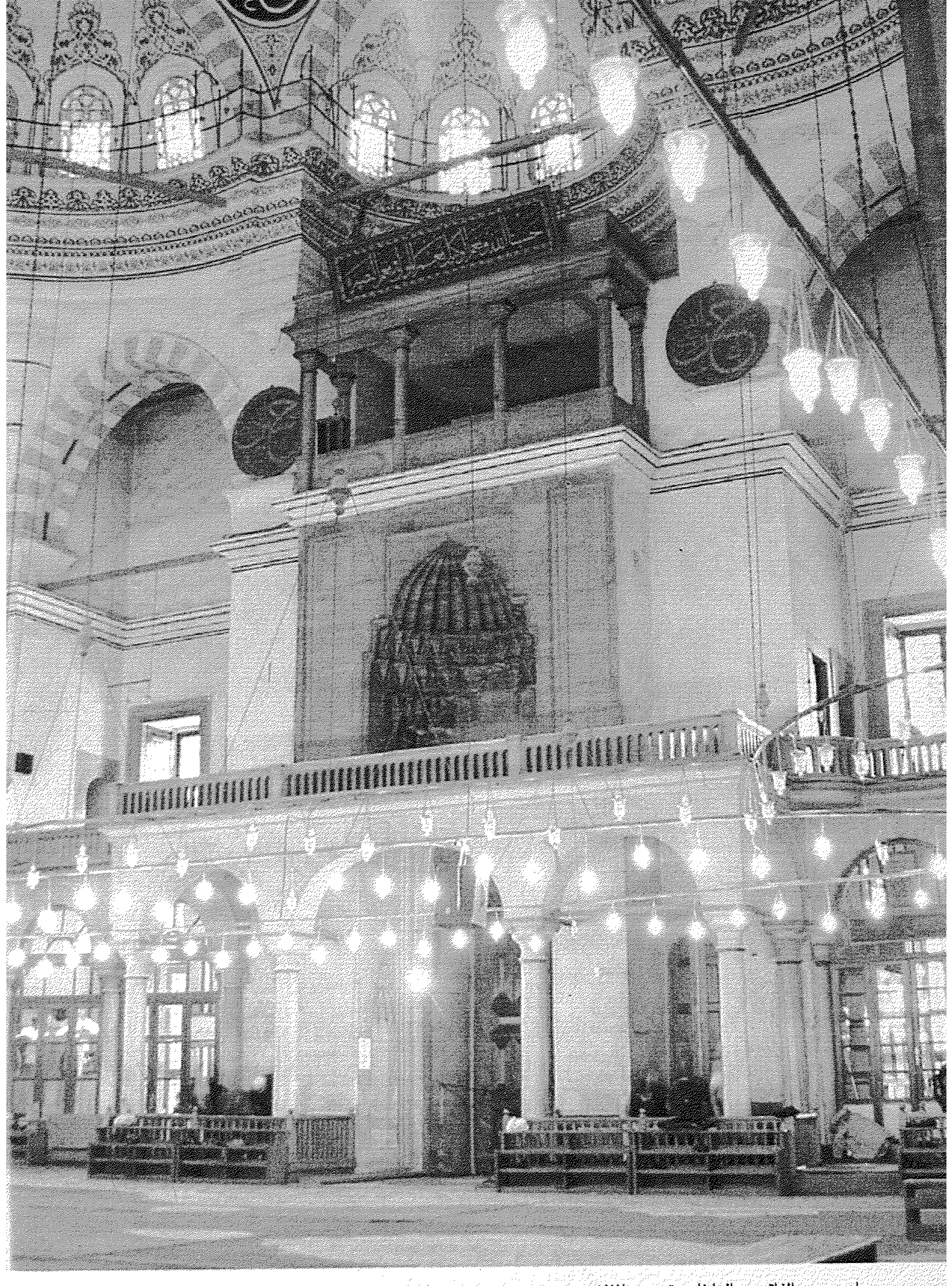


القلعة الرومية التي بناها محمد الفاتح - تصوير: المؤلف.

متراً وبقطر ٢٣,٣٠ متراً. وهو الأقرب إلى المدخل، وذو الأضلاع الاثني عشر، والمسمى بخليل باشا، بالإضافة إلى برج الثالث بظانوس باشا، قطره ٢٦,٧٠ متراً، وبلغت سماكة جدران القلعة عشرين متراً.

قام السلطان محمد بالمشاركة في عملية البناء مع كبار رجال الدولة والعلماء، ليستنهض همم جيشه، وقد بدأت مرحلة البناء بتاريخ ٢١ مارس (آذار) ١٤٥٢م وانتهى في نهاية شهر يوليو (تموز) من العام نفسه، مستغرقة مدة زمنية قياسية في تشييدها.

وبهذا بدأ العثمانيون السيطرة على جميع السفن المحملة بالإمدادات والقادمة من جهة الشرق. علماً أن السلطان بيازيد قد شيدّ سابقاً قلعة الأناضول في



جامع محمد الفاتح من الداخل - تصوير: المؤلف.

الجهة المقابلة لقلعة الروملي على الطرف الآسيوي، لتكون مصدر إلهام للسلطان بأن يقوم بتشييد قلعة الروملي حصاري.

تابع السلطان محمد استعداداته بعدما وضع جميع القرى المجاورة والمحيطة بالقسطنطينية تحت سيطرته قاطعاً أي إمداد أو مساعدة عنها. بالإضافة إلى تطوير صناعة المدافع التي قام أحد المهندسين المجريين الذي يدعى (أوربان) بصناعة عدد منها لتؤدي دوراً مهماً وأساسياً في فتح القسطنطينية، ووصل عددها إلى ٥٥ مدفعاً، كان أضخمها المدفع السلطاني الذي يصل وزنه إلى سبعمائة طن، ويجره مئة ثور بالإضافة إلى مئة رجل.

وفي الخامس من إبريل (نيسان) عام ١٤٥٣م بدأت المدافع العثمانية إطلاق قذائفها نحو أسوار المدينة. كما كان لهم محاولات من الجهة الشرقية، أي: من ناحية البوسفور (الممر البحري)، وفي منطقة (بشكتاش) حاول الأسطول العثماني الاقتراب لكن السلسلة الحديدية التي وضعها الرومان لمنع مرور السفن العثمانية عند مضيق القرن الذهبي الفاصل بين منطقة (غلطة) وأسوار القسطنطينية قد أعاقت دخول السفن على الرغم من محاولات الأسطول العثماني بقيادة القائد بالطة أوغلي الذي أبلى بلاءً حسناً، ولكن دون جدوى، مما دفع السلطان محمد إلى البحث عن طريقة أخرى تمكّنه من الاقتراب نحو أسوار المدينة من جهة القرن الذهبي.

في تلك الفترة أصاب العثمانيين خيبة أمل بعدما استطاعت خمس سفن إيطالية أن تدخل بحر مرمرة، مرسلة من روما عاصمة الكنيسة الغربية لتقديم العون لقسطنطين الذي طالما طلب أن يقدّموا له يد العون والنجدة، بعدما أدرك إصرار العثمانيين على فتح مدينته بشتّى الوسائل.

عندها وقف السلطان محمد الثاني أمام امتحان عسكري آخر ليثبت مقولة: " الحرب خدعة"، مؤكداً معها مهارته وعبقريته، عندما أمر بنقل سفنه من مياه البوسفور إلى مياه القرن الذهبي براً، عن طريق شمال (غلطة). فوضعت الألواح الخشبية المستوية المدهونة بالزيوت لكي تساعد في عملية انزلاق السفن، بعدما قاموا بتسوية الطريق الذي يصل طوله إلى عشرة كيلو مترات تقريباً.

ونقل في ظلام الليل سبعين سفينة لتكون هذه المحاولة الجريئة أقوى محاولة يقوم بها السلطان محمد الثاني. وبالفعل، مع إشراقة شمس الصباح، استيقظ الروم بكل ذهول وتعجّب على التكبير المنبعث من السفن العثمانية الراسية في القرن الذهبي على الرغم من إغلاقهم المخل عن طريق سلسلة حديدية غليظة تمنع دخول السفن.

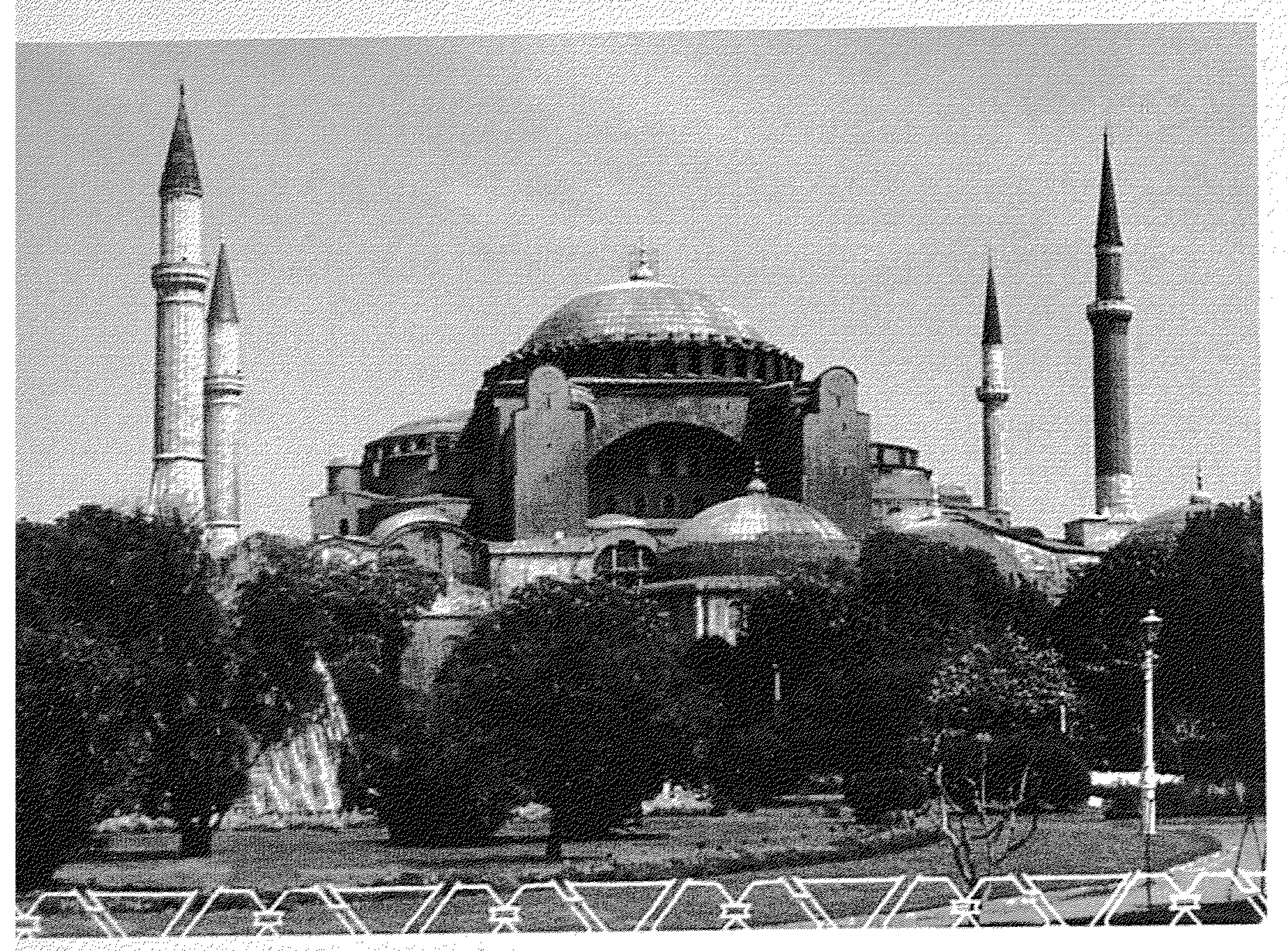
ومع هذه الحركة الذكية كان العثمانيون يقتربون نحو النصر والفتح بكل ثقة، وكانت محاولاتهم وهجماتهم مستمرة على جميع الجهات، فمنهم من كان يحفر الأنفاق ليتمكن من الدخول تحت سور المدينة، والآخر يطلق القذائف نحو الأسوار، بالإضافة إلى القلعة الخشبية التي تفوق ارتفاع سور المدينة، وقد صنعها الأتراك في ليلة واحدة، وقاموا بتغطيتها بالجلود السميكة المبللة بالماء لكي تبطئ اشتعالها بنيران الروم.

القسطنطينية والفتح العظيم:

أدرك السلطان محمد الثاني أنه قد صار على مقربة من النصر المحتّم في فتح القسطنطينية وحرصاً منه على حقن دماء الأبرياء بعدما دفعه جانبه الإنساني والديني القوي إلى إرسال رسالة إلى الإمبراطور قسطنطين يطلب منه أن يستسلم، ويفتح أبواب القسطنطينية، غير أن قسطنطين رفض هذا الطلب بكل تكّبر وعظمة.

حينها كان رد السلطان محمد الثاني واضحاً وجلياً، بعدما بذل قصارى جهده بأن يدخل القسطنطينية دون مزيد من القتل والضحايا من كلا الطرفين، فقال جملته الشهيرة: " حسناً عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش، أو يكون لي فيها قبر. . "، فأيقظت تلك الجملة مشاعر الجيش العثماني وشحذت هممه طالباً من جيوشه الصوم والصلاة والدعاء لله عزو وجل أن يمدّهم بالعون والمدد.

وبعدها كانت ساعة الصفر عندما اختلطت أصوات التكبير بأصوات قرع طبول الحرب في منتصف الليل إيذاناً ببدء المعركة النهائية. وكان الهجوم



كنيسة أياصوفيا، بعدما حولّها محمد الفاتح إلى جامع - تصوير: المؤلف.

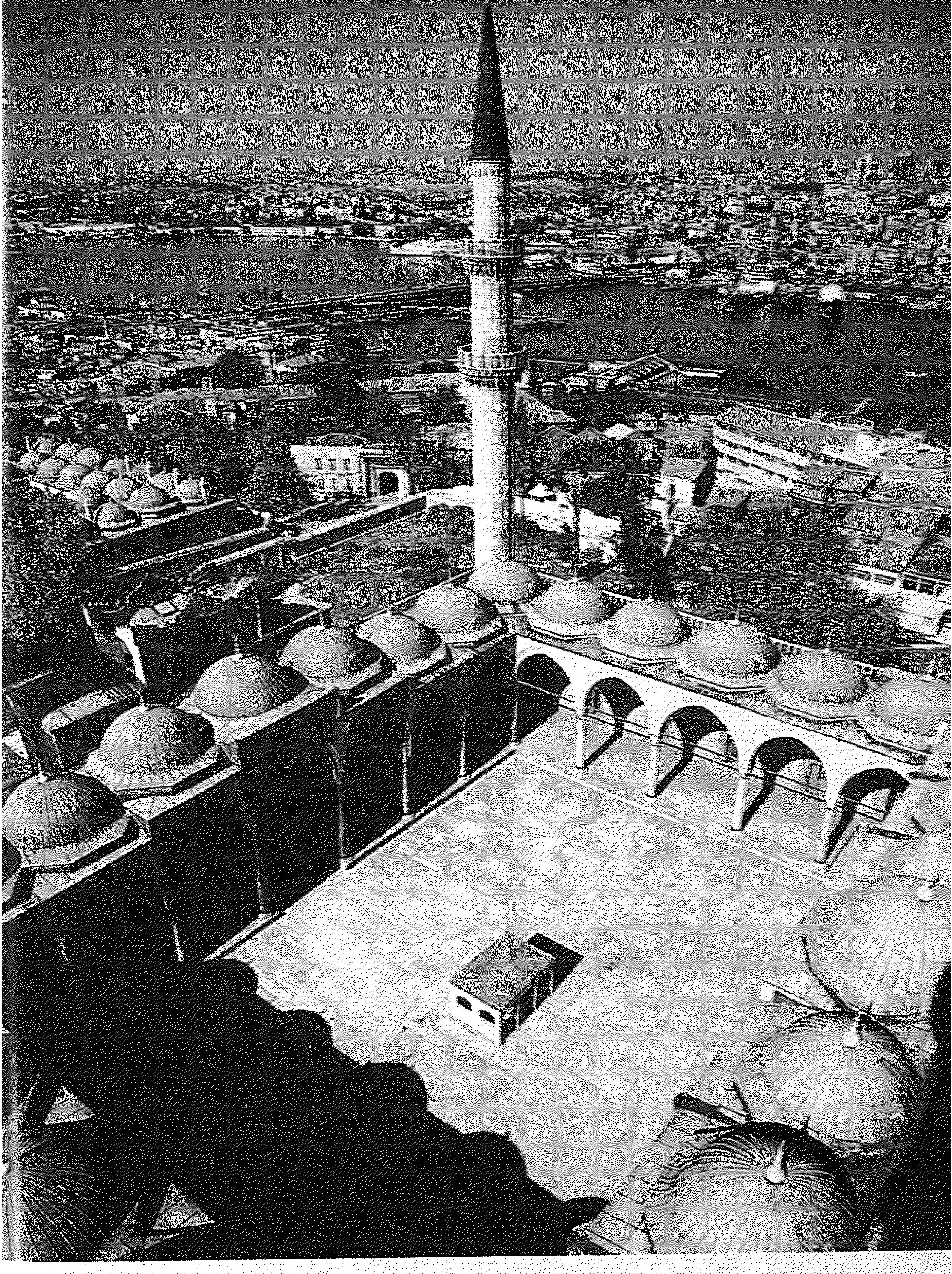
على أسوار المدينة ومن كل الجهات من البر والبحر، وبعدها تقدمت فرقة الانكشارية المنتظرة دورها للمشاركة وهي على استعداد تام لتدخل هذه الجيوش القسطنطينية عند وادي (ليكوس)، وتدفقت إلى المدينة لترفع الأعلام العثمانية معلنة النصر الذي طال أمده وانتظاره.

سقط الإمبراطور قسطنطين قتيلاً في أرض المعركة مثلما سقطت مدينته في أيدي السلطان محمد الثاني بعد حصار مكثّف دام ٥١ يوماً. وفي اليوم التالي من النصر يوم الاثنين من مايو (أيار) عام ١٤٥٣م دخل السلطان محمد الثاني المدينة بكل فخر واعتزاز، ممتطياً جواده الأشهب، والكل يكبّر ويهلل، ليتوجه هذا الشاب المتواضع الورع الذي لم يتجاوز عمره الخامسة والعشرين من عمره بعد، إلى كنيسة أياصوفيا (سانت صوفيا) محققاً رغبة طالما راودته، وأرّقت لياليه ألا وهو



الحدائق المحيطة بجامع السليمانية في مدينة استانبول – تصوير: المؤلف.





جامع شهزادة الذي بناه المعماري سنان في القرن السادس عشر.

الصلاة في تلك الكنيسة الشهيرة فاستقبل وجهة الكعبة المكرّمة ودموع النصر تبلل لحيته، إماماً مصلياً بجيوشه مكبراً وساجداً للمولى تعالى على كرمه وجوده. وتذكر الروايات التركية أن السلطان قد كبّر ثلاث مرات إلى أن شهد الكعبة أمام عينيه فصلى وشكر الله عزو وجلّ، مذكراً جيوشه بالحديث النبوي الشريف الذي بشرّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتح القسطنطينية.

وأمر جيوشه ألاّ يقتلوا الأبرياء، ولا ينهبوا الأموال، وأن يحسنوا معاملة الأسرى. تلك هي خصال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان قدوة السلطان محمد الفاتح، كما طلب أن يدفن الإمبراطور قسطنطين جوستنيان بشكل يليق به بعدما أبلى بلاءً حسن في الدفاع عن مدينته. كما غيّر اسم القسطنطينية إلى إستانبول ومعناها مؤلف من كلمتين هما: (إسلام) و (بول)، أي مركز الإسلام أو إيجاد الإسلام.

واحتفلت جميع البلاد الإسلامية بهذا الفتح مرسلاً رسائل الفتح لكل من: شريف مكة وسلطان مصر وشاه إيران وأمير القرمان وأمراء المسيحيين. وقد أجابوا جميعهم على رسائله بالمباركة والتأييد والدعم للسلطان الفاتح.

دامت فترة حكم السلطان محمد الفاتح ثلاثين عاماً (١٤٥١ - ١٤٨١) م، تم خلالها تشييد ٣٠٠ مسجد. كان أهمها المسجد الذي يحمل اسمه حيث يرقد الآن، بالإضافة إلى ٥٧ مدرسة و ٥٩ حماماً، و٢٩ قيسارية، لتكون نواة لانطلاقة وولادة فن العمارة العثمانية فيما بعد.

وبهذا نلاحظ أهمية الدور الذي أدّاه السلطان محمد الثاني في تاريخ العالم الإسلامي، وفي تاريخ الدولة العثمانية، ويعود ذلك إلى التربية الصالحة التي حاز عليها، من النواحي الدينية والأدبية والعلمية والعسكرية، لتنصهر جميع هذه الصفات في بوتقة شخصيته المتميزة، ويبقى السلطان الفاتح نبراساً وقدوة حسنة لكل من لحقوا به من سلاطين عثمانيين. مخلداً ميراثاً عظيماً يدفعنا لأن نفتخر به ونعتز بأعماله وفتوحاته ، لنسترجع ذكراه كلما زرنا تلك المدينة الرائعة التي أطلق عليها الأتراك مدينة التلال السبع، بما حباها الله من جمال أخّاذ، أو كلما قلّبنا صفحات تاريخ هذه المدينة الحافل بالذكريات والعبر.

المصادر

المراجع العربية

١- القرآن الكريم.

٢- القاسمي الدمشقي، العلامة الشيخ محمد جمال الدين: موعظة المؤمنين من أحياء علوم الدين. الجزء الأول، المكتبة الأدبية، حلب ١٩٧٠م.

٣- القزويني، محمد إبن يزيد: سنن إبن ماجه، حققه وصنع فهارسه محمد مصطفى الأعظمي، شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٤- إبن حنبل، مسند الإمام أحمد: مؤسسة قرطبة، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية.

٥- أبو خليل، شوقي: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة - دار الفكر، دمشق ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦م.

٦- أصلان آبا، أوقطاي: فنون الترك وعمائرهم، ترجمة :أحمد محمد عيسى، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإستانبول- تركية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٧ م.

٧- أكبر، جميل عبد القادر: عمارة الأرض في الإسلام - مقارنة الشريعة بأنظمة العمران الوضعية، دار البشير، عمان - الأردن، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٨- الألفي، أبو صالح: الفن الإسلامي- أصوله، فلسفته، مدارسه، دار المعارف، الطبعة الثالثة - القاهرة، مصر١٩٧٤م.

٩- البهنسي، عفيف: العمران الثقافي بين التراث والقومية، دار الكتاب العربي- دمشق، سورية، الطبعة الأولى١٤١٧-١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

١٠- الحصين، محمد عبد الرحمن: البنية العمرانية لمدينة الرياض في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، خاص، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

١١- الخضر، عبد المعطي: تاريخ العمارة (٣)، العمارة في العصور الوسطى، العمارة الإسلامية والأوربية، مطبعة جامعة حلب، حلب، الجمهورية العربية السورية، ١٩٩٠م.

١٢- الصايغ، سمير: الفن الإسلامي- قراءة تأملية في فلسفته وخصائصه الجمالية، دار المعرفة، بيروت، لبنان ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

١٣- العش، يوسف: الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان، دار الفكر، دمشق، الجمهورية العربية السورية، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥ م

١٤- براكن، جون: حدائق النوافذ، الدفيئة النافذية، ترجمة: المهندس دريد نوايا، خاص، طبع بالتعاون مع دار الدراسات المعمارية والبيئة، دمشق، الجمهورية العربية السورية، ١٩٩٠م.

١٥- حيدر، كامل: العمارة العربية الإسلامية - الخصائص التخطيطية للمقرنصات، دار الفكر اللبناني - بيروت ١٩٩٥م.

١٦- حيدر، كامل: العمارة العربية الإسلامية - نشوء المدارس الإسلامية وخصائصها في العصر العباسي، دار الفكر اللبناني، بيروت ١٩٩٥م.

١٧- سختنين، زهور: متحف الطب والعلوم عند العرب" بيمارستان نور الدين" منشورات وزارة الثقافة، المديرية العامة للآثار والمتاحف في الجمهورية العربية السورية، دمشق، ١٩٩٧م .

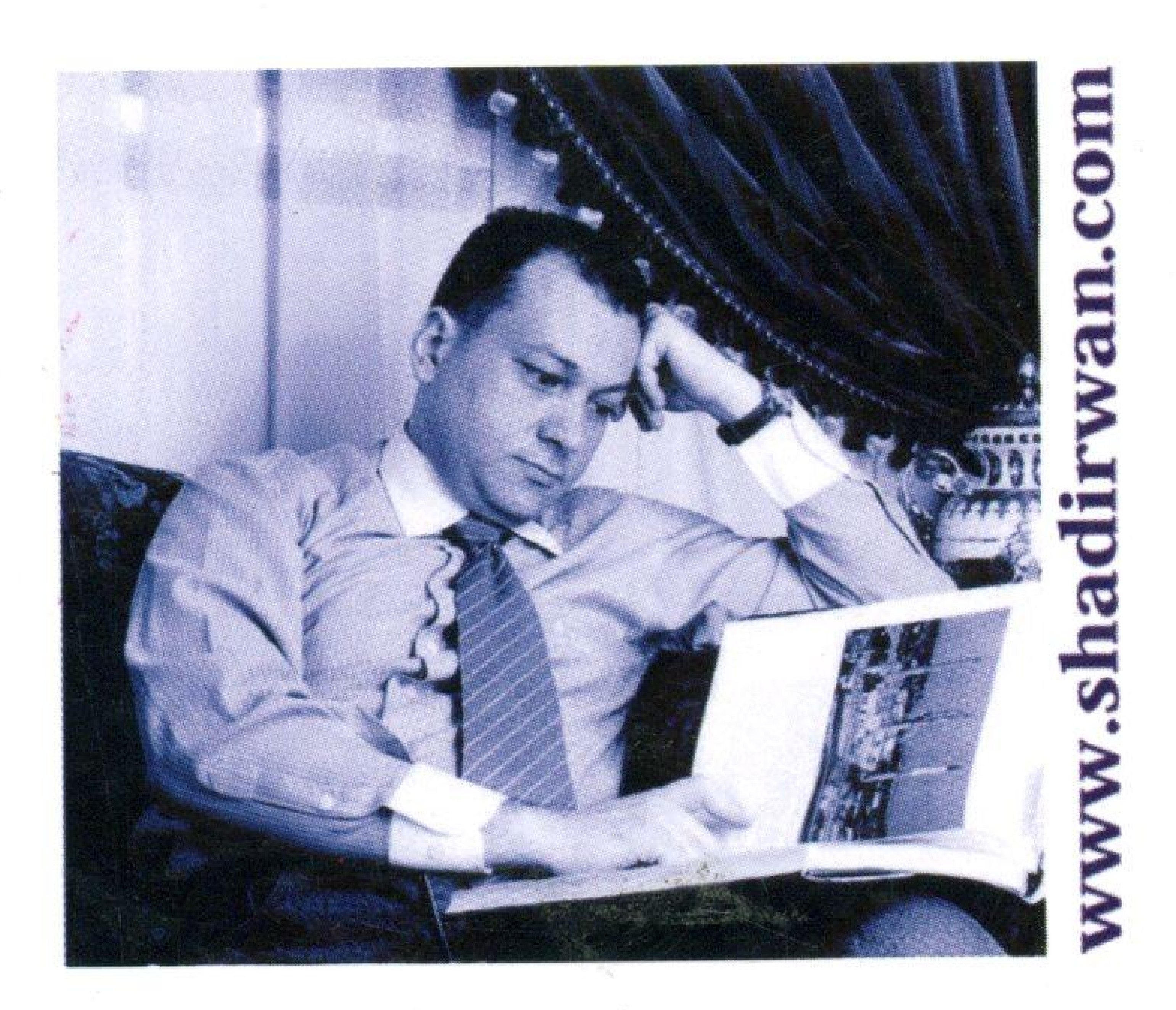
١٨- ساطع، أكرم: القلاع والحصون في سورية، نشر وتوزيع: دار دمشق ومكتبة أطلس، دمشق،

الجمهورية العربية السورية، ١٩٧٥م.
١٩- سلقيني، محي الدين: العمارة البيئية، دار قابس، لبنان.
٢٠- عكاشة، ثروت: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
٢١- عبد الباقي، محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
٢٢- عبد الحميد، محمد محي الدين: سنن أبي داود لأبي داود سليمان إبن الأشعث السجستاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
٢٣- فارس، محمد كامل: الجامع الكبير بحلب تاريخه ومعالمه، منشورات دار القلم العربي بحلب، الطبعة الأولى، حلب، الجمهورية العربية السورية، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
٢٤- فرحات، يوسف: المساجد التاريخية الكبرى، دار الشمال، طرابلس، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
٢٥- زين العابدين، محمود: جولة تاريخية في عمارة البيت العربي والبيت التركي، خاص، الرياض، المملكة العربية السعودية ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٢٦- هونكة، زيغريد: شمس العرب تسطع على الغرب، دار الآفاق الجديدة، دار الجيل، بيروت، أثر الحضارة العربية على الغرب، الطبعة الثامنة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

المراجع الأجنبية

27. APTULLLAH KURAN, Mimar Sinan: Hurriyet Vakfi Yayinlarl - Mas Matbaacillik - LTD. Istanbul - 1986.
28. Copplestone, Trewin: Frank Lloyd Wright, A Retrospective View, Regency House Publishing Limited, 1997, 1998.
29. Gunay, Reha: Mimar Sinan Eserleri, YEM Yayin, Yapi endusteri merkezi yayinlari, Istanbul, Turkiye, 2002.
30. Kucukerman, Onder; Semsi Guner: Anadolu Mimarisinde Turk Evleri, T.C. Kultur Bakanligi Yayinlari, Istanbul, Turkiye, 1995.
31. MAY WOODS & ARETE WARREN: Glass Houses - First Published 1988 By Aurum Press LTD. 25 Bedford Avenue, London WCIB3AT - Reprinted in Paperback 1990.
32. SOZEN, METIN: The Evolution of Turkish Art and Architecture.
33. Stierlin, Henri: Turkey from The Selcks to the Ottomans, Tas- chen?s world Architecture Italy, 1971.
34. THAMES AND HUDSON: Architecture of the Islamic World- Its History and Social Meaning 1978 Thames and Hudson LTD. London, Reprinted 1996.





محمود زين العابدين

من مواليد مدينة حلب، وحاصل على درجة البكالوريوس في الهندسة المعمارية، من جامعة يلدز للتقنية بمدينة إستانبول، عام ١٩٩٤م.

- عضو في كل من:
  - نقابة المهندسين السوريين.
  - اتحاد الصحفيين السوريين.
  - جمعية العاديات السورية.
  - الجمعية السورية لتاريخ العلوم.
  - الجمعية الوطنية للتنمية البيئية.
  - الهيئة السعودية للمهندسين.
  - الجمعية السعودية لعلوم العمران.

- صدر له أربعة كتب بعنوان:
  - **جولة تاريخية في عمارة البيت العربي والبيت التركي. (١٩٩٨ – السعودية)**
  - **البيوت ذات الأفنية الداخلية – بين الماضي والحاضر والمستقبل. (٢٠٠٥ – لندن)**
  - **عمارة المساجد العثمانية. (٢٠٠٦ – لبنان)**
  - **حلب عمارة المدينة القديمة – نماذج وتجارب. (٢٠٠٦ – سورية)**

- شارك في كثير من المؤتمرات الدولية والندوات العربية.

- نشر له عدد من البحوث العلمية، والمقالات المعمارية، في مجلات وصحف عربية.

- لديه اهتمام بالتصوير الفوتوغرافي، وأقام عدداً من المعارض للصور الفوتوغرافية في المملكـة العربيـة السعودية.